كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

في ١٧ مارس الماضي نظم مركز الدراسات والوثائق برأس الخيمة ندوة عن العلاقات التاريخية بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية .. وقد شارك في هذه الندوة عدد كبير من الأساتذة العرب والهنود وقدموا خلالها عددا من الأبحاث والدراسات التى تناولت كل أبعاد هذه العلاقة عبر مساحة زمنية عريضة بدأت منذ فجر التاريخ .
هذه الندوة - في اعتقادي - تعتبر واحدة من أهم الندوات المماثلة التى شهدتها المنطقة ، ذلك لأنها تضع أمام المهتمين بالعلاقات الخليجية/ الهندية أو العلاقات الخليجية/ الجنوب شرق أسيوية . مجموعة من الحقائق التي تحتاج الى تفهم واع . وتحليل دقيق . وتقييم موضوعي ، ونظرة جدية يمكن أن تحدد ملامح علاقات جديدة للمستقبل الملىء بالمتغيرات والمحوط بالتوقعات .

الحقيقة الأولى :

هي أن العلاقات بين الخليج وشبه القارة الهندية أقدم مما يمكن أن يتصوره البعض ، فهي توغل في القدم حتى الألف الثالث قبل الميلاد ، وقد انتعشت على مر التاريخ فكانت الهند سوقا رائجة لانتاج الخليج من اللؤلؤ والتمور كما كانت مصدرا هاما لواردات دول منطقة الخليج في كثير من البضائع والسلع ، هذا التبادل التجاري الذى كان ينمو باطراد أخذاً وعطاء ، أثمر انتعاشا ونماء ورخاء تمتعت به المنطقتان . وقد ساعدت على ذلك عوامل كثيرة منها قرب المسافة وتوافر خطوط المواصلات ثم طبيعة السلع نفسها وحاجة الأسواق بالمنطقة وقد ظل هذا الانتعاش قائما حتى بدأ عصر الهجمات الأوروبية الذى بدأ

بالبرتغاليين ليتبعهم الهولنديون فالانجليز هذه الهجمات أخذت صورا مختلفة عبر التاريخ ، تمثلت في الحرب البحرية ثم الاستعمار العسكري ثم الاستعمار الاقتصادي وكانت النتيجة هي اقامة الحواجز بين المنطقتين ثم السيطرة على الأسواق ثم تحويل الخليج وشبه القارة معا الى أسواق لمنتجات الغرب وسلعه وبضائعه .

الحقيقة الثانية :

هي أنه على الرغم من أن العلاقات بين الخليج وشبه القارة الهندية قديمة جدا كما قلنا إلا أن هذه العلاقات وكما ظهر من أبحاث ندوة رأس الخيمة أخذت شكلا آخر مع ظهور الاسلام . فقد تفتحت مع الدعوة الجديدة أبواب كثيرة على شبه القارة وامتدت جسور متينة وحمل التجار المسلمون مع مختلف البضائع روحا جديدا طالعه الهنود لأول مرة وكانت النتيجة أن زحف الاسلام ووصلت أنواره الى كثير من أصقاع هذه المنطقة المترامية وتكونت ممالك اسلامية عديدة . ونظرة واحدة على تعداد المسلمين في المنطقة اليوم تدعو للعجب ففي الهند مائة مليون مسلم فإذا أضفنا اليهم ٧٠ مليونا في باكستان و ٨٠ مليونا في بنجلاديش وهي الدول الثلاث التى كان يتكون منها شبه القارة القديمة فإن المحصلة هي ٢٥٠ مليون مسلم مقابل ١٦ مليون مسيحي على الرغم من الجهود الخارقة التى بذلها المبشرون الذين كانوا يعتمدون ولقرون طويلة على الأساطيل الشرسة والجيوش الاستعمارية الجرارة والمتتابعة والمساعدات الغذائية المشبوهة وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الدعوة العظيمة إنما هي أقرب ما يكون الى الوجدان الهندي وأن هذا التقارب في النظرة الى الكون والحياة والمثل العليا يتطلب المزيد من الاستثمار بما يحقق صالح الشعوب العديدة التى تحيا فوق هذه الساحة العريضة وهو يؤكد المقولة الشهيرة أن الشرق شرق والغرب غرب .

الحقيقة الثالثة :

ان الدراسات والأبحاث التى قدمت كشفت وبصورة واضحة عن وجود الكثير من المصادر التاريخية والوثائق التى تمتلىء بها أرشيفات الهند وهي مصادر لم يحاول المؤرخون في الماضي الاعتماد عليها وإنما كان جل اعتمادهم على المصادر والمؤلفات الغربية وحدها وهي ليست

منزهة عن الهوى كما ذكرنا أكثر من مرة . واذا كانت مجموعة الأبحاث التى عرضت في الندوة ـ التى تقدم الوثيقة في هذا العدد مجموعة منها وتعرض لبقيتها في أعداد قادمة ان شاء الله ـ تقدم اضافة قيمة باعتبارها مصادر جديدة وموثقة لدارسي العلاقات الخليجية/ الهندية إلا أنها تدعو من جانب آخر الى ضرورة الاستفادة مما في الارشيفات الهندية ـ وهو كثير ـ لتأصيل البحث في هذا المجال ولتصحيح الكثير من المفاهيم التى قدمها مؤرخو الغرب ومصادره وهي في معظمها مليئة بالمآخذ والثغرات والتحيز .

الحقيقة الرابعة :

أن ندوة رأس الخيمة وهي واحدة من سلسلة ندوات سبقتها ندوة عن أحمد بن ماجد وأخرى عن العثمانيين والخليج هذه الندوات الثرية التى أعد لها إعدادا جيدا وبذل في سبيل تنظيمها جهد كبير لم تبخل به رأس الخيمة وإنما قدمته قيادتها بسخاء ووعى ولم يبخل به مركز الدراسات والوثائق بالديوان الأميري ومديره الأخ أحمد التدمري . هذه الندوة إنما تؤكد حرص هذا المركز وهو أحدث المراكز في المنطقة على ترسيخ أقدامه في مجال البحث التاريخي وعلى تقديم اضافات رائعة في هذا السبيل يشهد له بها الجميع .

هذه بعض الحقائق أو الملاحظات أو الانطباعات التى تشير اليها مجموعة أبحاث ندوة رأس الخيمة الأخيرة وهي الى جانب الكثير غيرها ـ فيما نعتقد ـ تحتاج الى وقفة علمية أكثر شمولا وهو ما ننتظره من دارسينا وعلمائنا والله ولي التوفيق .

عبدالله بن خالد آل خليفة



قراءة نقديّة

في مظاهر العلاقات وشبه القارة الهندية من

الأستاذ الدكتور :
ابراهيم القادري بوتشيش

من الثابت أن العلاقات التاريخية بين بلدان الخليج العربي وشبه القارة الهندية تضرب بجذورها في عمق التاريخ القديم . غير أنها زادت تجذرا وترسخا منذ أن أشرقت شمس الاسلام على ربوع الخليج . ومن الأكيد أن منطقة الامارات وغيرها من دول الخليج لعبت دورا رياديا في هذا الترابط . مصداق ذلك ما ذكره البلاذري



التاريخية بين الخليج العربي
القرن الأول إلى نهاية الثالث الهجري

وغيره من المؤرخين الثقاة ، من أن والى المنطقة . كان أول من وجه أنظاره ـ في الفترة الاسلامية الأولى ـ الى شبه الجزيرة الهندية (١) فكان للخليج بذلك شرف السبق لحمل الرسالة الاسلامية اليها ، ومد جسور العلاقات والتبادل الحضاري بين المنطقتين .

والجدير بالذكر، أن هدف هذه الدراسة لن ينحصر في أبراز عمق هذه العلاقات التاريخية فحسب، بل تسعى ـ في تواضع ـ الى محاولة تفسير كنهها، وتشريحها من خلال قراءة نقدية تستهدف تحليل العوامل التي دفعت بها الى الوجود والثبات والنماء، وذلك عن طريق استنطاق النصوص استنطاقا جديدا، وطرح تساؤلات تستمد مشروعيتها من أهمية الموقع الذي تحتله هذه العلاقات في الخارطة التاريخية للخليج العربي، وما افرزته بعض الدراسات من أحكام نعتقد أنها في حاجة الى تصويب.

ويمكن اختزال هذه التساؤلات في تساؤلين محوريين وهما:

١ ـ ما هى الدوافع التي حتمت التواصل والترابط بين الخليج العربي وشبه الجزيرة الهندية؟ وهذا تساؤل تفرضه طبيعة الدراسات السابقة التي لم تهتم بالاجابة عن ذلك، مع ما للموضوع من أهمية قصوى.

٢ ـ ما هى الكيفية أو الأسلوب الذي تشكلت به هذه العلاقات؟ وهو تساؤل تفرضه بعض التخريجات التي إبتكرتها بعض الدراسات الهندية التي زعمت ـ إفتراء ـ انها علاقات صيغت عن طريق القوة والعنف، وهو ما تسعى هذه الورقة الى دحضه والرد عليه.

ونحن في غنى عن القول أن المصادر التاريخية لا تجيب عن هذه التساؤلات بما يشفي الغليل، ذلك أن مؤلفيها اهتموا بتسجيل بعض الوقائع والأحداث بطريقة سردية كرونولوجية دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الأسباب العميقة التي كانت وراء ذلك [٢] وحتى ابن خلدون المؤرخ الفذ الذي عرف بتقصيه للحقائق وسبر غور الأحداث التاريخية، لم يسلم من هذه الآفة، بل لم يخصص للموضوع سوى صفحات هزيلة لا تروي ظمأ [٣] ناهيك عن الثغرات الكبيرة التي يلاحظها أي دارس متتبع لسياق الموضوع، الشيء الذي يجعل مهمته شاقة وعسيرة.

وإذا كانت المصادر الجغرافية وأدب الرحلات تكشف لنا النقاب عن جانب من هذه العلاقات، فالملاحظ أنها لا تعطى في الغالب الأعم سوى إشارات متناثرة متقطعة ومجزأة، مما يزيد الأمر صعوبة وتعقيدا.

ومع ذلك فمن انصاف القول أن هذا النوع من المصادر يقدم لنا مادة تساعد على التفسير والتحليل، خاصة كتب الرحالة الذين وقفوا بالعيان على أحوال شبه القارة الهندية، مثل سليمان التاجر السيرافي الذي كان تاجرا معروفا بالبصرة ومنها رحل أكثر من مرة الى بلاد الصين مرورا بالهند، ودون رحلته [٤] وكذلك المسعودي. على أننا للأسف، نفتقر الى تراث محلى، فإذا كانت المصادر العربية قد أمدتنا ببعض الأخبار والإشارات حول العلاقات الخليجية ـ الهندية في

العصور الاسلامية الأولى ، فإننا لا نجد من المصادر الهندية ما يكمل أخبار ووقائع تلك الفترة الغابرة . وبالتالي فإن هذه ثغرة أخرى تضاف الى مجموع المثبطات التي تحول دون تكوين فكرة شاملة عن الموضوع .

وعلى الرغم من هذه الصعوبات المصدرية والمنهجية ، يمكن في ضوء المعلومات المتاحة معالجة الموضوع المدروس من خلال جمع شتات النصوص المبعثرة في أمهات الكتب ، والاسترشاد بالظرفية التاريخية الدولية أنذاك ، وتقييم كل ذلك وفق ملاحظات تتماشى مع السياق العام لأحداث الفترة .

فبالنسبة للتساؤل الأول الذي طرحناه حول الدوافع التي حتمت مد جسور الصلات بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية ، يمكن الوقوف عند بعض الملاحظات التي تفسر سر نشأة العلاقات بين المنطقتين كما يلي :

١ ـ من المسلم به أن العلاقات التاريخية بين بلدان الخليج العربي وشبه القارة الهندية ليست وليدة الفترة موضوع الدراسة ، فقد أثبتت الأبحاث التاريخية مدى قدمها ، ويمكن إرجاعها الى الألف الثالث قبل الميلاد (٥) . ومما زاد في تعميق هذا التواصل ، الهجرات القديمة التي حدثت على مستوى موجات بشرية متتالية بين العرب والجاليات الهندية كالزط والأساورة والسيابجة والبياسرة الذين استقروا بشواطىء الخليج العربي (٦) . ولما جاء الاسلام ، وجد في هذا الإرث قاعدة مؤسسة وتربة خصبة لزرع بذرة التواصل ، وبما أنه كان دينا يدعو الى التسامح والتعاون بين أبناء البشرية جمعاء ، فليس من الغريب أن تزداد الرغبة من الجانبين في تعميق أواصر هذا التعاون ، وخلق علاقات تخدم مصالح شعوب المنطقتين .

٢ ـ ومن المعلوم أن المد الاسلامي كان قد بلغ ذروته في العصر الراشدي ، وكانت جحافل الجيش العربي تلتهم كل أوكار الوثنية ، وبما أن شبه القارة الهندية كانت لا تزال معقلا للعبادة الوثنية كما يؤكد ذلك ابن خلدون (٧) . فقد كان من الطبيعي أن تتطلع أنظار الجيش العربي بمبادرة من قادة الجيوش الخليجية (٨) الى تصفية هذه الجيوب وتطهيرها من دنس الوثنية . وبذلك أصبح الالتقاء بين المنطقتين حتميا توجهه العقيدة الاسلامية السمحاء .

٣ ـ ثمة قاسم مشترك بين الخليج وشبه القارة الهندية ساهم في تقاربهما ويتجلى ذلك في طبيعتهما البحرية ، فمنذ أقدم العصور كانت الشعوب البحرية هى السباقة الى الابحار والاتصال بحضارات العالم . ولم تشذ المنطقتان عن هذه القاعدة . فوضعيتهما البحرية جعلتهما غير منكفئتين أو متقوقعتين على نفسيهما بل حتمت عليهما الانفتاح على الخارج والاتصال بشعوب المعمورة . ولما كانت بلدان الخليج آنذاك تسيطر على

زمام البحار ، وخاصة الخليج العربي والمحيط الهندي [٩] ولما كانت شبه القارة الهندية تعد محطة رئيسية في التجارة العالمية ، فقد كان من البديهي أن تنفتح المنطقتان على بعضهما البعض ، بحيث لا نبالغ إذا قلنا أن كلاً منهما كان مكملا للطرف الآخر .

٤ ـ يضاف الى ذلك الموقع الجغرافي الاستراتيجي الذي تحتله المنطقتان على السواء فالخليج العربي يعد حلقة وصل بين الشرق وأوربا ، كما أن شبه القارة الهندية تعتبر موقعا حيويا استراتيجيا هاما في المحيط ، وكما أن أوروبا كانت تفتقر الى توابل الهند ، فإن المرور بالخليج العربي كان أمرا لابد منه . فموقع هذا الأخير جعله يلعب دور الوساطة التجارية ، وهو ما أهله ليكون طرفا أساسيا في المبادلات العالمية لذلك اتجهت اليه أنظار أوروبا من الغرب والهند من الشرق . وإذا أضفنا الى ذلك تقارب المنطقتين أمكن دون عناء فهم سر العلاقات التاريخية التي نشأت بينهما .

٥ ـ كما يجب عدم إغفال مميزات الفترة موضوع الدراسة في تفسير هذه العلاقات ، فالفترة هذه كانت تمثل عصر الملاحة الكبرى ، وقد لاحظ الباحثون المتخصصون أن المواصلات بالطرق البرية في هذه المرحلة فقدت دورها وأصبحت ضئيلة بالمقارنة مع حركة الملاحة الواسعة [١٠] . ولما كان الخليج العربي وشبه القارة الهندية يسيطران على شرايين الملاحة البحرية كما سبق الذكر ، فمن الطبيعي أن تتكامل جهودهما البحرية ، وأن يصبح الالتقاء والتعاون بين القوتين البحريتين مسألة حتمية .

٦ ـ ومن نافلة القول أن الظروف المناخية قد ساهمت بدورها في هذا التقارب بين المنطقتين ، إذ حتمت على بلدان الخليج الاعتماد على التجارة دون الزراعة . ولما كانت شبه الجزيرة الهندية أقرب المناطق المعروفة بالتجارة ، فليس من الغريب أن تمتد اليها أيادي تجار الخليج العربي . صحيح أن المصادر الجغرافية تشير الى وجود بعض الأراضي الزراعية الخليجية ، غير أنها لا تفصح عن ثروة زراعية حقيقية . شفيعنا في هذا الاستنتاج مقارنة بين النصوص التي أوردها ياقوت الحموي حول امارتي البحرين وعمان ومناطق أخرى مشهورة بثروتها الزراعية فهو يقول عن هجر قصبة البحرين [١١] بأن «فيها عيون ومياه وبلاد واسعة» بينما يذكر بشأن عمان أنها «ذات نخل وزروع ، إلا أن حرها يضرب به المثل [١٢]هذا في الوقت الذي نجده يصف مناطق أخرى زراعية من العالم الاسلامى وصفا أكثر ثراء [١٣] وان في مثل هذه المقارنة لدلالة كافية على أن الظروف المناخية في الخليج العربي لم تسمح بمنتوج زراعي وافر ، وهو ما حتم على الشعوب الخليجية استغلال البحر لربط صلات تجارية مع

العالم الخارجي ، وفي مقدمته شبه القارة الهندية التي كانت قبلة التجارة العالمية أنذاك .

٧ ـ وإذا تصفحنا كتب الجغرافيا ، وتتبعنا المنتوجات التي كانت تجود بها أرض شبه الجزيرة الهندية ، وهي المنتوجات التي تفتقر اليها بلدان الخليج ، أمكن اعطاء الدليل على حتمية هذا الاتصال ، فالصورة التي يقدمها لنا ابن خلدون عن السند ـ وهي جزء من بلاد الهند ـ تجعلنا نتأكد من توافر منتوجات هامة بها ، فضلا عن اسعارها الرخيصة التي كانت تميز أغلب المدن كالمنصورة [١٤] والملتان [١٥] وبسمد [١٦] وكيزكانان التي فضلا عن رخص أسعارها وجدت بها أصناف من الفواكه والخيرات [١٧] ، فمن الحتمى إذن أن تتطلع أنظار أهل المنطقة الخليجية الى هذه البقعة للاستفادة من ثرائها . هذا لا يعنى أنها كانت تفتقر كليا الى هذه المواد ، لكن الأرجح هو أنها لم تكن تسد حاجياتها وخاصة بعض المواد التي تحتاج اليها صناعتها ، فكانت تجد في شبه القارة الهندية السوق الذي يمولها ، ولنا في هذا الصدد مثال بارز وهو خشب الساج الذي كان محل طلب الخليجيين لبناء سفنهم التجارية ، فكان ساحل ملابار الهندي يمدهم بهذه البضاعة الهامة [١٨] ، ولذلك يمكن أن نخلص الى القول بأن الحاجة الاقتصادية فرضت على بلاد الخليج التعامل مع شبه القارة الهندية .

٨ ـ كما أن ازدهار المراكز التجارية سواء بالمدن الهندية أو الخليجية كان له الأثر الفعال في توجه المنطقتين نحو بعضهما البعض ، فمدينة الروز في الهند كما يصفها الجغرافيون «خصبة رفهة كثيرة التجارة» [١٩] والديبل وهى مدينة تقع شرقي نهر مهران ، وصفها ابن خلدون بأنها «متجر عظيم وتجارتها من وجوه كثيرة .. وليس لهم كثير شجر ولا نخيل ، وهو بلد قشف ، وانما مقامهم للتجارة» [٢٠] . ويزكي الجغرافي ابن سعيد هذا الوصف بقوله انها» أكبر فرض السند المشهورة ، وأنه يجلب منها المتاع الديبلي [٢١] .

وفي نفس السياق يصف هذا الجغرافي جزائر الديباجات على ساحل البحر الهندي بأنها «منازع للمراكب» . [٢٢] .

أما بلاد الخليج ، فكانت بدورها منطقة تجارية ارتبطت بها طموحات التجار حتى أن ياقوت أورد حديث النبى (ﷺ) بأن من تعذر عليه الرزق فعليه بعمان [٢٣] وكل هذه القرائن ، تنهض حجة على أن بلاد الخليج العربي عندما امتدت ببصرها نحو شبه الجزيرة الهندية ، فإنها لم تفعل ذلك اعتباطا ، وإنما لاقامة علاقات مع بلدان عرفت بقوتها وطول باعها في مضمار التجارة .

٩ ـ وإذا كانت التجارة قد جعلت من بلاد الهند قبلة للخليجيين الذين كانوا

يطمحون في تحقيق نهضة تجارية ، فإن وجود الذهب بالمنطقة أزكى رغبتهم ، وجعلهم يولون أبصارهم شطرها ، ويهرعون للاستفادة من هذا المعدن النفيس .

ولدينا من النصوص والروايات ما يؤكد توفر المنطقة على الذهب : فالمؤرخ ابن خلدون يزودنا برواية مفادها أنه منذ الوهلة الأولى التي كانت فيها طلائع الفتح العربي تدشن أروع ملحمة في هذا البلد ، وجد الفاتحون في احدى المدن قدرا كبيرا من الذهب في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية (٢٤) كما أن الرحالة الادريسي يشير في مصنفه الجغرافي الى أن مدينة الملتان سميت «بفرج بيت الذهب» لكثرة ما اشتملت عليه (٢٥) . وذكر جغرافي آخر بصدد احدى المدن الهندية أنه كان يوجد بها ملك يقال أنه فرش قصره بالفضة (٢٦) . فإذا صدقنا هذه الروايات أمكن فهم الرغبة الجامحة في اقامة علاقات بين المنطقتين وهذا ما حدا بأحد الباحثين الى القول بأن «شبه القارة الهندية التي كان العرب يعرفون سعة أرجائها وثروتها الطائلة كانت مطمع الأنظار ، وقبلة الأحلام (٢٦) مكرر .

١٠ - كما لا يمكن انكار رغبة خلافة العراق - احدى بلدان الخليج العربي - في تمتين هذا الترابط . فحين استقرت الفتوحات ، وأصبحت الامبراطورية العباسية لا تغرب عنها شمس نما في نفوس هؤلاء حب البذخ والرخاء والرفاه في العيش ، والحاجة الى المنتجات الأجنبية ، ومواد الترف التي اختصت بنتاجها بلاد الهند ، مما جعلهم يشجعون التجارة معها (٢٧) .

١١ - ولا شك أن الترابط بين المنطقتين يفسر كذلك بمحاولة خلافة العراق قطع الطريق على الفرس ، فبعد الهزائم الأولى التي كبدوها اياهم ، أرادوا أن يبعدوهم من الابحار على طول الخليج وارسال سفنهم الى عمان والهند ، فشيدوا لهذا الغرض مدينة البصرة التي أصبحت نقطة انطلاق تجار الخليج نحو الهند والشرق (٢٨) .

١٢ - ولا يجب أن يغيب عن الأذهان كذلك أن فئة التجار في الهند والخليج على السواء كانوا يبحثون عن «فائض» لانجاز مشروعاتهم الطموحة ، لذلك عملوا على لعب دور الوساطة بين الوكالات التجارية الكبرى في الهند وبين الخلفاء وكبار التجار والأعيان المستقرين في الخليج ، فكانوا يجلبون مواد الترف مثل العطور والحرائر (٢٩) بالاضافة الى التوابل ، فيزودون بها بلاط العراق وأمراء البحرين وعمان ومسقط وغيرها من موانيء الخليج .

١٣ - وبالمثل ، فإن الهجرات

المتبادلة سواء تلك التي تمت عن طواعية أو بطريقة قسرية ساهمت بشكل أو بأخر في تقارب المنطقتين وانشاء علاقات بينهما . وبهذا الصدد تذكر احدى الروايات ان الحجاج بن يوسف الثقفي أجلى من العراق قبيلة بني هاشم ، فاستوطنت هذه الأخيرة غرب الهند وأقام بعضها بساحل بومباي [٣٠] . وان عملية من هذا القبيل لا يمكن إلا أن تؤدي الى تلاحم الشعوب ، وتمهيد الطريق لتأسيس علاقات متينة بواسطة اختلاط الدم والأجناس بين المنطقتين .

نخلص من كل ما تقدم الى أن العلاقات التاريخية التي نشأت بين بلدان الخليج العربي وشبه القارة الهندية لم تحدث بمحض الصدفة ، وإنما تحكمت فيها عوامل مختلفة ومتشابكة عملت على توجيهها ، وكانت كل هذه العوامل تقرب بين المنطقتين ، وتجعل اتصالاتهما مسألة حتمية .

يبقى علينا أن نجيب فى الشق الثانى من هذا البحث على التساؤل المحورى الآخر وهو : ما هي الكيفية التي تشكلت بها هذه العلاقات ؟ وهل كانت تطبعها الروح العدوانية والعنف والغلبة ، أم كانت تتميز بروح التسامح والتعايش السلمي والتكافؤ ؟ .

تذهب بعض الدراسات الهندية الى خطأ متعمد حين تحاول تصوير تاريخ العرب والمسلمين في الهند خلال العصور الوسطى على أنه مجرد صراع بين المسلمين والهندوكيين ، زاعمه أن العرب استغلوا القوة فخربوا الحضارة الهندية [٣١] وهي نظرة تنم عن خلفية مسبقة تستلزم المراجعة واعادة النظر .

صحيح ان العلاقات بين العرب ـ بما فيهم عرب الخليج ـ من جهة وشعوب شبه الجزيرة الهندية من جهة أخرى شابتها أحيانا مظاهر القوة لكن ذلك لم يحل دون إتباع أسلوب السلم والموعظة الحسنة التي تنسمتها الشعوب الهندية فعبقت بشذاها . وحتى عمليات الفتح التي ربما يشم منها رائحة العنف والاكراه ، كثيرا ما صحبتها عمليات الاقناع والفتح بالصلح [٣٢] ، وفي ذلك أكبر دليل على الطابع السلمي لهذه العلاقات .

وعلى العموم وتمشيا مع الانصاف الذي تفرضه الموضوعية التاريخية ، يمكن أن نصنف العلاقات بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية في صورتين مختلفتين .

١ ـ السمات العسكرية في العلاقات الثنائية :

بدأت الاتصالات الأولى بين منطقة الخليج العربي وشبه القارة الهندية في الفترة الاسلامية بعمليات الفتح

الاسلامي التي ترجع بدايتها الى عهد عمر بن الخطاب . وقد لعبت دول الخليج دورا رئيسيا في هذا الاكتساح الاسلامي وضم بلاد الهند الى «دار الاسلام» وبهذا الخصوص أورد البلاذري (٣٣) رواية هامة مؤداها أن الخليفة المذكور ولي عثمان بن العاص الثقفي ولاية البحرين وعمان سنة ١٥ هـ (٦٣٦م) ، فوجه هذا الأخير أخاه الحكم الى البحرين ، ومضى الى عمان فأقطع جيشا الى تانة ، وعزم على تنفيذ خطة لفتح الجزء الأسفل من نهر السند ، غير أن الخليفة عمر لم يشجع هذه المبادرة لقساوة بلاد الهند .

ولما تسلم عثمان بن عفان سدة الخلافة ، وجه الى عامله بالعراق أمرا لاختبار أحوال ثغر الهند ، فأرسل اليها هذا الأخير مبعوثا . فلما رجع وصفها لعثمان بقوله : «ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل ، ان قل الجيش فيها ضاعوا ، وان كثروا جاعوا» (٣٤) .

ويقوم هذا النص حجة أن العرب لم يكونوا مغامرين غزاة نهابة ، بل كانوا يسيرون وفق هدى الخليفة ، وبعد التعرف على أحوال البلاد وجس النبض . ولو كانوا مولعين بالقوة واستعمال العنف لما تباطأوا في الدخول في مغامرة خاسرة .

ولم تبدأ أولى المواجهات العسكرية الحقيقية إلا في عهد الخليفة الرابع على بن ابى طالب ، إذ خرج القائد الحارث بن مرة العبدي في سنة ٣٩هـ في حملة عسكرية خاطفة أسفرت عن بعض الغنائم لكنه لقى حتفه ثم جاء دور القائد العربي المهلب بن ابي صفرة الذي لم يحقق انتصارات تذكر (٣٥) ، إلا أن العزم على فتح **الهند بدا واضحا خاصة في عهد** الخليفة الأموي معاوية بن ابى سفيان . وقد علق المؤرخ GIBBON على وضعية الهند في عهد هذا الخليفة بقوله بأن بلاد الهند كانت ترتعش في أيامه (٣٦)وهو تصوير لا نرى أنه صادق ، إذ يلوح من خلاله أن العرب كانوا يفضلون أسلوب العنف ، ولكنه تناسى أن بلدا مثل الهند الذي كانت تعشش فيه الفوضى والتجزئة ، لم يسعه إلا أن يرحب بفاتح موحد ومحرر .

وتكلف بهذه المهمة العسكرية عدة قادة منهم عبدالله بن سوار العبدي ، لكن الفضل يرجع الى القائد العربي الشاب المحنك محمد بن القاسم الثقفي في انجاز هذه المهمة التاريخية وربط مصير شبه الجزيرة الهندية بمصير الدولة العربية حيث تهاوت أمامه مدن السند (٣٧)وفق خطة محكمة خططها الحجاج بن يوسف .

فإلى جانب جيش محمد بن القاسم المذكور (٣٨) بعث الحجاج بجيش ثان

بقيادة قتيبة ، بالاضافة الى أسطول قام من الخليج العربي لدعم الجيشين ، وفي وقت قصير ، سقطت مدن السند الرئيسية ، ولم يكد القرن الأول للهجرة يجنح الى نهايته حتى كانت الراية الاسلامية ترفرف على البلاد التي تمتد من جبال الهمالايا حتى المحيط الهندي ، فدخلت هذه الأخيرة في الحظيرة العربية ، وبالتالي مع منطقة الخليج في علاقة وترابط أبدي .

وإذا كان أحد الباحثين[٣٩] يرى علة هذا الانتصار في قيمة الخطط الاستراتيجية التي وضعها الحجاج ، فإن دور نشاط الأسطول البحري الذي انطلق من الخليج العربي هو الذي لعب في رأينا الدور الحاسم .

ومهما كان الأمر فقد أصبحت مناطق هامة من شبه القارة الهندية جزءا من «دار الاسلام» مما جعلها تدخل في علاقة مع البلاد العربية وخاصة بلدان الخليج القريبة منها .

٢ - السمات السلمية في العلاقات الثنائية :

الى جانب السمة العسكرية التي طبعت العلاقات بين الخليج العربي ، وشبه القارة الهندية ، من الأكيد أنها تلونت كذلك بالطابع السلمي ، بل يمكن القول أن العلاقات السلمية سبقت نظيرتها العسكرية . وحسبنا ان سكان ساحل مالابار الهندي قد اعتنقوا الاسلام قبيل الفتح العربي للهند . فالمصادر الاسلامية تروي أن طائفة من التجار العرب دخلوا مالابار ، ومنها انتقلوا الى سرنديب لزيارة أثر قدم أبى البشر ، وفيها لقيهم ملك مالابار فأكرم وفادتهم [٤٠] .

وعلى أية حال يمكن تلمس الطابع السلمي في العلاقات بين الخليج العربي وشبه القارة الهندية وفق المحاور التالية :

أ - **المحور التجاري** : فقد كان تجار الخليج الى جانب ممارسة أنشطتهم التجارية ، يحملون معهم رسالة نشر تعاليم الاسلام ، واضعين نصب أعينهم العلائق الاجتماعية المتينة التي أقاموها مع السكان . فبفتح الهند انفتح الطريق أمام الهجرة الجماعية للتجار نحو الشواطىء الهندية وشواطىء الخليج على السواء . ومع مضي الزمن ، أخذت البضائع والسلع تحل محل القوة والسيف ، وأخذت المنطقتان تتبادلان وفود التجار . وهكذا كانت العلاقات التجارية التي أصبحت قائمة بين شبه القارة الهندية من ناحية ، والبلاد العربية الواقعة على ضفاف الخليج العربي من ناحية أخرى سببا في الدفع بعلاقات المنطقتين الى الامام في جو يسوده الأمن والسلام .

ومما يشهد على هذا التعايش السلمي - عن طريق التجارة - ما ذكره ابن سعيد من أن كنبابية من بلاد الجزرات الهندية «مشهورة يقصدها تجار الهند ، وفيها المسلمون ولهم فيها مساجد (٤١) .كما أن مدينة جاليور كانت مدينة مشهورة عند تجار المسلمين الذين يمرون من كنبابية الى دلهي (٤٢) وقد وقف المسعودي بنفسه عندما زار مدينة صيمور من بلاد الهند سنة ٣٠٤هـ على خليط من الأجناس من بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين اختلطوا مع أهالي البلاد وكونوا لنفسهم نظاما خاصا يعرف بالهزمة» يراد بها رئاسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة اليه» كما التقى بمجموعة من التجار فعدد أسماءهم (٤٣) .

شكلت العلاقات التجارية إذن مظهرا من مظاهر التعايش السلمي والتعاون في العلاقات الخليجية الهندية ، ولعب التجار دورا هاما في هذا التواصل .

ب - إختلاط الأجناس : من المعلوم أن التجار الخليجيين الذين أبحروا الى الهند استوطنوا مع الأهالي وعاشوا معهم جنبا الى جنب ، كما أن جاليات هندية استقرت في مدن الخليج ، فتمت عمليات الزواج والمصاهرة ، مما أدى الى امتزاج اجتماعي قل نظيره ، وفي هذا الصدد ذكر المسعودي (٤٤) ان طائفة من الجنس الهندي تسمى البياسر ، وهم المولدون من أباء عرب وأمهات هنديات كانوا يتنقلون من شبه القارة الهندية وبلاد الخليج العربي ليشتغلوا في حراسة السفن (٤٥)وتم الزواج بين مختلف هذه العناصر الهندية والخليجية . وقد كان المسعودي شاهد عيان حيث قال عندما زار الهند : «وبها يومئذ من المسلمين نحو عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين . وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن تلك البلاد (٤٦) .

ج - الرحلات : ان الرحلات من بلاد الخليج الى الهند أو العكس شكلت معلما بارزا من معالم التواصل السلمي ، والعلاقات الانسانية بين المنطقتين . وقد احتفظت لنا أيادي القدر بمؤلفات كان أصحابها قد حطوا الرحال في بلاد الهند ، ومنهم سليمان التاجر السيرافي الذي زار هذا البلد سنة ٢٢٤هـ (٤٧) ، والتاجر برزك بن شهريار الذي وصل الى الهند قادما من العراق وصنف كتابه «عجائب الهند ، بره وبحره» (٤٨) .

د - دور العلماء : كان العلماء المسلمون من الخليج العربي يلقون بعصا التسيار في الهند ، ويتخذون من

تعاليم الدين حرفة لهم احتسابا لله تعالى (٤٩). كما اعتنوا بتشييد المساجد، ووصل هذا التأثير الى حد نشأة فن خليجي - هندي. فالمبنى العظيم المسمى «البابن الأعظم» الذي بناه ملك مالابار في كوئل بجنوب الهند هو نموذج ناطق للطراز العربي - الهندي (٥٠).

وكذلك يبرز هذا التعايش على الصعيد الثقافي في اعتناء خلافة العراق بالعلوم الهندية، فقد كان الخليفة المنصور أول من أمر بترجمة الكتاب الهندي المعروف بالسند هانا (٥١).

وعلى نفس المنوال استفاد علماء الهند بالثقافة العربية حين تمت ترجمة القرآن الكريم الى اللغة الهندية في عهد مهروك بن رائق ملك الوراهندوسي سنة ٢٠٧هـ (٥٢).

وبذلك أصبحت مظاهر الثقافة المتبادلة بين بلدان الخليج العربي وشبه القارة الهندية احدى سمات التعايش السلمي والتفاعل الحضاري بين المنطقتين ولعل هذه القرائن التي أوردناها تنهض حجة على أن العلاقات الخليجية - الهندية لم تكن مؤسسة على القوة والغلبة كما تزعم بعض الدراسات المغرضة، بل كانت تحمل رسالة سامية، ويخيم عليها روح التفاهم والسلم والتواصل الحضاري.

صفوة القول هو أن العلاقات التاريخية بين منطقة الخليج العربي وشبه القارة الهندية علاقة عريقة زادها الاسلام قوة وتجذرا. ولم تتأسس كما أظهر ذلك البحث - بمحض الصدفة، بل تحكمت فيها مجموعة من الآليات والعوامل المتشابكة التي قمنا بتحليلها فاستنتجنا حتمية تلك العلاقات بما يتماشى مع طبيعة الظرفية التاريخية في الفترة المدروسة. كما تبين من خلال هذه الدراسة أن العلاقات بين الجانبين لم تكن متسمة بالطابع العدواني والقوة والبطش كما ذهبت الى ذلك بعض الدراسات المتحاملة، بل كانت مطبوعة بروح التعايش السلمي وتحمل خطابا وديا للشعوب التي اتصلت بها، وهو ما يمكن أن نلمسه في تراث وآثار طرفي العلاقة والذي لا زال بعضه ماثلا للعيان الى اليوم، وبإمكان علم الآثار والتنقيبات التي يقوم بها الباحثون المختصون أن يميط اللثام عن كثير من مظاهر تلك العلاقات، وهو موضوع لا زال في حاجة الى البحث والتمحيص.

أ.د. ابراهيم القادري بوتشيش
استاذ التاريخ الاسلامي
كلية الآداب - جامعة المولى اسماعيل
مكناس - المغرب

المصادر والمراجع المستعملة في البحث

أولا : المصادر الأصلية :

١ - ابن الاثير عزالدين ابو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم الجزري (توفي سنة ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ ج.٤. طبعة مصر ١٣٤٨هـ.

٢ - ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن على بن حوقل الموصلي (توفي سنة ٣٦٧هـ) صورة الأرض طبعة بيروت ١٩٧٩ - دار الحياة.

٣ - ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (توفي سنة ٨٠٨هـ) . تاريخ ابن خلدون المعروف بكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ج ٣ . طبعة بيروت ١٩٧٩ دار الكتب العلمية .

٤ - ابن سعيد ، أبو سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى بن عبدالملك الاندلسي (توفي سنة ٦٨٥هـ) . كتاب الجغرافيا تحقيق وتعليق اسماعيل العربي . طبعة بيروت ١٩٧٠ الطبعة الأولى ، المكتب التجاري للطباعة والنشر .

٥ - الأدريسي ، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الشريف (توفي سنة ٥٦٠هـ) . وصف الهند - مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق . تحقيق أحمد مقبول . طبعة الهند ١٩٥٤ .

٦ - البلاذري ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي (توفي سنة ٢٧٩هـ(. فتوح البلدان . طبعة بيروت ١٩٧٨ ، دار الكتب العلمية .

٧ - المسعودي ، أبو الحسن على بن الحسين بن علي (توفي سنة ٣٤٦هـ) . مروج الذهب ومعادن الجوهر .ج ١ طبعة مصر ١٩٤٦ (الطبعة ٤) . السعادة .

٨ - ياقوت الحموي ، أبو عبدالله بن عبدالله الرومي (توفي سنة ٦٢٦هـ) . معجم البلدان . الأجزاء الخمسة . طبعة بيروت (دون تاريخ) دار الكتاب العربي .

ثانيا : المراجع والدراسات العربية الحديثة :

٩ - الألوسي ، عادل محيي الدين : الصلات التجارية بين الخليج وجنوب شرقي أسيا في العصر العباسي الأول . مجلة الخليج العدد ٣ - ٤ سنة ١٩٨٤ .

١٠- شاخت وأخرون : تراث الاسلام : الترجمة العربية . طبعة الكويت (الثانية) ١٩٨٨ الجزء الأول . سلسلة عالم المعرفة ٨ .

١١- الشيخلي صباح ابراهيم والالوسي عادل محيي الدين : تاريخ الاسلام في افريقيا وجنوب شرق أسيا . طبعة بغداد ١٩٨٩ .

١٢- ماجد عبد المنعم : التاريخ السياسي للدولة العثمانية ، عصر الخلفاء الأمويين . طبعة القاهرة ١٩٨٣ (ط ٧) .

١٣- محمد كريم ابراهيم : العلاقات التجارية بين عدن والهند خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر الثالث عشر الميلاديين مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٣٣ سنة ١٩٨٧ .
١٤- المباركبوري : رجال السند والهند . طبعة الهند ١٩٥٨ .
١٥- مقبول احمد : العلاقات التجارية بين الهند والعرب مجلة ثقافة الهند مجلد ١٦ ، عدد ١ سنة ١٩٦٥ .
١٦- الندوي محمد اسماعيل : تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية طبعة بيروت (دون تاريخ) .
١٧- هايد : تاريخ التجارة في الشرق الادنى في العصور الوسطى الترجمة العربية . طبعة مصر ١٩٨٥ .
١٨- يعقوب بكر : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى . طبعة مصر ١٩٥٨ .

ثالثا : مراجع أجنبية :

19- Encyclopedie de l'Islam ed. Leyde 1913-1942, 2eme ed. Paris 1954.
20- GIBBON: The decline and fall of the Roman empire. Tome 5 London 1950.
21- Saint-Martin: Recherches sur l'histoir et la géographie de la mesene et de la characene. Paris 1833.

الهوامش

(١) فتوح البلدان . طبعة بيروت ١٩٧٨ ص ٤٢٠ . عبدالمنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الامويين طبعة القاهرة ١٩٨٣ ـ الطبعة السابعة ص ٢٣٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب فتوح البلدان للبلاذري الآنف الذكر ص ٤٢٠ وما بعدها حيث نلاحظ انه يسرد الأحداث والوقائع الخاصة بفتح بلاد السند دون أن يحلل أسبابها وهذه طريقة كانت متبعة من طرف أغلب مؤرخي الفترة الوسيطية .

(٣) خصص ابن خلدون لفتح السند فقرة غير طويلة ، وبنفس المقدار خصص رواية لأخبار محمد بن القاسم بالسند أنظر : تاريخ ابن خلدون طبعة بيروت ١٩٧٩ج ٣ ص ٦٠ وص ٦٦ .

(٤) نشر هذه الرحلة المستشرق فران سنة ١٨٨١ تحت عنوان «رحلة الى الصين والهند» ، كما نشرها المستشرق سوفاجيه تحت عنوان «اخبار الهند والصين» .

(٥) يعقوب بكر : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، طبعة مصر ١٩٥٨ ص ٤٧ .

(٦) الشيخلي والآلوسي : تاريخ الاسلام في افريقيا وجنوب شرق آسيا ، طبعة بغداد ١٩٨٩ جـ ٢ ص ١٦١ .

(٧) يقول ابن خلدون بأن مدينة الديبل في السند كان بها صنم كبير يعبده الأهالى ، وقد حطمه الفاتحون العرب . أنظر : تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٦٠ .

(٨) البلاذري في فتوح ص ٤٢٠ . أبرز دور والى البحرين وعمان في التفكير في غزو السند .

(٩) محمد كريم ابراهيم ، العلاقات التجارية بين عدن والهند خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢ ـ ١٣م) . مجلة المؤرخ العربي . ع ٣٣ سنة ١٩٨٧ ص ٢٢٥ .

(١٠) هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى . طبعة القاهرة ١٩٣٥ . الترجمة العربية ص ٥٣ .

(١١) ياقوت : معجم البلدان ، طبعة بيروت (دون تاريخ) ج ١ ص ٣٤٧ .
(١٢) معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٥٠ .
(١٣) انظر مثلا وصفه لاشبيليه : نفس المصدر حـ ١ ص ١٥٠ .
(١٤) ابن حوقل : صورة الأرض . طبعة بيروت ١٩٧٩ ص ٢٧٧ .
(١٥) نفســـه ص ٢٧٨ .
(١٦) نفســـه ص ٢٧٩ .
(١٧) نفســـه ص ٢٨٠ .
(١٨) الندوي : تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ، طبعة بيروت (دون تاريخ) ص ٤٣ .
(١٩) ابن حوقل : م. س. ص ٢٧٩ .
(٢٠) نفس المصدر والصفحة
(٢١) كتاب الجغرافيا المعروف ببسط الأرض : طبعة بيروت ١٩٧٠ تحقيق اسماعيل العربي ص ١١٩ .
(٢٢) نفس المصدر والصفحة .
(٢٣) ياقوت : م. س. ج ٤ ص ١٥٠ .
(٢٤) ابن خلدون : م. س. ص ٦١ .
(٢٥) الادريسي : وصف الهند وما يجاورها من البلاد تحقيق مقبول احمد . طبعة الهند ١٩٥٤ ص ٤١ .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ . طبعة مصر ١٩٤٨ ج ٤ ص ١١٢ .
(٢٦) ابن سعيد : م. س. ص ١٠٧ .
(٢٦) مكرر : ن. م. هـ ٣٠ من مقدمة التحقيق .
(٢٧) هـــايد : م. س. ص ٤٣ .
(٢٨) Saint-Martin : Recherchessur l'histoire et la ge´ographie de la mecene et de la characene . Paris 1833. P 54.
(٢٩) هـــايد : م. س. ص ٤٤ .
(٣٠) النـــدوي : م. س. ص ١٦٨ .
(٣١) الشيخلي والالوسي : م. س. ص ١٦٩ . ويستثنى من هذا التعميم بعض الكتاب الهنديين من أمثال الندوي المشار اليه في الهامش السابق وكذلك جواهر لال نهرو في كتابه لمحات من تاريخ العالم .
(٣٢) أنظر عن بعض المدن التي فتحت صلحا بأرض السند عند البلاذري : م. س. ص ٤٢٥ .
(٣٣) نفسه ص ٤٢٠ ـ عبدالمنعم ماجد : م. س. ص ٢٣٣ .
(٣٤) نفســـه ص ٤٢١ .

(٣٥) الشيخلي والالوسي : م. س. ص ١٦٣ .

(٣٦) GIBBON : The Decline and Fall of the Roman Empire London 1950, Tome 5 P 388.

(٣٧) شاخت : تراث الاسلام : طبعة الكويت ١٩٨٨ ص ١٩٦ .

(٣٨) هو احد أقرباء الحجاج بن يوسف ولم يكن يتجاوز السابعة عشرة من عمره . انظر عنه :
L'Encyclope'die del L'Islam . T : 3 P 717-718

(٣٩) اسماعيل العربي : مقدمة كتاب الجغرافيا لابن سعيد ص ٣١ .

(٤٠) شاخت : م. س ص ١٩٥ .

(٤١) ابن سعيد : م. س. ص ١٢٠ .

(٤٢) نفس المصدر والصفحة .

(٤٣) المسعودي : مروج الذهب . طبعة مصر ١٩٦٤ . ج ١ ص ٢١٠ .

(٤٤) نفس المصدر والصفحة .

(٤٥) أحمد مقبول : العلاقات التجارية بين الهند والعرب . مجلة ثقافة الهند . مجلة ١٦ عدد ١ .

(٤٦) المسعودي : م. س ص ٢١٣ .

(٤٧) اسماعيل العربي : م. س ص ٣٣ .

(٤٨) الشيخلي والالوسي : م. س ص ١٥٣ .

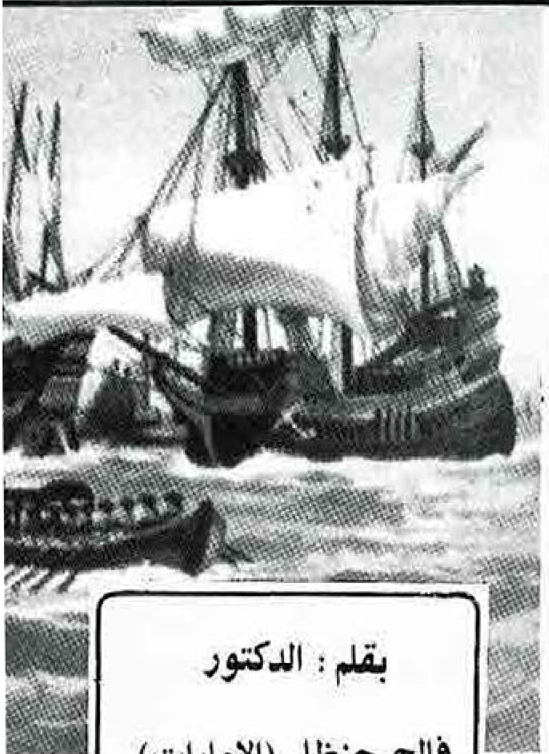
(٤٩) نفسه ص ١٤٦ .

(٥٠) المباركبوري : رجال السند والهند في القرن السابع . طبعة الهند ص ٢٩٥

(٥١) اسماعيل العربي : م. س ص ٣٢ .

(٥٢) الشيخلي والالوسي : م. س ص ١٧٥ .

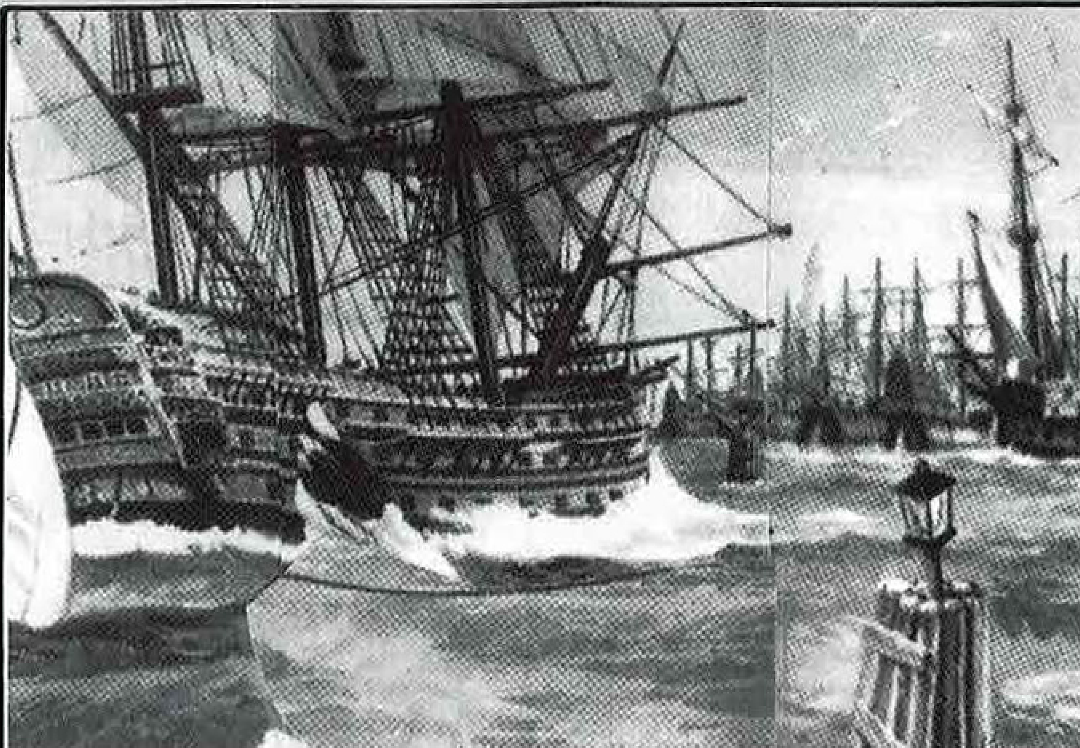
معارك البحرية العثمانية ضد البحرية البرتغالية في الخليج العربي



بقلم : الدكتور
فالح حنظل (الامارات)

لا تقتصر أهمية الخليج العربي على يومنا هذا ، أي عصر البترول المستخرج من مياهه وأراضيه ، ولكن أهميته ترجع الى قرون قديمة ، وهي بالدرجة الأولى أهميته التجارية والاقتصادية .

فالخليج العربي وسيلة من وسائل الاتصال الرئيسية بين الشرق والغرب ، وفيه امتزجت الحضارات وتبودلت التجارات فهو الذراع



البحرية للمحيط الهندي الذي تنقل تجارة الشرق إلى الغرب ، وتشاركه الذراع البحرية الأخرى وهي البحر الاحمر الذي يتساوى معه في الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية ، فهما وسيلتا الاتصال بين أوروبا والشرق .

لقد كانت طرق التجارة البحرية العالمية التي تنقل تجارة الشرق الى الغرب تمر من الممرين المائيين العربيين الكبيرين وهما طريق الخليج العربي ، فنهر الفرات ثم إلى سواحل البحر المتوسط أو طريق البحر الأحمر ثم خليج السويس ومنه إلى سواحل البحر المتوسط ، وقد تمثلت تجارة العالم القديم الرئيسية مع الشرق بالبضائع الهندية وخاصة التوابل التي كان الأوروبيون يستعملونها لتطييب الطعام وحفظه من التلف أيضا .

وإلى أوائل القرن السادس عشر للميلاد كانت الفعاليات التجارية وعمليات نقل البضائع الهندية من موانئها في سواحل الهند الغربية المواجهة للبلاد العربية ، وكذلك

العمليات التجارية كالبيع والشراء والمقايضة ومعاملات التسويق وغيرها من الشئون التجارية تقوم بها الدول العـربية والاسـلامية التي تطـل سواحلها على الخليج العربي وجنوب شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر .

فبالنسبة لطريق الخليج العربي كانت حكومة جزيرة هرمز التي تقع في مدخل الخليج تحتل بعض الاجزاء السـاحلية من عمـان والبحـرين وسواحل القطيف والأحساء ، وهي بذلك كانت تسيطر ايضا على خطوط الملاحة التجـارية وحـركة السفن وشئون الجمارك وغيرها من الامور التجارية للسفن التي تأتي بالبضائع الهندية من موانئها فتمر من مدخل الخليج العربي حيث تقع هرمز ، وتتوقف في (جلفار) رأس الخيمة والبحرين والأحساء ثم إلى البصرة التي كانت تشكل مركز تجارة الهند في شمال الخليج ، وكانت ايضا مركز تجمع للسفن لتدخل بعدها إلى نهر الفرات في الأراضي العراقية ثم نهر الفرات في الأراضي السورية ، حيث تُنزل الأحمال هناك ، ويعاد تحميلها على ظهور الركائب إلى الموانىء العربية في ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ليعاد بيعها هناك إلى السفن الأوروبية التي تنقلها إلى أوربا لتباع هناك .

أما الطريق البحري الأكثر أهمية من طريق الخليج العـربي ، فهو الطريق الذي يمر بالقرب من سواحل جنوب شبه الجزيرة العربية أي موانىء عمان واليمن الجنوبية ، ثم يدخل مضيق بـاب المندب حيث سواحل اليمن الشمالية ، ثم موانىء السودان والحجاز الى أن يصل الى خليج السويس حيث ترسو السفن هناك لتفرغ حمولتها وتنقلها على ظهور الركائب الى ميناء الاسكندرية لتقوم حكومة مصر ببيعها إلى تجار حكومة البندقية الأوربية .

أما الوضعية السياسية التي كانت عليها دول المنطقة قبل أن تتفتح أعين الدول الاوربية على انتزاع تلك التجارة من يد العرب والمسلمين ، أي قبل وصول البرتغاليين إلى الهند عام ١٥٠٢ م فقد كانت كما يلي :

كانت في هرمز حكومـة محلية تخضع سياسيا إلى دولة فارس ، وكانت تسيطر على مدخل الخليج العربي وبعض سواحل عمان وبعض أجزاء الساحل العربي أيضا .

أما عمان ، فقد كانت الصورة السياسية لتلك الدولة غير واضحة ، إذ أن دخول البرتغاليين إلى مدن خورفكان ومطرح ومسقط وغيرها من مدن عمان وسقوطها بيد (أفونسو البوكيرك) القـائد البـرتغالي عـام ١٥٠٣ ، هذا الحدث الكبير لم نجد له تاريخا في مصادر التاريخ العماني ،

إذ كل ما ذكره العمانيون ، هو أن عمان كان يحكمها الإمام محمد بن اسماعيل الاسماعيلي الذي تولى الإمامة من عام ٩٠٦ هـ ـ ١٥٠٠ م إلى عام ٩٢٤ هـ ـ ١٥٣٥ م .[١]

أما البحرين فقد كانت زعامتها بيد أمير عربي هو الامير مقرن بن أجود بن زامل الجبري، زعيم قبائل الجبور أو (بني جبر) وهي التي كانت تسود وتحكم في البحرين وساحل القطيف ويمتد نفوذها الى مسقط وخورفكان ، حيث يفهم من مذكرات القائد البرتغالي (أفونسو البوكيرك) أن الحكام العرب الذين تصدوا له وقاتلوه هناك كانوا من بني جبر .[٢]

أما العراق فقد كانت تحت سلطة (آق قوينلو) إلا أن البصرة كانت تحت حكم حكومات عشائرية محلية لآل المشعشع وآل عليان الى أن آل أمرها إلى الأمير راشد بن مغامس فيما بعد والذي امتد نفوذه إلى ساحل الأحساء أيضا .

أما الدول العربية التي كانت تسيطر على طريق البحر الأحمر ، فان اليمن بشطريه الشمالي والجنوبي كان تحت ظل الدولة الطاهرية التي كان آخر ملوكها السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري والذي كان ينازعه على العرش والسلطة الامام شرف الدين يحيى بن شمس الدين الزيدي .[٣]

وكان ميناء عدن يشكل مركزا مهما تتوقف فيه السفن العربية وخاصة المصرية التي تنقل تجارة الهند إلى اوروبا .

أما الحجاز فقد شكل ميناء جدة مركزا تجاريا أيضا ، وكانت الحكومة القائمة هناك برئاسة الشريف بركات بن محمد أمير مكة الذي كان خاضعا لحكومة مصر المملوكية .

أما مصر ، وهي الدولة الاولى المستفيدة من تجارة الهند ، فقد كانت تحت حكم دولة المماليك البحرية وكان الحاكم آنذاك هو السلطان قانصوه الغوري ، الذي كان يمتد نفوذ دولته إلى الشام والحجاز وكانت مصر قد دخلت في اتفاقيات تجارية مع دولة البندقية لتصريف البضائع الهندية في أوربا وخاصة تجارة التوابل الثمينة ، كما كانت مصر قد تعاقدت أيضا مع أمراء ساحل الكجرات الهندي الشمالي وساحل المالبار الهندي الجنوبي ، وكلهم مسلمون ، على احتكار القسم الأكبر من تلك التجارة . إلا أن تمكن البرتغاليين من الوصول الى الهند ، فتح شهيتهم وحرك مطامعهم إلى غايتين :

الاولى اقتصادية بحتة ، الا وهي السيطرة على مصادر ثروة العالم آنذاك وهي تجارة توابل الهند ، مما أدى الى أن تعمل على السيطرة على الممرين العربيين العظيمين : الخليج ،

والبحر الأحمر ، أما الغاية الثانية فقد كانت تبشيرية محضة ، ووسيلتها الاتصال بمملكة القديس يوحنا أي الحبشة والتنسيق معها لضرب القوى الاسلامية في المنطقة ، ويكاد المرء يعجز عن وصف مظاهر الحقد الهائل الذي حمله البرتغاليون في قلوبهم لكل ما هو عربي ومسلم وهو يفتحون ممالك العرب والمسلمين ابتداء من المغرب العربي وانتهاء بحكومات الأمراء الهنود : لذلك ما إن حل عام ١٥٠٥ م حتى صارت البرتغال تجني الحاصل الطيب من وصولها إلى الهند ، فقد تمكنت من احتكار أغلب تجارة الهند بعد أن أخضعت حكامها بالقوة مما دفع بالملك البرتغالي (عمانويل الثاني) الى أن يقرر احتلال الساحل الغربي للهند ، فكانت الحملة العسكرية التي وصلت إلى الهند يوم ١٣/٩/١٥٠٥ م بقيادة (دوم فرانسيس دي الميدا) الذي أعلن نفسه نائبا لملك البرتغال هناك .(٤)

لذلك فقد انهالت رسائل ملوك الهند والعرب على سلطان مصر قانصوه الغوري لانقاذهم من هذا الخطر ، وانقاذ مصر أيضا التي تهددت في صميم اقتصادها واحتمال انهيار تجارتها وفقدان سمعتها التجارية والدولية ، لذلك فقد خرجت الحملة المصرية الأولى لقتال البرتغاليين في الهند بقيادة الأمير حسين الكردي ، الذي تمكن من إنزال هزيمة بالقوات البرتغالية في معركة (شول) عام ١٥٠٧ م .(٥)

وعلى إثر تلك الهزيمة ، قرر الملك البرتغالي إرسال حملة عسكرية كبرى إلى البلاد العربية لاخضاعها ، فكانت حملة (أفونسودي البوكيرك) التي تمكنت من احتلال هرمز ومدن الساحل العماني ، وقد أدى هذا الاحتلال إلى أن يقع الخليج العربي في قبضة البرتغاليين ، ولكي يتم (البوكيرك) أحكام الحصار والطوق العسكري على مصر التي كانت تتهيأ لحملة عسكرية ثانية ، فإنه قرر القيام بمغامرة عسكرية وهي احتلال عدن ، ثم التقدم بسفنه نحو باب المندب واحتلال جدة وبعد ذلك يقوم بشن هجوم على المدينة المنورة ويقوم بنبش الرفاة الطاهر للرسول الأعظم ﷺ ويأخذ التراب الشريف ، فاذا تم له هذا قايض به كنيسة القيامة في القدس وطلب مليون متطوع أوربي ليأتوا الى منابع النيل ويحولوا مجراه بحيث يصب في البحر الأحمر وبذلك تموت مصر .

لذلك فقد غادر (البوكيرك) الهند يوم ٢٨/٢/١٥١٣ م بحملة عسكرية كبرى لتنفيذ غرضه المجرم هذا ، الا أنه مني بهزيمة عسكرية كبرى أمام أسوار عدن أنزلها به حاكم المدينة الأمير مرجان الظافري ، وعندما توجه

الى الحجاز لتنفيذ غرضه الخبيث الثاني ، أنزلت به السماء هزيمة أكبر إذ حطمت الرياح سفنه على صخور جزيرة كمران بالقرب من سواحل اليمن الشمالي كما ظهر له لهب في السماء أرعب جنوده وأجبره على الانسحاب .(٦)

لذلك فقد قررت القيادة العسكرية البرتغالية أن تتخذ استراتيجية عسكرية جديدة في المنطقة وذلك بأن تقوم باحكام قبضتها على هرمز ومناطق الخليج العربية الأخرى ، وأن تراقب وتهاجم السفن المصرية واليمانية من قواعد بحرية تقيمها في جزيرة سقطرة وموانىء الحبشة والساحل الأفريقي الشرقي ، وقد نجحت تلك الخطة إلى حد كبير في التأثير في الأوضاع الاقتصادية في كل من اليمن ومصر بحيث لم يبق مجال امام سلطان مصر قانصوه الغوري الا أن يأمر بتشكيل حملة عسكرية ثانية بقيادة الأمير حسين الكردي لقتال البرتغاليين وقد خرجت الحملة المصرية الثانية من القاهرة يوم ١٥١٥/٨/٢٠ م .(٧)

إلا أن أمورا جساما وقعت في العالم الاسلامي آنذاك بحيث غيرت الخارطة السياسية فيه وخلطت الأوراق وقلبت المقاييس ، وذلك أن قوتين اسلاميتين كانتا قد ظهرتا على مسرح الأحداث في تلك الحقبة من التاريخ ، وهي قيام الدولة الصفوية في ايران عام ١٥٠٢ م بقيادة مؤسسها الشاه عباس الصفوي ، وامتداد تلك الدولة إلى العراق ، أما القوة الثانية فقد تمثلت في اعتلاء السلطان سليم بن السلطان بايزيد العثماني والمعروف باسم (ياووز سلطان) أي السلطان المهول ، للعرش العثماني عام ١٥١١ م .

وبدلا من أن تتوحد القوتان مع القوة الاسلامية الثالثة وهي قوة مصر المملوكية ، لمحاربة البرتغاليين الذين راحوا يعيثون فسادا في المياه الاقليمية العربية ويقاتلون السفن العربية والاسلامية ويحتلون السواحل العربية والاسلامية ، فإن حروبا نشبت بين تلك الممالك الاسلامية ، إذ أنزل السلطان سليم العثماني هزيمة بالشاه اسماعيل الصفوي في معركة (جالديران) عام ١٥١٤ م ودخل عاصمته (تبريز) . وفي عام ١٥١٦ م أوقع هزيمة مماثلة بسلطان مصر قانصوه الغوري في معركة (مرج دابق) ودخل عاصمته القاهرة وقضى على دولة المماليك البحرية وأعلن قيام الدولة العثمانية في مصر .(٨)

فماذا كانت النتائج السياسية لتلك الحروب والخلافات الاسلامية..؟

كانت نتيجتها أن الشاه اسماعيل الصفوي الذي كان يتقرب من

البرتغاليين سابقا لمساعدته في الوقوف ضد العثمانيين ، عقد معاهدة صلح وتعاون معهم ، مما أعطاهم حقا ثابتا في أن تكون هرمز قاعدة عسكرية وتجارية صرفة لهم ، بحيث قام البرتغاليون فيما بعد بمساعدة ملك هرمز ضد ثورة البحرين التي قام بها الأمير مقرن بن أجود ومصرعه على يد القائد البرتغالي (أنطونيو كوريا) عام ١٥٢١ م ، كما قاموا بإخضاع عرب عمان عندما ثارت مدن مسقط وقريات وصحار ضد التسلط الهرمزي - البرتغالي .

أما في مصر فقد أثر سقوطها بيد العثمانيين ، في الحملة المصرية الثانية التي كانت متوقفة آنذاك في عدن لتأخذ طريقها إلى الهند لمقاتلة البرتغاليين هناك ، إذ ما أن وصل خبر مقتل السلطان قانصوه الغوري وسقوط القاهرة بيد العثمانيين حتى غادر الامير حسين الكردي القائد العام للحملة المصرية الموجودة في اليمن مقره وقفل عائدا إلى القاهرة ، الا أنه أغتيل في الحجاز ، وكان مصير القوة المصرية أن انقسمت إلى قسمين ، قسم بقي يؤيد النظام المملوكي السابق ، وقسم أعلن الولاء والبيعة للنظام العثماني الجديد ، ثم لم يلبث أن تفاقم الأمر أكثر عندما انقسمت كتائب الحملة إلى قسمين آخرين واحد يؤيد سلطان اليمن عامر بن عبدالوهاب الطاهري ، وآخر يؤيد الامام الزيدي المنشق في اليمن الشمالي ، ثم آل الأمر في نهايته إلى أن انقلبت قوات تلك الحملة الى عصابات تعيث في اليمن فسادا فقتلت ملكها السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري ، وقسمت اليمن الى قسمين : شمالي يتمذهب بالمذهب الزيدي ، وجنوبي يتمذهب بالمذهب الشافعي . وإزاء تلك المصائب لم يكن أمام الأمير عامر بن داود الطاهري وهو ابن أخ السلطان القتيل الا أن يعقد صلحا مع البرتغاليين .(٩)

وأمام فساد تلك الأوضاع في اليمن وانتشار الفوضى فيها وتفاقم الخطر البرتغالي في جنوب شبه الجزيرة العربية والتحالف الصفوي البرتغالي في الخليج ، علاوة على قيام شيخ البصرة راشد بن مغامس بالخضوع للبرتغاليين هناك ، فما كان من السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان منشغلا بقتال الدول الأوربية في أوربا ومقاتلة الاسبان في الجزائر ، ودعم الحركات الوطنية المغربية ، الا أن ينظر في امر البرتغاليين بجدية اكثر فقرر أن يقوم والي مصر سليمان باشا الخادم باحتلال عدن واعلان حكم السلطنة العثمانية في اليمن ، ثم الخروج إلى الهند لمقاتلة البرتغاليين هناك .

فقام سليمان باشا الخادم بتنفيذ

أوامر الباب العالي واحتل عدن عام ١٥٣٨ وقطع رأس أميرها عامر بن داود الطاهري بحجة تعاونه مع البرتغاليين ، وأعلن أن اليمن بشماله وجنوبه خاضع للسلطان سليمان القانوني ، ثم ذهب إلى الهند وقاتل البرتغاليين هناك ولكن بدون أن يحرز عليهم نصرا حاسما وعاد الى القاهرة عام ١٥٤٠ م ، وبعدها اكتفت الحكومة العثمانية بأمور الدفاع عن اليمن والبحر الأحمر ضد احتمالات التدخل البرتغالي هناك .

أما بالنسبة للنشاطات العثمانية في العراق والخليج العربي فان بغداد كانت قد سقطت بيد العثمانيين قبل عشرة أعوام تقريبا ، إلا أن انشغال العثمانيين بساحات القتال في أوروبا وشمالي افريقيا جعلتهم غير مكترثين بولايات العراق النائية ومنها ولاية البصرة ، هذه الولاية التي كما أشرنا سابقا كانت بزعامة حكومة محلية يرأسها راشد بن مغامس الذي أعلن الولاء للبرتغاليين ثم لم يلبث أن أعلن ولاءه إلى الحكومة العثمانية ، إلا أن العثمانيين ورغم أهمية البصرة بالنسبة لأعدائهم الفرس الصفويين والبرتغاليين ، لم يضعوا في أول الامر الثقل الواجب وضعه في البصرة بل اكتفوا بالاعتراف بسلطة راشد بن مغامس هناك بشرط أن يقوم بسك النقود التركية ، وان يخطب بالجوامع للسلطان العثماني . لذلك فان شيوخ القبائل المتنفذة في منطقة البصرة استخفوا بحكومة السلطان العثماني في بغداد وعمدوا إلى قطع العلاقة بها واتباع وسائلهم القبلية في معالجة أمورهم ، لذلك فقد أصبحت البصرة مركزا للشيوخ العصاة وقطاع الطرق .

فلما بلغت الدولة العثمانية الأنباء المقلقة عن اضطراب الأمن في البصرة قرر أياس باشا والي بغداد أن يجهز حملة لتعيد هيبة الحكومة . فخرجت الحملة عام ١٥٤٦ م وأخضعت القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة . وفي عام ١٥٤٩ حاول الشيخ علي آل عليان شيخ مشايخ منطقة الجزائر أن يقوم بثورة لكن والي بغداد (تمرد علي باشا) أرسل جيشا انكشاريا بقيادة (محمد باشا البلطجي) وتمكن من القضاء عليه .(١٠)

إلا أن المصادر العربية والعثمانية والبرتغالية لم تزودنا بتفاصيل دقيقة وجيدة عما حصل بعد ذلك من احداث ، إذ يبدو أن القوات العثمانية اندفعت من البصرة جنوبا واحتلت أيالات واسعة على ساحل الأحساء ووصلت الى قطر ، بحيث كونت ثماني أيالات أو سناجق .(١١)

إلا أن أحد حكام البصرة من الذين تضرروا من دخول الحملة التركية إلى المدينة ، ولعله علي آل عليان أو راشد بن مغامس كان يكاتب البرتغاليين

عارضا عليهم مساعدته في انتزاع البصرة من العثمانيين وموافقته على بناء قاعدة بحرية برتغالية هناك، واضعا مقاتليه في خدمتهم.[١٢]

كان حاكم الهند البرتغالي هو (دوم أفونسودي نورونها) قد استلم رسالة شيخ البصرة الذي يطلب مساعدته، كما وصلته رسالة مماثلة من الأمير علي بن حسين الطوالقي وهو أحد أمراء اليمن الذى تمكن من الدخول إلى عدن وطرد الحامية التركية الموجودة هناك منها، يطلب مساعدته لتثبيت ملكه هناك كما تواترت الأنباء أن الأتراك يحشدون حشدا عظيما لمقاتلة البرتغاليين في الخليج والبحر العربي لذلك فقد قرر (نورونها) أن يجهز حملتين عسكريتين: واحدة تذهب الى اليمن والثانية إلى الخليج وكانت حملة اليمن بقيادة (لويس فاغوريا) الذي التقى بسفن عربية تعود الى أهالي منطقة ظفار في عمان اشتبكت معه وقاتلته وأوقعت هزيمة بسفنه فهرب من المعركة الى الحبشة.

أما حملة الخليج العربي فقد كانت بقيادة ابن أخيه (دوم انطونيو دي نورونها) ويبلغ تعددا سفنها تسع عشرة سفينة، على ظهرها ألف ومئتا جندي برتغالي، وعندما وصلت السفن إلى هرمز قام الحاكم الهرمزي بتزويدها بثلاثة آلاف مقاتل هرمزي.

كانت حامية القطيف التركية مكونة من (٤٠٠) رجل فقط، وقد قاتلوا بشجاعة وأهلكوا أربعين برتغاليا، إلا أن الحصن العثماني استسلم في اليوم الثاني وتم دكه وتهديمه، وتقول المصادر التركية إنه استسلم بعد ثمانية أيام. ثم أصدر (نورونها) أوامره إلى سفنه بالتوجه نحو البصرة، وهناك وجد أن (باشا البصرة) لم يكن قد أجرى استعدادات لقتاله بل طلب عدم القتال والانسحاب من البصرة. أما ماذا دار بين القائدين من حديث وما هو سبب انسحاب نورونها..؟

فتقول المصادر البرتغالية: إن باشا البصرة الماكر خدع نورونها بأن أبلغه بأنه موجود في البصرة لغرض الاتفاق مع الشيخ المخلوع على صيغة تفاهم وتعاون وأنه لا يرغب بمقاتلته بل إعادته الى سلطته... ولهذا عاد (نورونها) إلى هرمز.

أما المصادر التركية فتقول: إن (بيلربي البصرة) قد طبق خطة ذكية لتفادي هذا الهجوم بحيث جعل القائد البرتغالي يعتقد بأن الأتراك والعرب قد شكلوا حلفا ضد البرتغاليين الأمر الذي جعل (نورونها) يقرر الانسحاب الي هرمز.[١٣]

وبعد تلك الاحداث فإن كلتا قيادتي القوات البرتغالية والعثمانية راحت تعمل لترسيخ أقدامها أكثر في الخليج العربي فقد قامت السلطات

البرتغالية في هرمز بتقوية دفاعات مدينة مسقط وجلفار وغيرهما ، أما رد الفعل العثماني على هذه الحملة البرتغالية فقد تمثل في أن الباب العالي اصدر أوامره الى (قيودان مصر) أي قائد القوات البحرية التركية العاملة هناك ، وهو القائد المحنك (بيري بك) ويعرف ايضا باسم (بيري بك ريس) بالتوجه نحو الخليج العربي ومقاتلة البرتغاليين . وفي أوائل عام ١٥٥٢ م أقلع (بيري بك ريس) ومعه خمس وعشرون سفينة مدمرة كبيرة وأربع سفن اسبانية من نوع الغالون ، وسفينة نقل جنود ضخمة ، أما عدد افراد القوة المقاتلة فقد كان ألفا وستمائة مقاتل ، وفي ٦/تشرين نوفمبر الثاني/١٥٥٢ علم (بيلربي البصرة قباد باشا) أن (بيري بك ريس) سيقوم باحتلال هرمز ، ثم البحرين بشكل يؤمن حماية البصرة . ولما وصلت أنباء حركة أسطول بيري بك إلى مسامع (دوم الفارو دي نورونها) الحاكم العسكري البرتغالي في هرمز ، قرر أن يتصدى له في عرض البحر ، أي قبل وصوله إلى مسقط أو هرمز فأوعز الى القائد (سايمو دي كوستا) أن يخرج بأسطوله للتفتيش عن الاسطول التركي وصد تقدمه . ولما التقى الاسطولان تمكن بيري بك من تحطيم الاسطول البرتغالي وإغراقه ، فأصبح الطريق مفتوحا أمامه إلى مسقط .

وقفت سفن الاسطول العثماني أمام قلاع مسقط القوية وفتحت نيرانها الشديدة لمدة ثمانية عشر يوما إلى أن استسلم قائد القلعة الكابتن (جواو دي لزبو) فأخذه بيري بك ومعه ستون أسيرا برتغاليا ، ثم ترك مسقط بدون أن يترك فيها حامية تركية ، أو يستثمر الفوز بتسليم حصونها إلى أمراء عمان العرب ، بل اكتفى بأخذ مدافع المدينة ثم توجه نحو هرمز لمقاتلة البرتغاليين هناك .

كان القائد البرتغالي في هرمز (دوم الفارو دي نورونها) ومعه حامية برتغالية يبلغ تعدادها تسعمائة جندي ، وعندما وصل (بيري بك) إلى الجزيرة فانه أمر جنوده بالنزول بعيدا عن القاعدة البرتغالية ، ثم أمر بانزال بطاريات مدافعه من السفن ، وبعد أن أحكم الحصار على القاعدة البرتغالية باشر باطلاق نيران مدافعه واستمر الحصار لمدة شهر ، الا أن المدافعين صمدوا في القلعة لذلك فقد قرر (بيري بك) فك الحصار والانسحاب الى (جزيرة القسم) حيث راح يتصل من هناك بتجار هرمز ليجمع منهم النقود والأتاوات ، ثم أبحر الى البصرة .

وعندما كانت تلك الأحداث دائرة فإن حاكم الهند (دوم أفونسو دي نورونها) قرر الاسراع لنجدة حامية هرمز ، وعندما وصل إلى مدينة (ديو) الهندية في شهر سبتمبر من عام

١٥٥١ م وصلته معلومات تفيد أن بيري بك قد فك الحصار عن هرمز وأنه ارتحل إلى البصرة فقرر عدم الذهاب بنفسه ، فأوكل المهمة إلى (أنطونيو دي نورونها) الذي أسرع إلى هرمز باثنتي عشرة سفينة ضخمة وثمان وعشرين مدمرة خفيفة .

وفي البصرة التقى (بيري بك) بالوالي التركي (قباد باشا) فوقع خلاف بين الرجلين بسبب ما اشيع عن استيلاء (بيري بك) على أموال تجار هرمز ومقايضة الأسرى البرتغاليين بمبالغ كبيرة من المال ، لذلك فقد ترك(بيري بك) البصرة عائدا بثلاث سفن إلى السويس ، وهناك وجد ثلة من الجند في انتظاره ، وتم اعتقاله ووجهت اليه تهمة التلاعب بأموال الدولة وعدم تنفيذ الواجبات العسكرية التي عهدت اليه بصورة جدية وتم إعدامه عام ١٥٥٣ م .

لم تكن هذه الحادثة نهاية لمحاولة العثمانيين في السيطرة على الخليج العربي ، الا أن جهودهم حتى تلك الفترة لم تتجاوز سيطرتهم على الساحل الممتد من البصرة ، إلى القطيف ، لذلك فقد صدرت أوامر الباب العالي إلى القائد (مراد بك ريس أن يذهب الى الخليج العربي لاعادة سفن الاسطول التركي الذي تركه بيري بك هناك) ولا توجد لدينا تفاصيل دقيقة عن الحملة التركية هذه ، وهي على الاغلب حدثت عام ١٥٥٢ م ، لكن المصادر التركية والبرتغالية تقول إن الحملة التركية تكونت من خمس عشرة سفينة ، وتقول المصادر البرتغالية إن (مراد بك) هذا هو القائد الذي خسر منطقة القطيف في إحدى معاركه ضد البرتغاليين لذلك فقد كان متشوقا جدا للقتال ضدهم ، فلما شعرت السلطات البرتغالية بحركة الاسطول الذي خرج من البصرة اصدرت الأوامر الى القائد (دوم دييكو دي نورونها) بالتصدي له ، فالتقى الاسطولان قرب السواحل الفارسية ونشبت معركة بينهما ، وخلال المعركة هبت عاصفة بحرية شتت شمل الاسطول البرتغالي وأوشكت إحدى سفنه أن تقع فريسة للقوات العثمانية ، لذلك فقد قرر القائدان العثماني والبرتغالي العودة إلى قواعدها .

وصلت أنباء اخفاق (مراد بك) بانزال هزيمة بالبرتغاليين والخروج بالاسطول التركي المحاصر في البصرة ، إلى مسامع الباب العالي لذلك فقد أصدر أوامره إلى القائد التركي (سيدى على ريس) والمعروف أيضا باسم (علي بك شلبي) القائد العام للقوات البحرية العثمانية في مصر أن يذهب إلى البصرة عن طريق البر ، وعليه أن يقوم هناك بقيادة أسطول بيري بك ، والخروج به في الخليج

العربي وإعادته إلى مصر .

ويبدو من سير المعارك التي حدثت فيما بعد أن أوامر الباب العالي (لسيدي علي ريس بك شلبي) كانت تنص على عدم التعرض للقواعد العسكرية البرتغالية في الخليج ، أو مهاجمة هرمز أو الاصطدام بالاسطول البرتغالي ، بل يكون واجبه انقاذ سفن الاسطول المحاصرة في البصرة .

وصل القائد الجديد إلى البصرة في شهر شباط من عام ١٥٥٣ ، وكان والي البصرة مصطفى باشا يعاني من مشاكل وثورات داخلية يقودها شيوخ آل المشعشع وآل عليان ، فساعده على استتباب الأمن ، ثم أجرى صيانة عامة على الاسطول التركي وأجرى التدريبات اللازمة ، وفي أوائل شهر تموز من عام ١٥٥٣ غادر بأسطوله البصرة وتمكن من تفادي الاصطدام بالسفن البرتغالية وخرج من فم الخليج العربي .(١٤)

الا أن السلطات البرتغالية شعرت به ، وكان أسطول هرمز آنذاك بقيادة (دوم فرناندو دي نورونها) موجودا في منطقة ظفار العمانية ، فكمن هناك للاسطول العثماني والتقى به يوم ١٥٥٣/٨/٢٥ بالقرب من مسقط ، وهناك حدثت معركة شديدة بين الطرفين ، فقد فيها الطرفان عددا كبيرا من سفنهما ، واضطر الإثنان فيما بعد إلى التوقف عن القتال بعد الخسائر الكبيرة فانسحب (دي نورونها) نحو مسقط أما سيدى على شلبي فقد قرر التوجه بما لديه من سفن نحو اليمن ، الا أن رياحا شديدة هبت عليه ودفعت بسفنه نحو الساحل الفارسي في منطقة (سورات) حيث تصدت له هناك عدة سفن برتغالية حطمت البقية الباقية من أسطوله ، بحيث لم يبق لديه إلا سفينة واحدة على ظهرها خمسون مقاتلا هرب بهم إلى ساحل (الكجرات) الهندي وهناك طلب حماية الحاكم المسلم ، ثم غادر البلاد على ظهور الخيل ومر بمعظم بلاد الهند ثم فارس وبغداد ولم يصل إلى إسطنبول الا في عام ١٥٥٧ م .

وعلى كل حال فان الخليج ظل مفتوحا للبرتغاليين ، لأن العثمانيين حتى هذه الفترة لم تكن لديهم قوة بحرية كافية في البصرة لمقاتلتهم ، ففي بعض المصادر جاء أن حملة قادها (دوم الفيرو دي سلفيرا) حاولت عام ١٥٥٦ م أن تحتل البصرة ، لكن العواصف دفعتها بعيدا عن شط العرب .(١٥)

الا أن عام ١٥٥٩ م شهد تحركا عثمانيا عسكريا جديدا في الخليج ، إذ قام (بيلربي البصرة) مصطفى باشا باعداد حملة عسكرية ليهاجم بها القاعدة العسكرية البرتغالية في البحرين .

ويسود الغموض تفسير الدافع الرئيسي لهذه الحملة ، بين قائل إنها كانت رغبة شخصية من مصطفى باشا لتوسيع نفوذه إلى البحرين ، وبين قائل إنها كانت بأمر الباب العالي الذي لبى نداء حاكم البحرين لنجدته ، كما تختلط التعريفات في شخصية (مراد بك) الذي كان حاكما في البحرين هل هو ممثل لحكومة هرمز البرتغالية ، أم هو فارسي ، أم والٍ تركي..؟

إن المصادر البرتغالية تقول إنه فارسيٌ ويمثل حكومة هرمز في البحرين ، بينما تقول المصادر التركية إنه والٍ تركي على البحرين . وعلى كل حال فقدً تشكلت الحملة من أكثر من سبعين سفينة بين مقاتلة وناقلة جنود عليها (١٢٠٠) جندي ، وفي ١٢/ رمضان / ٩٦٦ هـ توقفت الحملة أمام قلعة البحرين وحاصرتها . وتقول المصادر البرتغالية إن (الريس مراد) والي البحرين الهرمزي أرسل نداء مستعجلا إلى (أنطونيو دي نورونها) حاكم هرمز ، الذي أمر بتجهيز حملة بقيادة أخيه (دوم جوادي نورونها) لمقابلة الاتراك ويقول البرتغاليون إن عدد سفن الحملة كانت عشرا ، أما العثمانيون فيقولون إثنين وعشرين وقد وصلت القوة البرتغالية إلى مشارف البحرين يوم ٢٦/ رمضان وهناك اشتبك الطرفان في الحرب ، حيث قام (محمد بك) الذي كتب وثيقة الحرب هذه ، وكان رئيسا لسنجق تابع لأيالة الاحساء ، بقتال من حاول النزول برا من البحر من البرتغاليين ، أما مصطفى باشا فقد كان يدير المعركة البحرية من المنامة .

وبعد سلسلة من المعارك التي شارك فيها (مراد بك) بثلاثمائة جندي ايراني لمساعدة البرتغاليين ، فان البرتغاليين أوشكوا على الانكسار ، وقد قتل في إحدى المعارك (دوم جوادي نورونها) نفسه ، وهو الأمر الذي لم يشعر به العثمانيون لانه غير موجود في تقاريرهم لذلك فقد قام حاكم هرمز بارسال القائد (بيروبيشوتو) ليحل محل القائد القتيل ، ثم لم يلبث أن تبعه بنفسه ، وبذلك فقد طوقت القوة العثمانية بين دفاعات البحرين الارضية والاسطول البرتغالي القادم من هرمز ، كما أن مصطفى باشا مات أو قتل أثناء المعارك فانهارت معنويات الجيش التركي ودبت المجاعة بين صفوفه لذلك فقد قرر الاتراك إجراء مفاوضات مع البرتغاليين للانسحاب الى البصرة ، وعليه فقد جرت المفاوضات التي اشترك فيها (محمد بك) و(سلطان على بك) قائد سنجق القطيف وانتهت المفاوضات بأن أعاد الاتراك الاسرى البرتغاليين ومعهم غنائم الحرب التي كسبوها كما دفعوا مبلغ مائة الف (دوكات) أو (أقجه)

وانسحبوا الى البصرة .

بلغ عدد قتلى البرتغاليين حسب ادعائهم أكثر من سبعين قتيلا ، وعدد الاسرى أكثر أما الاتراك الذين عادوا الى البصرة فكانوا (٢٠٠) من أصل (١٢٠٠) ، وقد أستمرت تلك الحركات العسكرية ستة أشهر تقريبا .

وعلى كل حال فان ماحدث بعد ذلك من أمور بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج يسوده الغموض الشديد ، كما أن اخبار الفعاليات التركية في الخليج تعوزها المصادر التوثيقية المفصلة ، الا أنه وكما بدا واضحا فإن الارتجال وعدم وجود تكتيك عسكري وسياسي جيد كان يسود التحركات العثمانية منذ بداية أمرها في الخليج العربي ، وعموما يمكن القول إنه منذ الاحتلال العثماني للبصرة عام ١٥٤٦ إلى ذلك التاريخ فان الخليج العربي انقسم بين النفوذ العثماني الذي امتد من البصرة إلى سواحل القطيف ونفوذ البرتغاليين الذين سيطروا على هرمز وعمان ، وكانت البحرين تشكل الحدود التي تفصل بين مناطق نفوذ البلدين وفي رواية أخرى إن البحرين أعلنت خضوعها للعثمانيين وأن السلطان العثماني أعاد تثبيت جلال الدين مراد خان على ولاية البحرين .

ويبدو أيضا أن كلا الطرفين أدرك استحالة تحقيق نصر حاسم على الطرف الآخر وأن نتائج التصادم تكون في غير صالح العثمانيين ، لذلك وانطلاقا من الفوائد الكثيرة في تشجيع التجارة بين الهند وتركيا عبر الخليج العربي ، فقد قام والى البصرة بمفاتحة حاكم هرمز البرتغالي على وضع أسس لصلح دائم وعلاقات تجارية بين البلدين وقام حاكم هرمز بارسال موفد منه هو (أنطونيو تاكسيرا) الذي قابل الباب العالي عارضا عليه مقترحات هرمز ، الا أن الباب العالي رفض الحديث مع (تاكسيرا) باعتباره ممثلا لهرمز فقط وطلب مقابلة شخصية تمثل البلاط الملكي البرتغالي .

وكان آخر صدام عسكري بين العثمانيين والاتراك قد جرى عام ١٥٨١ م ، أي بعد انهيار الامبراطورية البرتغالية النهائي وتدميرها على يد القوة العربية الجبارة يومذاك وهي الدولة السعدية في المغرب العربي .

ففي معركة (وادي المخازن) التي وقعت في الرابع من شهر آب عام ١٥٧٨ م ، أنزل السلطان المغربي مولاى عبدالمالك سلطان الدولة السعدية هزيمة كبرى بجيش برتغالي يبلغ تعداده خمسين الف مقاتل بقيادة الملك (سيباستيان) ملك البرتغال الذي عبر المضيق بجيشه لاحتلال المغرب ، مما أدى الى تمزق الجيش البرتغالي ومقتل ملكه (سيباستيان) وكانت

النتيجة أن قام ملك اسبانيا (الملك فيليب) باستغلال الفرصة فاحتل (لشبونه) العاصمة البرتغالية ، وبذلك سقطت دولة البرتغال وصارت دولة مستعمرة بعد أن كانت مستعمرة ، وحقق عرب المغرب أعظم انتصار عسكري في وقته بأن حطموا احدى الركيزتين الاستعماريتين اللتين كانتا يومذاك ، مثل روسيا وأمريكا في يومنا هذا .

أما ما حصل بعد ذلك بالنسبة لعلاقات العثمانيين بالبرتغاليين بصورة عامة والخليج العربي بصورة خاصة فان اهتمام العثمانيين كان منصبا على ساحة البحر المتوسط وساحة شرقي افريقيا ، وكان أمير البحر التركي (علي بك شلبي) على رأس قواته التي كانت تقاتل البرتغاليين أمام السواحل الافريقية ومدخل البحر الاحمر ، وفي عام ١٥٨٠ م قام (على بك) هذا بحملة عسكرية خاطفة على مدينة مسقط العمانية وتمكن من احتلالها لفترة قصيرة ، إلا أنه غادرها وانسحب منها بدون تحقيق فائدة عسكرية أو سياسية من حملته هذه .

وكان آخر المطاف بالنسبة لقصة التواجد البرتغالي في الخليج العربي يوم قام شاه ايران عباس طهماسب بن اسماعيل الصفوي ، بمعاونة اسطول بريطاني في عام ١٦٢٢ م بانزال هزيمة بالبرتغاليين الموجودين في هرمز وسواحل فارس الجنوبية أجبرتهم على الفرار إلى عمان وبعض اجزاء الساحل العربي وبحلول عام ١٦٢٤ م ظهر على مسرح التاريخ الخليجي الإمام ناصر بن مرشد اليعربي مؤسس دولة اليعاربة في عمان ، وقد تمكنت تلك الدولة من إنهاء قصة التواجد البرتغالي في عمان والخليج العربي وبعض سواحل أفريقيا بصورة نهائية فيما بعد .

الخلاصـــة :

لقد بدا واضحا أن اهتمام الاتراك العثمانيين بالخليج العربي لم يكن بالدرجة الكافية اي ليس بقدر اهتمامهم بمناطق العالم الاخرى التي كانوا فيها ، وهم لذلك لم يحاولوا أن يمدوا نفوذهم إلى أكثر من مساحة الاحساء والبحرين ، بينما بقي البرتغاليون يهيمنون على مدخل الخليج العربي وهم يتمتعون بمعاهدة صلح وسلام مع الدولة الصفوية في إيران ، لذلك لا يمكن أن يقال إنه كان هناك مجهود اسلامي مشترك بين الفرس والاتراك والعرب لتجميع قوات وموارد الثغور الاسلامية البحرية وتنسيق جهودها في عمل عسكري فعال كما يبدو أن اهتمام الاتراك بولاية الاحساء والانتشار فيها لم يكن حسب خطة عسكرية أو سياسة تؤدي بهم بالتالي إلى الوصول الى مناطق

الخليـج الاخرى وتخليصهـا من البرتغاليين لذلك فقد بدا وكأن جل اهتمامهم كان المحافظة على البصرة ، بل إنه وفي تاريخ لاحق ، أي عندما بدأ الانجليز يظهرون على مسرح الاحداث في الخليج فان مكاتبات قد جرت بين الاتراك والبرتغاليين لمنعهم من احتلال البحرين والوصول الى البصرة .

ولكن ، وكما قلنا سابقا فإن انعدام الرغبة العثمانية الجادة في السيطرة سيطرة كاملة على الخليج ، ومساعدة العرب في تحرير بلادهم كان واضحا ، رغم إن العثمانيين كانوا على رأسي الكماشة اللذين كانا يشكلان قواعد عسكـرية مثـالية لـلاطبـاق عـلى البـرتغاليـين وهما قـاعدتـا عدن والبصرة ، الا أن روح الارتجال والتسرع وعدم وجود خطط سياسية وعسكرية مدروسة عند الاتراك كانت الميزة الظاهرة في علاقاتهم بالخليج العربي والدول العربية ما عدا العراق إلى تاريخ قريب من يومنا هذا .

الهوامش

(١) سرحان بن سعيد الأزكوي : كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ـ ص ٩١ .
(٢) AFONSO DE ALBUQUERQUE-OSONHO DA INDIA
(٣) عفيف الدين بامخرمه ـ قلادة النحر وكذلك عيسى بن لطف الله ـ مخطوطة روح الروح .
(٤) F.C. DANVERS - THE PORTUGUESE IN INDIA - VOL. ONE - P 117
(٥) DANVER المصدر نفسه ص ١٢٠ ، وكذلك كتاب تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين الفقيه الشيخ زين الدين ـ ص ٤٠ .
(٦) ص ٢٧٨ ـ المصدر نفسه ـ AFFONSO DE ALBUQUERQUE
(٧) إبن اياس الحنفي ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ ص ٤٣٦ .
(٨) محمد فريد وجدي ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ ص ١٩٢ .
(٩) قطب الدين النهروالي ـ البرق اليماني في الفتح العثماني ـ ص ٨٠ ـ ومصادر يمانية اخرى أيضا .
(١٠) العراق في التاريخ الحديث ـ الفصل الأول ـ ص ٥٧٦ .
(١١) الدكتور صالح اوزبران ـ الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ـ ص ٣٨ .
(١٢) اوزبران ـ المصدر نفسه وكذلك DANVER ـ المصدر نفسه .
(١٣) DANVER المصدر نفسه ص ٤٩٢ وكذلك أوزبران ـ المصدر نفسه ص ٤٢ .
(١٤) جعفر الخياط ـ تاريخ العراق في العصور المظلمة ـ ص ٣٥ .
(١٥) د . أوزبران ـ المصدر نفسه ص ٥١ .



الخليج العربي ووادي الهندوس في الأدبيات والحوليات المسمارية

طرق التجارة القديـ

كانت بلاد الرافدين خلال ثلاثة الاف سنة سبقت الميلاد على صلة وطيدة مع الحضارات المجاورة التي زامنتها أو التي لحقت ركبها فيما بعد .

لقد ازدهرت تلك العلاقات مع تطور الزراعة واليتها التي ظهرت في الألف الرابع قبل الميلاد . وعندما ظهر السومريون والاكاديون من خلال وثائقهم وكتاباتهم على مسرح الرافدين نجد ان لهم صلات تجارية مع بلاد بعيدة . حيث وصلت تجارتهم الى وادي الهندوس عن طريق ايران والى ارمينيا عن طريق الأناضول . كما وصلوا الى مصر عن طريق بلاد الشام والبحر المتوسط (١) وقادتهم حركتهم التجارية الى شواطيء الجزيرة العربية البعيدة حيث كانت تضم حضارات هامة ماتزال مكتنفة بالغموض نتيجة نقص في البحث والتنقيب ، نستطيع القول وفق ليون اوبنهايم (ص ٧٦) ان الشرق اي ماوراء ايران والهند ، كان يشكل ضغطا



الدكتور فيصل عبدالله

مة والرقعة الجغرافية

على الغرب اى بلاد الرافدين والخليج العربى . ظهر هذا الضغط من خلال تسرب وانتقال المزروعات والحيوانات المؤهلة وبعض المعارف الى بلاد الرافدين . ويعتقد اوبنهايم ان مركز هذا التسرب هو خليج البنغال فى شبه القارة الهندية [٢] .

لقد ثبت بما لايدع مجالا للشك انه منذ فجر التاريخ ، وجدت اتصالات عن طريق البحر بين بلاد الرافدين السفلى وخاصة اور وتلك المناطق الشرقية البعيدة فى شبه القارة الهندية والتى سماها السومريون والاكاديون القدماء فى كتاباتهم ماجان وملوخا ، ولقد نقلت البضائع من مواد أولية كالنحاس والعاج واللازورد والعقيق والتوابل ، انطلاقا من موانىء لم تعرف بالضبط ولكنها وجدت على خليج عمان وماوراءه اى الهندوس مرورا بميناء وسيط هو تلمون او دلمون كما دعاها السومريون والاكاديون من بعدهم . هذه الاتصالات وجدت ولاشك بأشكالها المختلفة منها معلومات كتابية مسمارية عن وجودمترجم خاص للغة بلاد ملوخا

كان يعيش فى عهد الامبراطورية الاكادية [٣] . وعندما تختفى النصوص التى تدل على واقع هذه العلاقة نجد ان الاسمين ماجان وملوخا يعبران عن مفهوم دينى جغرافى ، ويستخدمان اعتبارا من النصف الثانى للألف الثانى ق . م للدلالة على أطراف البحر المتوسط والبحر الاحمر أى بلاد مصر ، وربما الحجاز فى الوقت الذى كانت فيه مصر تخضع لسيطرة سلالة اثيوبية واعتبرت ملوخا كبلاد للاقوام . ذات الجلد الا سود [٤] .

لقد عرفت تلك العلاقات شدتها فى بدايات الالف الثالث قبل الميلاد وخبت فيما بعد ولم تعد الى سابق عهدها الا فى العصر الفارسى والسلوقى . وربما يمكن تفسير هذا الانقطاع بتبدلات سياسية وتجارية سواء فى بلاد المنشأ أي شبه القارة الهندية او فى البلد الوسيط اى الخليج العربى . كما يمكن ان يكون هنالك تبدل فى موقف بلاد الرافدين من التجارة الخارجية فى غضون الالف الثانى ق .م حيث كانت الحروب كثيرة فى عصر السلالة البابلية الامورية الاولى . وبعد زوال هذه السلالة فقد ضاق الافق السياسى والاقتصادى نتيجة الحروب وهجمات الهندواوربين والعيلاميين المتكررة على مراكز الحضارة الرافدية ، مما شكل جمودا فى ميدان التجارة الخارجية واقتصرت فيما يلى على المستوى الملكى او الرسمى ، حيث حل تبادل المواد والهدايا بين الملوك بدل التبادل التجارى الخاص السابق ، وقد سمح هذا النظام الجديد بمراقبة الاتجار بالمواد الاولية وكذلك انتشار الافكار . لقد مثل هذا الواقع عصر الركود فى مجال التجارة والابداع اليدوى والالى [٥] .

سومريون - أكاديون - اسلاف العرب اقدم التجار

بعد حكم الملك السومرى لوجال زاجيزى القرن الرابع والعشرين ق .م الذى دام حوالى خمسة وعشرين عاما جنوبى الرافدين ، فقد انقلبت عليه قوة جديدة بقيادة شروكين المعروف بسرجون ناطقة بالاكادية اقدم لغة من عائلة العربيات الساميات . لقد اطاح شروكين بحكام المدن السومرية فى الجنوب وعلى راسها كيش وأسس عاصمة لهم اكاد/ أجاد . وقد نقل الينا هذا الفاتح الكبير أخبار فتوحاته التى تعتبر الاولى من نوعها فى تاريخ البشرية وتاريخ اسلاف العرب الرافديين . اذ قال انه قهر عيلام جنوب غربى ايران ، ووصل الى بلاد دلمون/ تلمون وهى البحرين ومن جهة الشمال وصل الى آشور وربما المتوسط وأسيه الصغرى . هذه الفتوحات

سمحت له بأن يحمل لقب ملك الجهات الاربع أى ملك المعمورة [٦] .

من جهة أخرى تحولت القوة الاقتصادية الى هؤلاء الحكام الاكاديين الجدد واحتلوا مساحات واسعة مما جعل منهم مالكين لثروات طائلة اضافة الى نظام ادارتهم الامبريالى . ولقد ترجم شغف ملوك اكاد بالفتوح والتجارة بالحفاظ على تقاليد السومريين الذين اقاموا علاقات تجارية مع الخليج العربى ووادى الهندوس ، وذلك من خلال اعلان ملوك اكاد وصول نفوذهم العسكرى والاقتصادى الى تلمون / البحرين كمحطة متوسطة بين خليج عمان حيث مناجم النحاس ووادى الهندوس حيث تتوفر احجار كريمة وذهب بشكل خاص ، وأخشاب ، ومن جهة الشمال بنى الملك الاكادى نارام سين الذى اله نفسه بنى أكبر قصر معروف انذاك فى تل براك شمال سورية ووادى الفرات على الخابور وكان محطة الشمال باتجاه مناجم الأناضول المعدنية وجبال الساحل السورى وأخشابه .

وبذلك افتتحت للمرة الاولى فى تاريخ المشرق القديم الخطوط التجارية الرسمية التى خضعت لسيطرة ادارة امبراطورية . تعرف تماما كيف تخدم اهدافها التجارية وتكدس الثروات فى قصورها . وتدل النصوص والاثار المادية على ان هذا التبدل الاقتصادى الاستراتيجى . جاء استجابة لحاجات العصر واستمرارية المؤسسات الاقتصادية السومرية القديمة . ان اعلان ملوك اكاد عن وضع يدهم على جزيرة تلمون يكشف عن دورها كوسيط تجارى هام بين بلاد الرافدين من جهة ووادى الهندوس ومناجم النحاس فى جبال عمان من جهة اخرى [٧] .

وثائق اقدم تجارة دولية

منذ ان وصلتنا وثائق التجارة الدولية بين ارجاء المشرق العربى القديم ، فاننا نلاحظ ارتباطها الرسمى ببلاط الملوك والامراء ، وظل الحال هكذا حتى عصور متأخرة . وقد كانت مواد هذه التجارة الرسمية الاحجار الكريمة وخاصة اللازورد فقد كانت مناجمه قليلة وتقع فى بلاد افغانستان حاليا ، وكان السومريون اول من قام بنقل هذه المادة عن طريق قوافل برية ، كما تشهد على ذلك بعض مقابر اور الملكية ، ومع تراجع قليل فى تجارة اللازورد فى العصر الاكادى . فاننا نشهد طلبا عليه اعتبارا من عصر اور الثالثة مع تبدل فى طرق النقل اذ تحول الى مراكب تتجمع فى محطة بحرية قريبة هى دلمون (البحرين) وقام ملوك اور باستيراد العقيق من الهند والنحاس من عمان من خلال ذات الطريق كما ان التوابل هى

الاخرى قد استوردت من مناطق بعيدة فى الهند [٨] .

لقد أوضح ليمنس فى كتابه عن التجارة فى بلاد بابل القديمة ان تجارة بلاد الرافدين مع دلمون الهند قد ازدهرت نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني في عهد ابيسين ملك أور وريمسين ملك لارسا[٩] .

وكانت الطرق البحرية تقود من دلمون الى ميناء لوتال الرئيسى على مصب نهر الهندوس والى شواطىء عمان ومناجمها الغنية بالنحاس .

لقد تقلصت تجارة بلاد الرافدين عبر الخليج العربى قبيل سقوط السلالة البابلية ـ الامورية القديمة (حوالى ١٥٩٥ ق.م) عندما فقد سمسوايلونا خليفة حمورابى منافذه الى البحر [١٠] .

لقد بينت بعض الاختام التى وجدت فى المدن السومرية والتى نقلت من وادى الهندوس ان طريق تجارة الخليج العربى نحو دلمون ، كان مزدهرا منذ العصر السومرى واستمر فيما بعد العصر الاكادى حيث جهد ملوك اكاد على تطوير التجارة ، وكان من نتيجة ذلك ان أعلن سرجون (شروكين) الاكادى فى كتاباته ان فتوحه قد سمحت لمراكب ملوخا وماجان ودلمون ان تصل الى ميناء اكاد (النهرى) حيث كانت تنقل مواد وبضاعة الجنوب العربى والهند ، وخاصة الذهب والاحجار الكريمة الى بلاد الرافدين والشام الموحدة تحت سلطة اكاد [١١] . وقد دفع مانيشتوسو حفيد شروكين نفوذه الى عيلام وليس من المستبعد انه وصل الى الهندوس واصطدم ببعض سكانها (وهى بلاد شيريخوم احد اسماء ملوخا) .

اما فى عصر امبراطورية اور فكما هى العادة فى بلاد الرافدين فقد برزت مشكلة المواد الاولية النادرة فيها ، ولهذا فان تجارة دلمون وماجان قد أصبحت تقليدا لاينسى منذ ذلك الزمن وبقيت الطرق البحرية التجارية حرة ومفتوحة . ومرت عبر الخليج العربى مواد النحاس والذهب والعاج وأحجار كريمة وأحجار البناء .

لقد سيطرت اور على تجارة دلمون بقوة ولكن لارسا المجاورة قد حولت اليها هذا الغنى التجارى وتابعت المسيرة ذاتها ، ويذكر أحد النصوص الرقم (١٣٠٠٠) ثلاثة عشر ألف منجم للنحاس تم احصاؤها فى منطقة دلمون [١٢] .

ونعلم من كتابات جوديا التأسيسية المذكورة فى دراستنا هذه انه استحضر الاخشاب من الامانوس على ساحل سورية والحجارة المنحوتة من بلاد ماجان وملوخا أى شواطىء عمان ووادى الهندوس كما استخرج منها الذهب والنحاس والرخام

والعقيق وعصارات الاشجار .

بعد فترة الازدهار هذه على يد الدولة فقد تحولت تجارة الخليج الى أيد رأسمالية خاصة التى استخدمت رأسمالها كقروض لدفع قيمة الاستيرادات الهامة . فقد كانت تحدد سلفا قيمة ربح رأس المال دون تحمل أية خسارة ! التى كان يتحملها التجار المرتحلون . وكانت الدولة تستفيد من مشاريع الرأسمالية الخاصة حيث ان ضرائبها فى بلاد الرافدين قد وصلت الى المناصفة في الربح (١٣) .

اما فى القرن الثامن عشر عصر ازدهار الممالك الامورية فى سورية والبابلية القديمة فى العراق فقد ذكرت نصوص مارى اسماء مدن تم التعامل التجارى معها تقع فى مناطق تبدأ من البحرين ـ دلمون وتنتهى فى حاصور ـ فلسطين مرورا بحوض الفرات الاسفل والاوسط وجنوبى بلاد الشام . وكان قصرها الذى يعتبر اكبر قصر مكتشف حتى الان يضم اكثر من ٢٠٠ مخزن مكدسة بالبضائع من تلك البلاد (١٤) .

الوثائق الرسمية السومرية والاكادية الخاصة بالخليج العربى ووادى الهندوس :

١ـ (٢٥٧٠ ـ ٢٣٤٢ ق.م لاجاش . Lagas

IC3c

نقش باللغة السومرية والكتابة المسمارية

(10-11)«اور نانشة، ملك لاجاش ، ابن جونيدو ابن جورسار ، قد بنى معبد نينجرسو ، وبنى معبد نانشه ، وبنى ابسوباندا (12-17) ، وقد نقلت له الاخشاب فى مراكب تلمون تلك البلاد البعيدة» .

IC3b

رقم من الحجر بالسومرية :

(I1-III2) «اور نانشه ، ملك لاجاش ، ابن جونيدا ، ابن جورسار ، قد بنى معبد نانشه وصنع (نصب) نانشه ، وحفر القناة . وجعل المياه تجرى فيها وحملت اليه الاخشاب من بلاد تلمون البعيدة » .

IC3e

مقطع حجرى بالسومرية

(I 1-III6) «اور نانشه ، ملك لاجاش ، ابن جونيدو ، قد بنى معبد نينجرسو وبنى الـ « ابجال » ، وبنى معبد نانشه ، وبنى الـ « كيرنير » وبنى باجارا وبنى .. الخ » .

« وحملت اليه الاخشاب من بلاد تلمون البعيدة » (١٥) .

٢ـ العصر الشروكيني/ الصرجوني والجوتي (٢٣٣٤ ـ ٢١١١ ق .م) .

السلالة الاكادية (٢٣٣٤ ـ ٢١٥٤ ق .م) .

شروكين/ صرجون (٢٣٣٤ ـ ٢٢٧٩) .

II A1b : رقم فخارى مزدوج اللغة (سومرى ـ اكادي) VI 1-16 شروكين ملك كيش ، قد انتصر فى اربعة وثلاثين معركة ، وقام بهدم المعاقل حتى شاطىء البحر ، وقد ارسى على ضفة اكاد مراكب ملوخا ومراكب ماجان ومراكب تلمون [١٦] .

يقصد الكاتب الشروكينى من ذكر هذه المواقع الجغرافية ابراز اتساع العلاقات التجارية بمملكة شروكين الاكادي . تلمون هى ولاشك جزيرة البحرين فى الخليج العربى ، اما ماجان وملوخا ، فالنقاش مايزال قائما بالنسبة لتحديد موقعهما . ولكن غالبا ما تعتبر انها شواطىء عمان ووادى الهندوس [١٧] .

٣ـ العصر السومرى الجديد (الاحياء السومرى) (٢١١٢ ـ ٢٠٠٤ ق .م) .

سلالة اور الثالثة (٢١١٢ ـ ٢٠٠٤) .

اورنامو (٢١١٢ ـ ٢٠٩٥) .

III A1f : مسمار فخارى سومرى : « من اجل نانا الابن الاكبر لانليل ، مولاه ، فان اورنامو الرجل القوى ملك اور ، ملك سومر واكاد ، الذى بنى معبد نانا ووضع الاشياء فى موضعها : على طول الشاطىء .. قد اعاد حركة التجارة البحرية على .. قد اصلح (من اجل نانا) مراكب ماجان [١٨] .

مفاد هذه الكتابة ان الملك قد نظم الادارة التجارية القديمة وراء البحار وازدهرت فى عهده كما كانت الحال فى عهد اورنانشه ، حيث فترت هذه التجارة فى العصر الجوتي .

ايبسين (٢٠٠٤ ـ ٢٠٢٨) ابن او شقيق شوسين ملك اور السابق (٢٠٣٧ ـ ٢٠٢٩) :

III A5d :

« رقم فخارى (نسخة كتابة نذرية سومرية » .

« من أجل نانا (القمر) الدعامة المندفعة لأن اله السماء الابن الاكبر لانليل ، سيده ايبسين (نادى القمر) اله بلاده الملك القوى ، ملك اور ، ملك الجهات الاربع (المعمورة) قد صنع ، ومن أجل حياته ، قد كرس له صورة كلب اصهب من ملوخا حيث احضر له من مرخش كجزية واسم هذا الكلب : « السريع ! » .

لقد عثر فى مواقع الرافدين على كثير من المشخصات التى تمثل كلابا ملونة وتحمل القابا . من بين ما عثر عليه فى

مدينة نينوى تمثال كلب صغير ملون بالاحمر ملقب بالسريع اللاقط . مما يوضح ان هنالك تقليدا قديما يتعلق باقتناء الكلاب ـ والكلاب النادرة التى ترسل من اماكن بعيدة كما هى الحال هنا ، من ملوخا [١٩] .

دلمون : الاسم القديم لجزيرة البحرين على الخليج العربى . تدل الادبيات البابلية على انها كانت بلاد شجرة النخيل ، مما يدل على عمق الصلات التجارية بين بلاد بابل وهذه الجزيرة منذ العصور القديمة اذ ان دلمون هي الوسيط التجارى لتصدير منتجات وادى الهندوس ونحاس عمان التي استوردت من قبل بلاد سومر .

لقد ازدهرت هذه العلاقات التجارية منذ عصور السلالات الباكرة ، وحتى عصر لارسا وبابل . وقد لعبت مدينة اور فى الجنوب دورا مركزيا فى ازدهار هذه العلاقات [٢٠] .

لقد كشفت حفريات دانمركية حديثة عن مدرسة للنحت والنقش على الاحجار الكريمة تعود الى الالف الثالث ق.م وبداية الالف الثاني وكشفت عن تأثر هذه المدرسة الفنية بالتقاليد الفنية لحفر الاختام الهندوسية .

لقد فقدت دلمون أهميتها عندما زال نفوذ الدول الرافدية عن الخليج العربى فى نهاية النصف الاول من الالف الثانى اى بعد زوال النفوذ السياسي لدول السلالات البابلية ـ الامورية فى سورية والعراق فى اعقاب الغزو الحثى ـ الهندو ـ اوربى . ومن جهة اخرى استمر ذكر دلمون يتردد فى كتابات بعض العواهل الرافديين وخاصة اثر حملة اسرحدون ٦٧٦ ق.م لاستعادة النفوذ فى الخليج العربى وشواطىء الجزيرة العربية الشمالية الشرقية [٢١] .

دلمون في الأدب الملحمى السومرى

مخطوط فخارى لملحمة انكي ونينخور ساج

هذه اللوحة محفوظة فى متحف جامعة فيلادلفيا وتحمل المرموز CBS4567 Eaki وهى اكمل مخطوط من بين ثلاث ملاحم بعنوان انكى ونينخور ساج ـ Ninhursag Knki .
كانت البعثة الامريكية فى نيبور ـ جنوب العراق (١٨٨٩ ـ ١٩٥٠) قد عثرت عليها بين عشرات النصوص الدينية ـ والادارية والاقتصادية والمذرية الخ .. [٢٢] .

تبدو اشارات المخطوط متلاصقة ، وليست سهلة القراءة ، ولكن الناسخ قد اجاد تصويرها وكتابتها ، ولذا جاء النص نقيا واضحا ومرتبا ، من جهة اخرى لا نجد اى دليل على هوية مؤلفه او ناسخة ، او الظروف التى كتب فيها ، ولكن يسمح اختيار الاشارات وشكلها ولغتها والدلائل

الآثارية بتأريخ هذه الوثيقة فى حوالى ١٩٠٠ ق . م .

نلاحظ ، صورة المخطوط ، وقد اصابه كسر مائل وبعض التهشيم ، ولكن ابعاده هى ١٩،٧ × ١٣،٦ × ٣سم ، ولا نستطيع رؤية قفاه المهشم اما لغته فهى سومرية موزعة على ثلاثة اعمدة ، وعلى ٤٥ سطرا فى كل منها ونستطيع ان نميز الفاصل بين كل عمود وآخر . قام عالم الاشوريات كافينيو A.Cavigneaux بنسخ اشارات النص يدويا ، وهو العمل الاساسى بعد العثور على النص .

نلاحظ السطور من ٥ ـ ١١ وقد اصاب اشاراتها بعض التهشيم . نقدم فيما بعد قراءة الاشارات المسمارية بالحرف اللاتينى ، وهو ما يسمى فى مصطلح الاكاديات transcription اى التدوين والنسخ . يلي ذلك ترجمة الى لغة حية . ولنعلم ان هذا النص ترجم الى الانكليزية اولا ونجد هنا احدث ترجمة له من قبل بوتيرو وكريمر بالفرنسية والانكليزية ، حيث نقدمها لقارىء العربية مستعينين بالنص الاصلى السومرى ، ونظرا لكثرة الاسانيد والحواشي المتعلقة بترجمة النص من لغته الاصلية الى اللغات الاوربية (الانكليزية ، والفرنسية والألمانية خاصة) فاننا نحيل الزملاء المتخصصين الى الكتاب المذكور للاستزادة ، والعودة الى الاصول .

نلاحظ استخدام النقطة بين اشارات الكلمة ولواحقها الاعرابية ومسافة بيضاء بين الكلمات كما فى السطر الخامس .Ku. ga. am sikil am اما الاشارات المائلة فهى مجرد ترقيم للقيم الصوتية كما وضحنا سابقا .

تكتب الاشارات ، هنا فقط بحرف كبير وعند الشك بقيمة نطقها يضع المتخصصون اشارة ! امامها .

وتبدأ اسماء العلم بحرف كبير مثل دلمون Dilmun (سطر ٥ وهكذا) . و Nin-sikil-la (11) . تكتب اللواحق بحرف لاتينى صغير ومائل او بين قوسين : (kur) Dilmun (Ki) اى بلاد دلمون . علما بأن kur بمعنى بلاد و Ki مجرد اشارة لصنف الكلمة اى ماله علاقة بالارض والتراب والمكان (ن . اعلاه مبادىء الكتابة المسمارية) . كما نلاحظ الكلمة دينجير Dingir ونرمز لها بـ (d) وتستخدم اشارتها ki بعد En لتعنى الاله Enki اى اله الارض و Nin لتعنى صفة القدسية .

الحاصرتان (XX) تدلان على الجزء المهشم من الاشارة او فقدانها كاملة ، وان قراءة الاشارة (X) بداخلها هى اجتهاد الباحث المعاصر . اما تلك التى توضح بين زاويتين (XXX) فهى ما غفل عنه الناسخ وتم تصحيحه بالرجوع الى نسخ اخرى او قدرت نتيجة الشيوع والاستعمال :

قـراءة الاشارات المسمـارية السومرية بالحرف اللاتيني وترجمة الى العربية

5. Ku [r] i Kù.ga. [à]ml Kur. Dilmun Sikil. àm.

دلمون مقدسة.. دلمون.. طاهرة.

Kur .Dilmun sikil .ga .àm am Kur. Dilmun dadag`ga. a`m.

دلمون طاهرة . دلمون ساطعة

مع وحيدته استقر في دلمون .

As. ni .dè Dilmun^{ki} ^{a}. ù bĭ .in nú.

الأرض التي استقر فيها انكي برفقة زوجته .

Ki ^{KI}n .Ki dam .a .ni. da ba .an. da. nu .a. ba

هذه الأرض طاهرة .. هذه الأرض مقدسة .

Ki .bi sikil .am Ki dadag. ga. a

مع وحيدته استقر في دلمون .

10 . Aš. ni. dè [Dilmun^{ki} ^{a}. ù. bĭ in. nú].

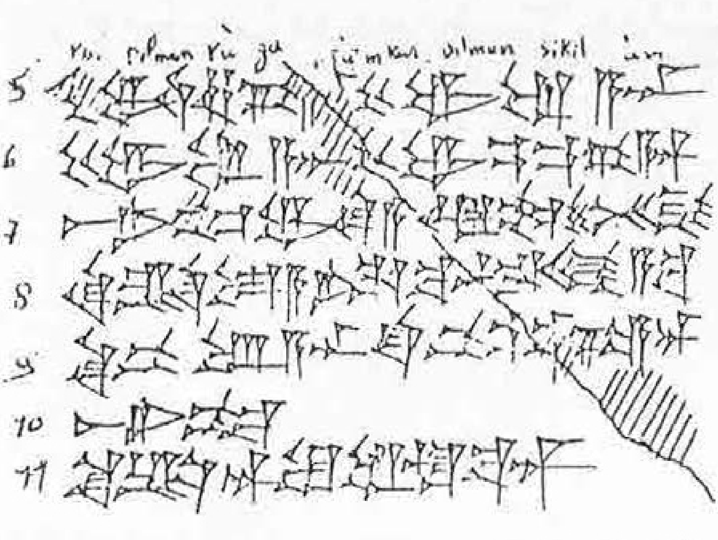
هذه هي الأرض حيث استقر انكي ورفيقته نين سبكيلا .

Ki ^{dI}a. Ki ^{dN}in. sikil. la ba. an [da. nú. a. ba]

- دلمون أرض البحرين حاليا .
- سيكيل . طاهر بالسومرية .
- نين . المؤنث بالسومرية .
- انكي . اله الأرض .

ان = اله

كي = الأرض .



● مطلع القصيدة بعد نسخه بالخط الحديث للكتابة المسمارية



● القصيدة كاملة وهى مخطوط من الفخار ويبدو الجزء الأعلى الذى قدمنا ترجمة له .

يصف مطلع القصيدة بلاد دلمون وصفا طبيعيا بدائيا ، فهى بلاد الشمس الساطعة والمياه المالحة ، حيث تبدأ المغامرة السومرية المحلية ، التى رافقت بلاشك الاتصال التجارى البحرى بين الرافدين والبحرين اى دلمون .

تتألف القصيدة من قرابة ثلاثمائة بيت ، تدور حول استقرار البطل الملحمي انكي وزوجته نين سيكيلا في هذه البلاد الجديدة حيث يغامران ويتحابان ويحولانها الى جنة حقيقية فيها من كل اصناف الزرع والضرع والمياه العذبة النقية .

وخلاصة القول :

ان الوثائق الكتابية والدلائل الاثرية الرافدية قد أشارت الى اسماء ثلاثة بلدان هي دلمون . ماجان ، ملوخا . ومن المؤكد، ان دلمون هي البحرين اما ماجان فيظن . وعلى الاغلب أنها واقعة على شواطىء عمان ، اما ملوخا فيظن انها واقعة فى وادى الهندوس . ولابد من دلائل مباشرة على موقع البلدين الاخيرين .

ان الاشارات التى وردت فى كتابات بلاد الرافدين وخاصة فى العصرين السومرى . والاكادى تعكس لنا أهمية كبرى على المستويين الادبى والتجارى لابل فان دلمون هي مثل جنة عدن « بالنسبة للادب السومرى » .

ان الاهمية الكبرى لهذه البلدان والتى عكستها لنا تلك الاشارات التجارية والادبية غير كافية لمعرفة المزيد من تفاصيل تلك العلاقات المغرقة فى القدم ، ولهذا لابد من مضاعفة جهود التنقيب الاثرى فى الخليج العربى خاصة والمنطقة العربية عامة للكشف عما تخبئه كثير من المواقع الاثرية التى تنام تحت التراب منذ الاف السنين والتى تعكس لنا ولاشك وحدة التجارة فى العالم العربى منذ ذلك الزمن .

د. فيصل عبدالله
جامعة دمشق ـ كلية الاداب
قسم التاريخ

الحواشي والأسانيد

1. L. Oppenheim, La Mesopotamie, "portrait d'une civilisations" Chicago, 1964, p. 77.
2. CAHI, 2 (The Chambridge Ancient History) volume 1, part 2 Early History of the Middle East, Cambridge, 1971, p. 117, 131, 132. volume II/1, History of the Middle East and the Aegean Region, 1800-1380 Cambridge, 1973, p. 13.
3. Oppenheim, Ibid; E.F. Weidner, Afo, 13 (1939-1941), 308.
4. CAHI, 2, Meluha, City of (Location doubtful), 132, n. 2, 439-40, n.n2 and 4, 453, 454, 600.
5. Oppenheim, p. 106, 163, 417.
6. Jean Deshayes, Les civilisations de l'Orient Ancient, Paris, 1969, p.76.
7. Ibid.
8. Ibid, p. 187.
9. Leemans, W.F.; Foreign trade in the Old Babylonian period, Leiden, 1960; The trade relations of Babylonia and the question of relations with Egypt JESHO, p.21-37.
10. Deshayes, Ibid. CAHI, 2,453, 631.
11. Paul Garelli, Le proche-Orient Asiatique, Paris, 1969, p. 70; G.J. Gadd, CAHI/19 (1963), 25.
12. Ibid, p. 92, 103.
13. Ibid, p. 110.
14. F. Abdallah, Les relations internationales entre le royaume d'Alep/ Yamhad et les villes de Syrie du Nord, 1800 A 1595 avant J. - C., These pour doctorat, 1985 Uni. de Paris., p. 67.
15. E. Salberger; J. R. Kupper; IRSA . Inscriptions Royales Soumeriennes et akkadiennes, Paris, 1971; p. 44.

16. Ibid. p. 98.

17. Ibid. Gadd, CAH 1/2, p. 439; Landsberger, WdO 3, p. 247; Gelb RA 64, p. 1.

18. IRSA, p. 136.

19. Ibid.

20. De´shayes, p. 193; G. Bibby, The Ancient Indian Style, Seals from Bahrain, Antiquity, XXXII, 1958, pp. 243-246; S. N. Kremer, The Indus Civilisation and Dilmun, "The Sumerian Pardise Land" Epedition, VI, 3, 1964, pp. 44-52.

21. Georges Roux, La Mesopotamie, Essai d'histoire politique, e´conom-que et culturelle, Paris, 1985, p. 103-104, 207.

22. Jean Bottero et Samuel Noah Kramer, Lorsque les dieux faisaient l'homme, Paris, 1989, p. 3ss.

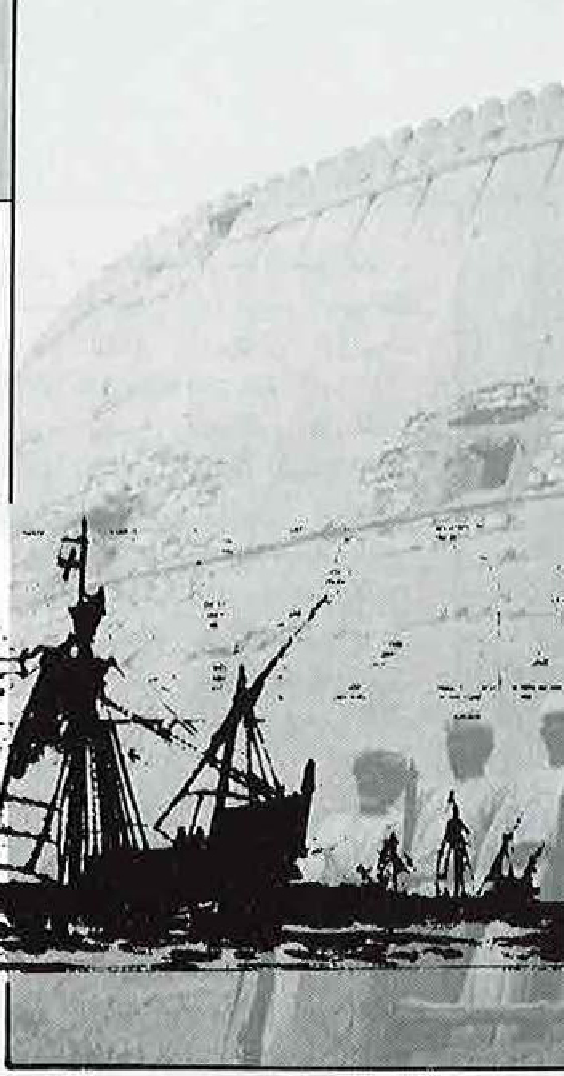
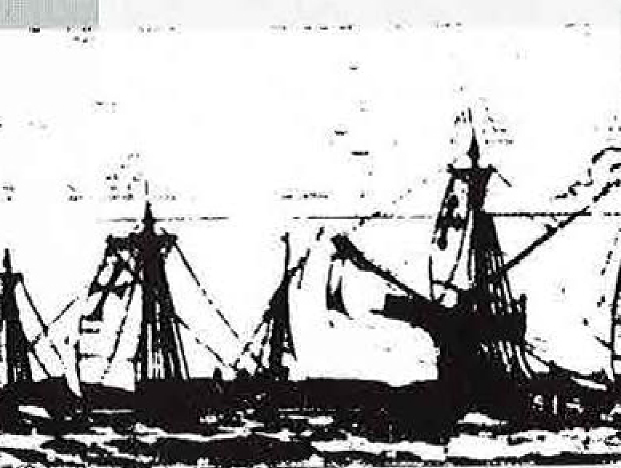


المقاومة العربية الإسلامية للبرتغاليين في الخليج العربي

اندفعت الموجة البرتغالية الصليبية من الاندلس في أعقاب العرب بعد طردهم منها في أواخر القرن الخامس عشر ، تتعقبهم في شمال افريقية لإبادتهم والقضاء عليهم ، بل بلغت بهم الحمية الى حد محاولة تتبعهم في عقر دارهم في شبه الجزيرة العربية . ومن ثم بدا الدوران حول افريقية للوصول الى الهند ، لانتزاع تجارة الأفاوية من يد العرب عن طريق السيطرة على مياة المحيط الهندى وبحر العرب ، والثغور المطلة عليهما . فهى في نظرهم الطريقة المثلى لإضعاف العرب ، والقضاء عليهم[١] ، أي محاولة الالتفاف حول قوة الاسلام البرية الجارفة في الشرق الاوسط[٢] ، والاحاطة بالجناح الغربي للعالم الاسلامي الذي يمتد في شمال افريقية ، ويسد كل الطرق الموصلة بين أوربا والهند .

للاستاذ الدكتور

محمد محمود السروجي

فأهداف البرتغاليين كانت اقتصادية في المقام الاول ، ضرب الاقتصاد العربي الاسلامي . وهذا بدوره سيؤدى الى نتائج سياسية تتمثل في إضعاف العرب والسيطرة عليهم ، وإنشاء امبراطورية برتغالية[٣] . وصبغة هذه الأهداف بالصبغة الدينية ، مبعثها الكره للعرب والاسلام والحقد على معتنقيه . ويدل على ذلك ماورد برسالة الملك عما نويل ملك البرتغال الى البابا يوليوس الثاني عام ١٥٠٥ حيث يقول : « إنه ليس عازما على المضى في قتل التجارة المملوكية فقط ، بل إنه سيجاهد في سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفا لمدافعة وجنوده »[٤] .

كانت سياسة الشدة والبطش هى السياسة المقررة لفاسكود اجاما إزاء العرب لإلقاء الرعب في قلوبهم وشل حركتهم ، فكان يهاجم كل سفينة عربية ويقوم بتدميرها دون أي إنذار . بل ذهبت به الوحشية الى حد أنه كان

إذا مااستولى على سفينة عربية ، أمر بتفريغ حمولتها من البضائع ، ثم يقوم بإحراقها بمن فيها من بحارة ومسافرين .

وعندما وصل البرتغاليون الى الهند نزلوا في قاليقوت ، وكان يحكمها ملك يدعى الزامورين ، وهى المركز الأساسي لتجارة الأفاوية سواء الصادرة من الهند أو الوافدة اليها من جزر المحيط الهادى ، حيث يقوم التجار العرب بنقلها عن طريق الخليج العربي الى ميناء البصرة ومنها الى موانىء الشام فأوربا أو الى البحر الاحمر فميناء السويس الى الاسكندرية ودمياط حيث تنقلها سفن البندقية وجنوه الى أوربا . وكانت البيوتات العربية التجارية تتحكم في تلك التجارة ، ومن ثم كان لتلك البيوت العربية علاقة خاصة بهذا الملك . كما كان لتجار قاليقوت العرب مستودعات لتجارتهم بالقاهرة والاسكندرية ، بل امتدت الى مدينة فاس بالمغرب(٥) . ولذا كان اختيار البرتغاليين ميناء قاليقوت للاستيلاء عليه مقصودا لذاته ، ليتمكنوا من ضرب التجار العرب والقضاء على تجارتهم .

كانت الهند اذن على علاقة تجارية وثيقة مع العرب في الجزيرة العربية بعامة والخليج العربي بخاصة قبل مجىء البرتغاليين بآماد طويلة . فانتشار الاسلام في جنوب وجنوب شرقي آسيا قد تم على يد التجار العرب المسلمين الذين وجد فيهم أهالى تلك البلاد الخلق الاسلامي الرفيع ، فكانوا خير دعاة للاسلام(٦) .

بعد وصول البرتغاليين الى الهند أخذوا يد رسون طبيعة المنطقة المطلة على بحر العرب والمحيط الهندى ، ووضعوا استراتيجية قائمة على تطويق الجزيرة العربية عن طريق ذراعيها الممثلين في الخليج العربي والبحر الأحمر ، فكلا الطريقين كان يستخدم من قبل التجار العرب لنقل تجارة الشرق الى اوربا ، فالسيطرة عليها ، والاستيلاء على الموانىء المطلة على شواطئها يمكن البرتغاليين من سد طريق التجارة ومنافذها في وجوههم .

أما الجزء الثاني من المخطط البرتغالى فهو السيطرة على منافذ تجارة الشرق الأقصى ببسط نفوذهم على ملقا والجزر الأندونيسية لحرمان التجار العرب المسلمين من تلك الاسواق بعد حرمانهم من تجارتهم مع الهند . وبذلك يحكمون سد جميع المنافذ أمامهم ، ولتخلوا لهم وحدهم تجارة الشرق والهند .

وفي حقيقة الأمر فإن ظهور البرتغاليين في البحار العربية في مطلع القرن العاشر / السادس عشر الميلادى كان ملائما لهم ، فالدول الاسلامية كانت في حالة تفكك

وانقسام ، فالهند كانت منقسمة على نفسها ، فملوك (فيجاياناجار) الهندوكيين كانوا في عداء مستمر وحروب تكاد لاتنقطع مع حكام الدكن المسلمين . فلاغرابة إذا ما ارتبط البرتغاليون بصلات مودة مع هؤلاء الهندوكيين ، لأنه يجمعهم هدف واحد وهو كراهيتهم للعرب والاسلام .

كذلك كانت إمارات الخليج مفككة . أما الدول الاسلامية الكبرى في ذلك الوقت ، فكانت دولة المماليك في مصر تشغلها الانقسامات الداخلية بين البيوتات المملوكية ، إضافة الى نقص مواردها المالية نتيجة تحول التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح . أما الدولتان الاسلاميتان الأخريان وهما الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس ، فكانت بينهما علاقات عدائية أدت الى قيام الحروب بينهما ، بسبب اختلاف المذهب الدينى وتعارض المصالح .

وفي البداية تحرك فاسكودا جاما من البرتغال في ١٠ فبراير ١٥٠٢ في طريقه الى المحيط الهندى ، وكان عليه في هذه الرحلة أن يبقى خمس سفن من اسطوله في مياه المحيط الهندى لحماية المحطات التجارية البرتغالية في الهند ولمحاولة غلق مدخل البحر الاحمر الجنوبى عند باب المندب في وجه التجار العرب[٧] .

وعندما عجز البوكيرك في احتلال عدن ، وجه اهتمامه شطر الخليج العربي وهو - كما ذكرنا - أحد الطريقين اللذين كانت تسلكهما تجارة الهند والملايو الى موانىء الشام ، لضرب القوى العربية وإضعافها ، وخصوصا عمان التي كان لها التفوق البحرى والتجارى في المحيط الهندى[٨] إضافة الى الخليج العربي والبحار الشرقية بصفة عامة[٩] .

كان على البوكيرك قبل أن يقتحم الخليج العربي أن يحتل جزيرة هرمز في عام ١٥٠٧ ، تلك الجزيرة التي تتحكم في مدخل الخليج ، والتي كانت خاضعة لحكم صبي عربي يبلغ الثانية عشرة من عمره ، ويتولى الوصاية عليه خوجه عطار[١٠] ، وكان على درجة كبيرة من الحنكة . قاومت الجزيرة مقاومة شديدة رغم عدم تكافؤ القوى واضطرت الى الاستسلام في نهاية الأمر ، فخضعت لسيادة البرتغال ، وتعهدت بدفع ضريبة سنوية للسلطات البرتغالية[١١] . ويرجع السبب في سقوطها الى تقاعس البلدان الاسلامية المجاورة لها عن نجدتها ، وذلك للأسباب التي أشرنا اليها آنفا من تفكك العالم الاسلامي . وقتذاك . وبهذا تمكن البرتغاليون من اغلاق الخليج العربي والقضاء على التجارة العربية مع الهند والملايو[١٢] .

خشى البوكيرك من إدراك الشاه

اسماعيل الصفوى لأهمية جزيرة هرمز ، وتطلعه للاستيلاء عليها لما لموقعها من خطورة على الملاحة في الخليج ، لاسيما وأن حاكم الجزيرة كانت تربطه علاقات ودية بالشاه . فحاول البوكيرك من جانبه أن يخطب ود الشاه ، وأن يتقرب اليه ليأمن جانبه ، وليخيف بهذا التقرب القوى العربية بالخليج فأرسل اليه مبعوثا برسالة يقول فيها : « إنى أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك وأعرض عليك الاسطول والجند والاسلحة لا ستخدامها ضد قلاع الترك في الهند .

وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جده أو في عدن أو في البحرين أو في القطيف أو في البصرة ، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسى ، وسأنفذ له كل مايريد[١٣] .

وقد حدث بالفعل ماكان يخشاه ، ففي عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م اعترفت هرمز بالسيادة الفارسية تخلصا من البرتغاليين ، ورفضت دفع الضريبة السنوية لهم[١٤] فعاود البوكيرك غزوه للجزيرة مرة ثانية وقضى تماما على سيطرة حكامها على مياه المحيط الهندى والبحر الأحمر التي استمرت زهاء قرنين ونصف قرن من الزمان[١٥] .

بعد الاستيلاء على هرمز والتحكم في الخليج العربي اتجه البرتغاليون في عام ١٥٠٧ الى سائر المدن العمانية مثل صور ، وقلهات ، ومسقط وصحار وقد تم الاستيلاء على صحار بمساعدة الشيخ عمير بن حمير مستغلا ضعف النبهانيين وقتذاك . وسقطت جميع منطقة خورفكان في أيديهم[١٦] . ثم أخذ البرتغاليون في تحصين البلاد بإقامة سلسلة من القلاع والحصون التي مازال بعضها قائما الى اليوم .

وقد اشتد تسلط البرتغاليين على جزيرة هرمز في عهد الحاكم محمود بن سيف الدين ، فأرغموه في عام ٩٣١هـ/ ١٥٢٤م على عقد معاهدة معهم تولى فاسكود داجاما بمقتضاها حكم الجزيرة على أن تبقى خاضعة للسيادة البرتغالية مدة قرن من الزمان[١٧] .

وعند احتلال البرتغاليين مسقط « قبضوا على عدد كبير من أعياء المدينة ووجهائها ، فجدعوا أنوفهم ، وقطعوا آذانهم ، ونهبوا المدينة وحرقوها بالنار كما أحرقوا قلها (قلهات) وطيوى ، ودارشيت[١٨] ومدينة جلفار[١٩] .

واصل البرتغاليون تقدمهم على الساحل الغربي للخليج العربي حيث تم لهم التعرف على البحرين في عام ١٥١٤ ، ولكنهم لم يقدموا على غزوها إلا بعد سبع سنوات ، حيث أعدوالها قوة بحرية كبيرة بقيادة انطونيو كوريا

استطاعت Antonio Correa اخضاعها لهم[٢٠] .

ومما يدعو الى الدهشة عدم اهتمام المؤرخين العمانيين بذكر تفصيلات حركة المقاومة العمانية للغزو البرتغالى للخليج العربي . فمما لاشك فيه أن البرتغاليين وجدوا مقاومة من قبل السكان المحليين رغم تفاوت القوى من ناحية الاعداد والتسليح والتدريب . في الوقت نفسه الذي نجد هؤلاء المؤرخين يهتمون بذكر تفصيلات المعارك القبلية المحلية بكل دقة . ولو وجدت المقاومة العربية نفس الاهتمام من هؤلاء المؤرخين ، لتوفر لدينا مادة علمية غزيرة توضح لنا مابذله الأجداد من جهود دفاعا عن ديارهم وحماية لاعراضهم واموالهم .

ويمكننا القول بان الاحتلال البرتغالى للبلدان العربية ظل يعاني من الانتفاضات التي قامت ضده في مختلف المناطق[٢١] .

واذا كانت الأمور قد سارت وفق هوى البرتغاليين – رغم المقاومة العربية لهم في الخليج العربي – إلا أن الأمور لم تسر على هذا النحو بالنسبة للذراع الثاني للجزيرة العربية ، ألا وهو البحر الاحمر ، فالسيطرة عليه واحتواء موانيه هدف استراتيجى للبرتغاليين ، للقضاء على التجارة العربية ، وليمنعوا كل مساعدة تأتي من دولة المماليك وهى أكبر دولة تطل بسواحلها الطويلة على هذا البحر ، ومن بعدها الدولة العثمانية ، وذلك للحيلولة دون إنقاذ اخوانهم في الدين والعروبة في منطقة الخليج العربي بخاصة والجزيرة العربية بعامة .

ففى عام ١٥٠٥ استطاع البرتغاليون دخول البحر الاحمر وتهديد ميناء جده ، بل استطاع نفر منهم أن يتسلل الى مكة[٢٢] . ولهذا السبب ، إضافة الى مالحق بالمماليك من أضرار اقتصادية ، ولاستنجاد العرب بالهند والخليج العربي ، قام المماليك بإعداد حملة مكونة من سبع عشرة سفينة ، تقل الفا وخمسمائة محارب تحت قيادة حسين الكردى ، وتقابل مع البرتغاليين في شول Chaulبالقرب من الساحل الغربي للهند في عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م ، وانتصر عليهم . ولكن حسين الكردى لم يعزز نصره هذا بملاحقة الاسطول البرتغالى الذى تمكن من لم شتاته ، وتعزيز قوته وإنزال الهزيمة بالاسطول الملوكى في معركة ديو البحرية[٢٣] ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م . وبعد هذا الفشل الذي منى به المماليك بدأ البرتغاليون يضيقون الخناق على التجارة العربية ، فمنعوا السفن المحملة بالبضائع من الوصول الى ميناء البصرة مما كان له أكبر الأثر في الحاق الضرر بالطريق التجارى البرى

عبر العراق وسوريا[٢٤] .

وعندما حاول المماليك الاستعانة بالبنادقة لتعزيز قوتهم البحرية للتصدى للبرتغاليين مرة ثانية ، وفشلت محاولتهم يمموا وجوههم شطر الدولة العثمانية التي لم تتردد في تقديم العون لهم[٢٥] . وبالرغم من عدم وصول هذا العون فقد أرسل الغورى في عام ٩١٦هـ / ١٥١٤م حملة ثانية تحت قيادة مشتركة من حسين الكردى ، وسليمان العثمانى ، اتجهت أولا الى جدة ، ومنها الى اليمن فالهند ، ولكنها أخفقت في أداء مهمتها لنشوب الحرب بين العثمانيين والمماليك وسقوط مصر في قبضة العثمانيين في عام ١٥١٧ .

حاول البرتغاليون الاستيلاء على عدن أكثر من مرة ولكنهم فشلوا في ذلك فشلا ذريعا ، وإن كانوا قد نجحوا في احتلال جزيرة سقطرة عام ١٥٠٦ ، التي تتحكم في مدخل البحر الأحمر عند باب المندب وبذلك قطعوا الطريق البحرى المباشر بين مصر والهند[٢٦] .

وفي عام ٩١٩هـ / ١٥١٣م حاول البوكيرك غزو عدن ، فامتنعت عليه لمناعة تحصيناتها ، ولمساعدة آل طاهر والمماليك لها ، فتركها واتجه شمالا لغزو مدينتى مخا والحديدة ، فقوبل بمقاومة شديدة ردته على أعقابه الى جزيرة كمران حيث أعاد الكرة مرة ثانية على عدن ولكنه فشل في هذه المحاولة أيضا فقفل راجعا الى الهند[٢٧] .

وبعد أن احتل العثمانيون مصر وجدوا أنفسهم يسيرون في الطريق نفسه الذي رسمه المماليك من قبل في كفاحهم ضد البرتغاليين ، الا وهو تحصين سواحل البحر الاحمر ، ولاسيما سواحل الحجاز ، وإغلاق هذا البحر في وجه السفن البرتغالية حماية للاراضى المقدسة المستهدفة . وإن كانوا قد نجحوا في ذلك ، إلا أنهم لم يوفقوا في تحرير البلدان العربية في الخليج من الحكم البرتغالى .

وباستيلاء العثمانيين على العراق بعد انتصارهم على الفرس حلفاء البرتغاليين[٢٨] وقتذاك ، تمكنوا من الوصول الى مياه الخليج العربي في يوليو ١٥٣٤ ، والاقتراب من قواعد البرتغاليين في الخليج والمحيط الهندى ، مما كان يتيح لهم اتخاذ قواعد عسكرية في الخليج لاستخدامها كنقط انطلاق ضد هم . إلا أنهم لم يغيروا من استراتيجيتهم الثابتة التي ورثوها عن المماليك في اتخاذ السويس القاعدة الأساسية لعملياتهم الحربية ضد البرتغاليين بالتعاون مع القواعد العسكرية المساعدة في الطور[٢٩] ، والعقبة ، والقصير ، وجدة ، وزيلع ، وسواكن ومصوع ، وعدن .

أما الخطوة الثالثة التي أقدم عليها البرتغاليون لضرب التجارة العربية الاسلامية فهي إغلاق آخر منفذ لها في الشرق الاقصى بالاستيلاء على ملقا في عام ١٥١١ ، والسيطرة على الملايو والجزر الاندونيسية حيث كان التجار العرب يحملون تجارة تلك المناطق الى موانىء الخليج العربي ولاسيما البصرة ، أو الى البحر الأحمر لإنزالها في جدة أو السويس ، « ولم يكن في الإمكان السيطرة التامة على تجارة المحيط الهندى مالم تتوطد الهيمنة على مضيق ملقا »(٣٠) .

وفي خلال عملية الغزو خطب البوكيرك في جنوده يستحثهم على القتال قائلا « الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله هي بطردنا العرب من هذه البلاد باطفائنا شعلة شيعة محمد ، بحيث لايندلع لها هنا بعد ذلك لهيب ... وذلك لأنى على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين »(٣١) .

ولاتحسبن أن تعرضنا لنشاط البرتغاليين في جنوب شرقى آسيا سيبعدنا عن منطقة الخليج العربى ، بل العكس هو الصحيح فارتباط تلك المناطق بالخليج العربى بخاصة والجزيرة العربية بعامة قديم ، إذ كانت السفن العربية الاسلامية تفد من الخليج العربي ومن الشحر وجده ، ومصر وتتنافس مع السفن التجارية الآتية من الصين والهند في جاوه والملايو . وعندما تمكن البرتغاليون من السيطرة على تجارة اندونيسيا نتيجة الصراع المرير والعداوة المستحكمة ، والحروب التي لاتنقطع بين حكام جاوه من المسلمين حديثى العهد بالاسلام ، وبين الممالك الهندوكية القديمة لم يتعرض البرتغاليون للتجار الصينيين والهنود ، ولكنهم تعقبوا التجار العرب المسلمين حتى خلت الساحة منهم .

وقد استنزفت قوة البرتغاليين لكثرة الحروب التي خاضوها(٣٢) ، ولتعدد الانتفاضات العربية التي قامت ضد هم ، بحيث بدأ نجمهم في الأفول في الخليج العربى في عام ١٦٢٤ بسقوط هرمز نتيجة التعاون مع الفرس وبمساعدة العمانيين ، وبذلك فقد البرتغاليون أهم وأقوى نقطة استراتيجية لهم في الخليج العربى(٣٣) .

وقد استغل العمانيون الذين كانوا يخضعون لسلطة البرتغاليين في جزيرة هرمز فرصة خروج الجزيرة من قبضتهم وأعلنوا استقلالهم(٣٤) عن البرتغال ، وأخذوا يعدون العدة لطردهم أيضا من عمان . وكانت هذه مهمة دولة اليعاربة(٣٥) (١٠٣٤ - ١٥١١هـ/ ١٦٢٤ - ١٧٣٨م) ، وعلى وجه الخصوص الامام ناصر بن

مـرشـد بن سلطـان (١٠٣٤ - ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م) الذي أدرك أن تخليص عمان من الحكم البرتغالى لن يتم إلا بعد توحيد بلاده التي مزقتها صراعات الحكام على السلطة . وقد تم له ما أراد .

هذا من الناحية الداخلية ، أما من الناحية الخارجية ، فقد كانت الأوضاع الدولية في الخليج العربي تتجه لصالحه ، فظهور هولندا كمنافس خطير للبرتغاليين في الخليج ، ثم لحق بها البريطانيون ، قد خلق مجالا للمنافسة الشديدة بين القوى الأوربية الثلاث للسيطرة على الخليج العربي[٣٦] شغل البرتغاليين عن التفرغ لمواجهة حركة التحرير في عمان .

وقد أدرك الامام ناصر منذ البداية ان الصراع بينه وبين البرتغاليين هو صراع بحرى في المقام الأول[٣٧] ، ويستوجب هذا الاهتمام بناء أسطول عربى جديد يعتبر «أول أسطول منظم أصبح في نهاية القرن السابع عشر القوة البحرية الأولى في مياه الخليج العربى والمحيط الهندى[٣٨] .

بدأ الامام ناصر باستعادة صحار ، وجلفار من أيدي البرتغاليين[٣٩] واتجه بعد ذلك الى مسقط في عام ١٦٤٣ ، وتعد أقوى المعاقل المنيعة ، فاستعصت عليه ، نظرا لقوة حصونها ، ولامداد الأسطول البرتغالى لها بالمؤن والذخائر عن طريق البحر ، وكذلك الحال بالنسبة لمطرح . وبالرغم من عدم استطاعة العمانيين استرجاع المدينتين إلا أن ضعف قوة البرتغاليين أجبرتهم على طلب الصلح ، وقبولهم دفع جزية سنوية للامام ، مع هدم الحصون التي شيدوها في قريات وسمد ، وتعهدهم بعدم التعرض للنشاط التجارى العمانى . وكان التسليم بهذا الشرط أول انهيار لأهم هدف جاء البرتغاليون من أجله الى البحار العربية ألا وهو القضاء على النشاط التجارى العربي الاسلامى .

وفي عهد خلفه الامام سلطان بن سيف تم له تحرير مسقط من الحكم البرتغالى في عام ١٦٥٨ لتنطوى بذلك صفحات من أول موجه استعمارية شرسة في التاريخ الحديث ، لتبدأ اخرى جديدة مليئة بتنافس قوى اوربية أكبر وأشد ، ممثلة في هولندة وبريطانيا وفرنسا .

واذا تأملنا الأسباب التي عجلت بنهاية النفوذ البرتغالى في الخليج ، نجد أنه يمكن ارجاعها الى النقاط الاتية :

أولا : إدراك العمانيين منذ البداية أن قوة البرتغاليين تكمن في قوتهم البحرية وأن عليهم إذا ماأرادوا طردهم من الخليج العربى أن يحاربوهم بنفس سلاحهم . ومن ثم لم

يدخروا وسعا في إعداد أسطول بحري مدرب ومنظم، ومزود بأقوى الأسلحة والعتاد. وقد مكنهم ذلك من التغلب على أهم نقاط القوة لدى البرتغاليين.

ثانيا – اختيار العمانيين للأوضاع الدولية المناسبة لإنزال ضربتهم القاضية ضد الوجود العماني في عمان. فالتنافس الذى نشب بين البرتغاليين من جهة، وبين الفرس والهولنديين والبريطانيين من جهة اخرى، قد ساعد العمانيين على إنزال الهزيمة بالبرتغاليين.

ثالثا – إنه نظرا لقلة عدد سكان البرتغال، ولاتساع امبراطوريتهم أكثر من قدراتهم جعل ذلك استعمارهم للمناطق العربية الاسلامية يرتكز على سلسلة من القواعد العسكرية البحرية دون أن يجرؤا على التوغل داخل البلاد. ومن ثم كان بقاء تلك القواعد وحمايتها مرهونا بقوتهم البحرية، فلما ضعفت تلك القوة ودخلت حلبة المنافسة قوى أخرى أعظم شأنا، وأصلب عودا، انهارت تلك الامبراطورية، ولم تقم لها قائمة.

رابعا – إن اتباع البرتغاليين سياسة الشدة والبطش في حكمهم لتلك البلاد إضافة الى استنزافهم لمواردها الطبيعية والبشرية، قد زاد في كراهية الشعوب الخاضعة لحكمهم لهم، وجعلهم دائمي الانتفاضات، يتحينون الفرص المناسبة للخلاص من نيرهم.

خامسا – إن زوال الوجود البرتغالى من الخليج العربى، قد أتاح للقوى العربية أن تؤكد لنفسها زعامة الخليج(٤٠). وهذا ماسنجده بشكل واضح في القرن الثامن عشر.

وخلاصة القول فإن مقاومة الخليجيين ومن ساندهم من القوى العربية الاسلامية طوال فترة الاحتلال البرتغالى، ومحاولاتهم المتكررة للخلاص منه، قد منحتهم خبرة ودراية، مكنتهم من الوقوف على نقاط القوة والضعف في عدوهم، فتجنبوا نقاط القوة، واستغلوا نقاط الضعف. فلم يهنوا ولا استكانوا الى ان قيض الله لهم القيادة الحكيمة الواعية التي أخذت بيدهم الى طريق النصر.

د. محمد محمود السروجي
استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

الهوامش

١ ـ بانيكار ، أسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٦٢ ص ١٠ .

٢ ـ نفسه ص ١٥ .

٣ ـ عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم ، علاقة ساحل عمان ببريطانيا - دراسة وثائقية ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ ص٢٥ .

٤ ـ محمد مصطفى زيادة ، مصر والحروب الصليبية .ص ١٦ .

٥ ـ بانيكار ، المرجع السابق ص ٣٧ .

٦ ـ Fisher, S.N, The Middle East - A history, N.Y. Alfreda Knop, Inc, 2nd ed. 1968, p. 143.

٧ ـ Strand, J, Portuguese Period in East Africa, P. 39

٨ ـ Philips, Wendell, Oman, A history, London. 1967

٩ ـ جمال زكريا قاسم ، الادعاءات الايرانية في الخليج العربى ، أصول المشكلة وتطورها التاريخى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد العشرون ١٩٧٣م .

١٠ـ ويلسون ارنولد ، الخليج العربى ، ترجمة عبدالقادر يوسف ، مؤسسة فهد المرزوق الصحفية ، الكويت ص ٢٠٨ .

١١ـ سيد نوفل ، الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة طـ٢ ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦١ ص ٤٢ .

١٢ـ صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، القاهرة ١٩٤٧ ص١٦ .

١٣ـ نفسه ص ١٧ .

١٤ـ ويلسون ، المرجع السابق ص ٢١٣ .

١٥ـ سيد نوفل ، المرجع السابق ص ٤٢ .

١٦ـ محمود على الداود ، محاضرات عن التطور السياسى الحديث لقضية عمان معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٨ .

١٧ـ ويلسون ، المرجع السابق ص ٢١٨ .

١٨ـ صحتها (ريسوت) كما وردت بكتاب محمد السالمى ، وناجى عساف ، عمان تاريخ يتكلم ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م ص ٨٨ .

١٩ـ عبدالله بن صالح المطوع ، عقود الجمان في ايام ال سعود في عمان ، مخطوط ورقة ١٧ .

٢٠ـ سيد نوفل ، المرجع السابق ص ٤٢ .

٢١ـ نفسه .

٢٢ـ ابن إياس ، محمد بن احمد ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مطابع الشعب القاهرة ١٩٦٠ ٤ / ١٩١ .

٢٣ـ نفسه ٤ / ٣٠٨ .

٢٤ـ محمد عبدالمنعم الراقد ، الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ص ١٢٢ .

٢٥ـ Kammerer, La Mer Rouge, L,Abyssinie et L,Arabie depuis L,Antiquite´, 2 Vols. le Caire 1920, T.2 P. 144.

٢٦ـ Stripling, The Ottoman Turks and the Arabs, Urbana Oxford, 1942, P. 28

٢٧ـ غسان محمد الرمال ، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر مطابع دار العلم ، جدة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥ ص ١٤٢ .

٢٨ـ صلاح العقاد ، المرجع السابق ص ١٨ .

٢٩ـ وثائق دير سانت كاترين بسيناء ، وثيقة رقم ١٧٠ بتاريخ ٢٠ رجب ١١١٢هـ / ١٧٠٨ .

٣٠ـ بانيكار ، المرجع السابق ص٤٨ .

٣١ـ نفسه .

٣٢ـ محمود على الداود ، المرجع السابق ص ١٩ .

٣٣ـ Foster, England's Question in the Eastern Trade, London, 1933, P. 79 .

٣٤ـ جمال زكريا قاسم ، الادعاءات الايرانية ٠٠٠ص ١٦٥ .

٣٥ـ حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين المبرهن سيرة البوسعيديين ، تحقيق عبدالمنعم عامر محمد مرسى ، ص ٢٥٠ .

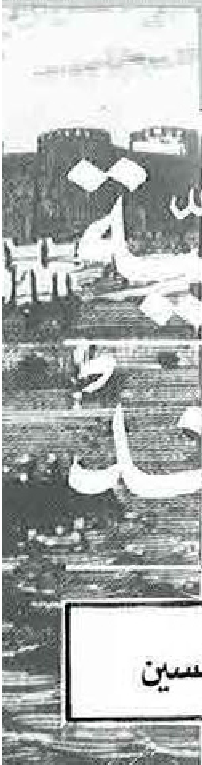
٣٦ـ لوريمر ، دليل الخليج ، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، ١ / ١٦ .

٣٧ـ جمال زكريا ، المرجع السابق ص ١٦٥ .

٣٨ـ محمود على الداود ، المرجع السابق ص ١٨ ، ١٩ .

٣٩ـ Badger, G.P. History of the Imams and Sayyids of Oman, by Salil bin Razek from A.D. 661 - 1856, P.

٤٠ـ جمال زكريا ، المرجع السابق ص ١٦٨ .

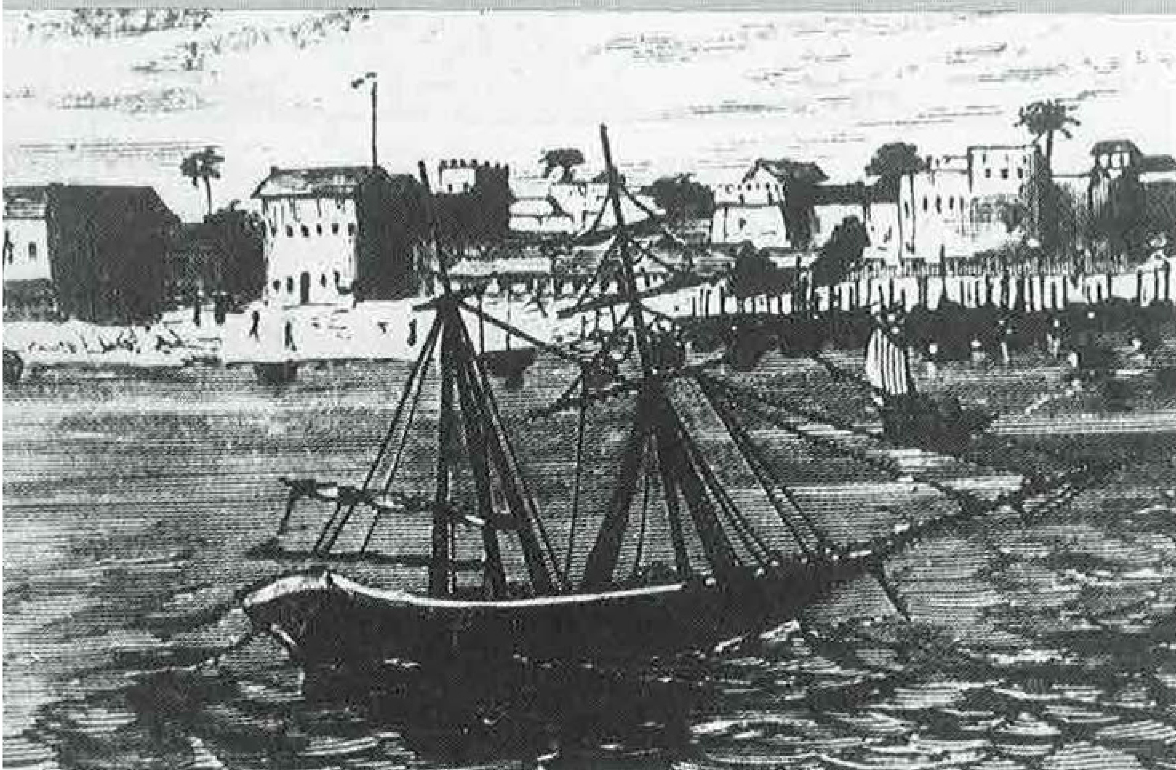


العلاقات التاريخية بين البحرين والهند

الدكتور علي أبا حسين

ان الباحث فى تاريخ العلاقات بين البحرين والهند يجد انها ترجع الى فترات سحيقة فى القدم ويؤكد بعض علماء الاثار على ان تلك العلاقات تعود الى الالف الخامس قبل الميلاد [1] بدليل ما عثروا عليه من اثار للفخار المزخرف والاصداف فى كل من حضارة (هارابا) فى الهند وحضارة دلمون المعاصرة لها والتى كانت لها علاقة تاريخية معها اذ اوردت الوثائق السومريه والاكديه ان سفن دلمون ومجان كانت ترسو ببلاد اكد فى وادى الرافدين وهي محملة بالسلع التجارية كالنحاس المنقول من مجان (عمان) والاحجار الكريمة والعاج والخشب والعطور والاقمشة ونحوها المنقوله من الهند فى حوالى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد .

وأشار جفرى بيبى الذى نقب فى البحرين عام ١٩٥٣ الى أن الأختام التى عثر عليها فى البحرين كانت من الطراز الهندى القديم . ومثله ذكر (راو) حينما عثر على ختم خليجى بالقرب من (لوتال) القريبة من احمد اباد فى ولاية كجرات وهو موضع فى وادى السند (الاندس) على ضفة



نهر سابرماتي بالقرب من الساحل الغربي للهند . ويصف (راو) ذلك الختم بانه دائري الشكل ويشبه تماما الاختام التي عثر عليها في حفريات باربار وبقرب قلعة البحرين . واكتشف اخيرا ختم بحريني في (لوتال) وعليه نقوش لافعي وبجانبه غزلان مما يؤكد حتمية العلاقات بين الهند ودلمون وذلك في الربع الاخير من الالف الثالث قبل الميلاد . وعثر على ستة اختام من وادي الاندس في كل من البحرين وعمان ممايجعلنا نستنتج على ان بعض الهنود كانوا يعملون في التجارة بارض دلمون وعمان وجنوب وادي الرافدين فاستخدموا هذه الاختام لختم بضائعهم . ومثلها عثر في (باربار) وهو موضع اثري قديم بالبحرين على اختام يتضح فيها وجه الشبه الفني مع اختام حضارة (هارابا) بالهند وقد ارخها علماء الاثار بالعصر الاكدي اي في حوالي منتصف الالف الثالث قبل الميلاد (٢) مما يؤكد العلاقات الحضارية العريقة بين البحرين والهند منذ العصور القديمة .

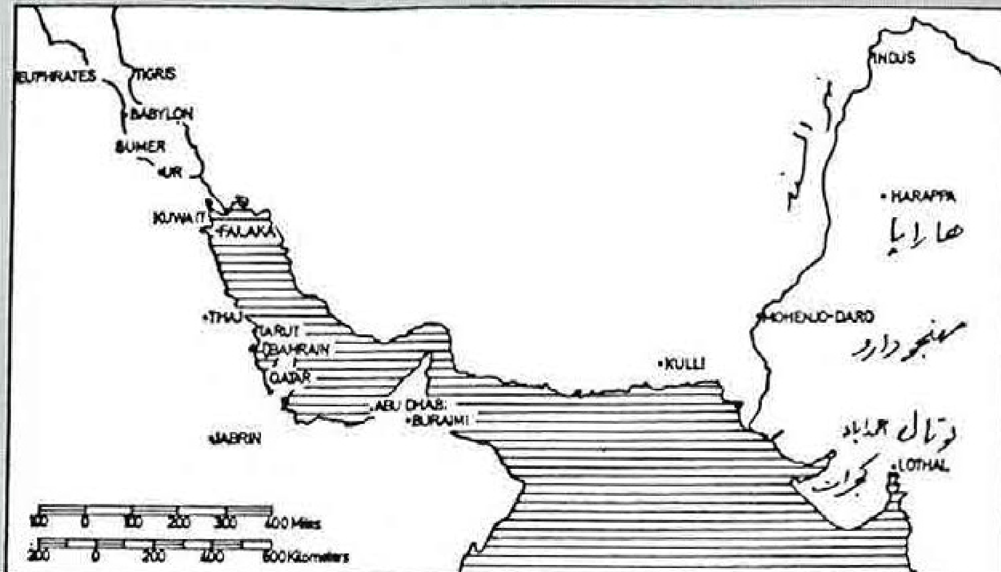
وتذكر الكتابات المسمارية أن الملك سرجون الاكدي قد وصل بفتوحاته الى بلاد دلمون تلمون وهي البحرين . وكان يصاحب تلك الفتوحات نشاط اقتصادي اذ اقام الحكام الاكديون

علاقات تجارية مع سكان الخليج العربى ومع وادى السند واصبحت والحالة هذه (دلمون) محطة متوسطة بين مناجم نحاس عمان (مجان) والذهب والاحجار الكريمة والتوابل والاخشاب المنقولة من ديار السند اذ كانت تتزود السفن بالماء والغذاء فى دلمون وهى قادمة من (لوتال) الى بلاد الرافدين او ذاهبه اليها وهذا ما اوضحته الاختام الهندية التى عثر عليها فى المدن السومرية والاكدية . كما بنى (اور نانشه) ملك لجش معبدا نقلت اخشابه فى مراكب (دلمون) التى اطلقت عليها الوثائق الاكدية (بلاد شجرة النخيل) وسطرت الاساطير البابليه انها الوسيط لنقل سلع الهند ونحاس عمان الى وادى الرافدين هكذا اصبحت دلمون مركزا للترانزيت بين الهند وأور فى جنوب وادى الرافدين حتى اواخر الالف الثانى ق . م بدليل ورود اسم تاجر يدعى (ايا ناصر نصير) كانت له معاملات تجارية فى (دلمون) فيستورد النحاس من (مجان) ثم يعيد تصديره الى (اور) وفق ما دلت عليه الاختام التى عثر عليها فى البحرين وهى من النموذج الهندى والاوانى الفخارية التى يرجح انها مستوردة من الهند [٣] وهكذا استمرت الطرق التجارية الاتيه من الهند والشرق الاقصى تمر عبر البحرين (دلمون) الى بلاد وادى الرافدين وبالعكس . وكان سبب ازدهار التجارة فى الالف الثالث والثانى ق . م ما تتمتع به البحرين من (موقع جغرافى) و (وفرة المحاصيل الزراعية) و (المياه العذبه) والتى لا تستغنى عنها السفن التجارية التى تحتاج لتزويدها بالماء والزاد وكان للتجارة دور هام فى تبادل الثقافات بين بلاد الهند ووادى الرافدين عبر البحرين كأساليب رصف الطرق ونظام المقاييس والاوزان كما وجد الاثاريون فى (باربار) وهو موضع اثرى فى البحرين اماكن لتقديم القرابين للالهة ومثلها تلك التى وجدت فى (لوتال) و (هارابا) بالهند ومما يذكر ان معبد الالهة (انزاك) فى دلمون شيده جماعة من الهنود الذين قدموا من (سوراسترا) والذين استقروا لعدة اجيال فى دلمون . ونتيجة اخرى للاتصال بين الهند ومنطقة الخليج العربى فقد حدث تجانس فى طرق الصيد والادوات التى يستخدمها صيادو السمك او حتى السفن والاجهزة المزودة بها تلك السفن تكاد تتشابه لدى الملاحين فى كل من المنطقتين هذا بالاضافة الى تبادل السلع بين البحرين والهند منذ الالف الثالث والثانى . ق . م . كالنحاس والعاج والاحجار الكريمة والاخشاب والخرز . [٤] والمتتبع للعلاقات التجارية بين الهند ودلمون

يجد انها تكاد تنقطع او انها لم تكن بالنشاط الذى شهدته فى عهد الملك البابلى (حمورابى) فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وذلك نتيجة لقلة الاتصال التجارى بين بابل والهند ايام (الكشيين) حيث دلت على ذلك نصوص العمارنه فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد الا ان التبادل التجارى بين وادى الرافدين والهند عاد للنشاط من جديد ايام (الاشوريين) فى الالف الاول قبل الميلاد عبر (دلمون) (٥) .

وجدير بالذكر فقد ناقشت الباحثه الهندية (روميلا ثابير) مواقع (دلمون) و (مجان) و (ملوخا) فذكرت اصل تسمية هذه المواقع من وجهة نظر المصادر الهندية وخرجت باستنتاج هو ان اصل التسميات هذه شبه درافيديه اى ما قبل الدرافيدية مستدله على ذلك بوجود الاثار والاختام والتماثيل فجعلت كلمة (دلمون) او (تلمون) مشتقه من مقطعين هما : (تيل وتعنى (النقى او النظيف او الطاهر) ومعنى (مان) فى نفس اللغة (ارض) فتصبح تلمون او (تلمان) حسب تصريفها للتسميه (الارض الطهور او الارض الطاهرة او النقية) وهذا ما تؤكده الكتابات المسمارية السومرية والاكدية . اما اصل تسمية (مجان) او (ملوخا) فهو خارج عن موضوع بحثنا الذى يؤكد على العلاقات التاريخية بين (دلمون) او البحرين والهند .

وفى صدر الاسلام تطورت العلاقات التاريخية بين سكان الخليج العربى وشبه القارة الهندية خاصة البحرين اذ ان المنطقتين تتمتعان بطبيعة مشتركة ساعدت على تقارب الشعبين الا وهى موقعهما على سواحل البحر فكان لابد من انفتاح احدهما على الاخر واستمرت البحرين كحلقه وصل بين الهند من جهة ووادى الرافدين وشبه الجزيرة العربية من جهة اخرى فتستورد من الهند الاخشاب والتوابل ونحوها مما تحتاجه تلك البلاد فتصدره الى البلاد المجاوره كما تصدر الى الهند اللؤلؤ الذى اشتهرت به عبر التاريخ . ومن البحرين كانت أولى الحملات الاستطلاعية للفتح العربى الاسلامى للهند وذلك ايام الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذ اورد البلاذرى ان الخليفة الثانى ولى (عثمان بن ابى العاص) ولاية البحرين وعمان عام ١٥هـ ـ ٦٣٦م فوجه (عثمان اخاه (الحكم) الى البحرين ومضى الى عمان فأقطع جيشا الى (تانه) وعزم على تنفيذ خطة لفتح الجزء الاسفل من نهر السند غير ان الخليفة عمر لم يشجع هذه المبادرة لقساوة بلاد الهند ولبعد المسافة . ولما تولى الخلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه وجه من يكتشف ويتعرف له



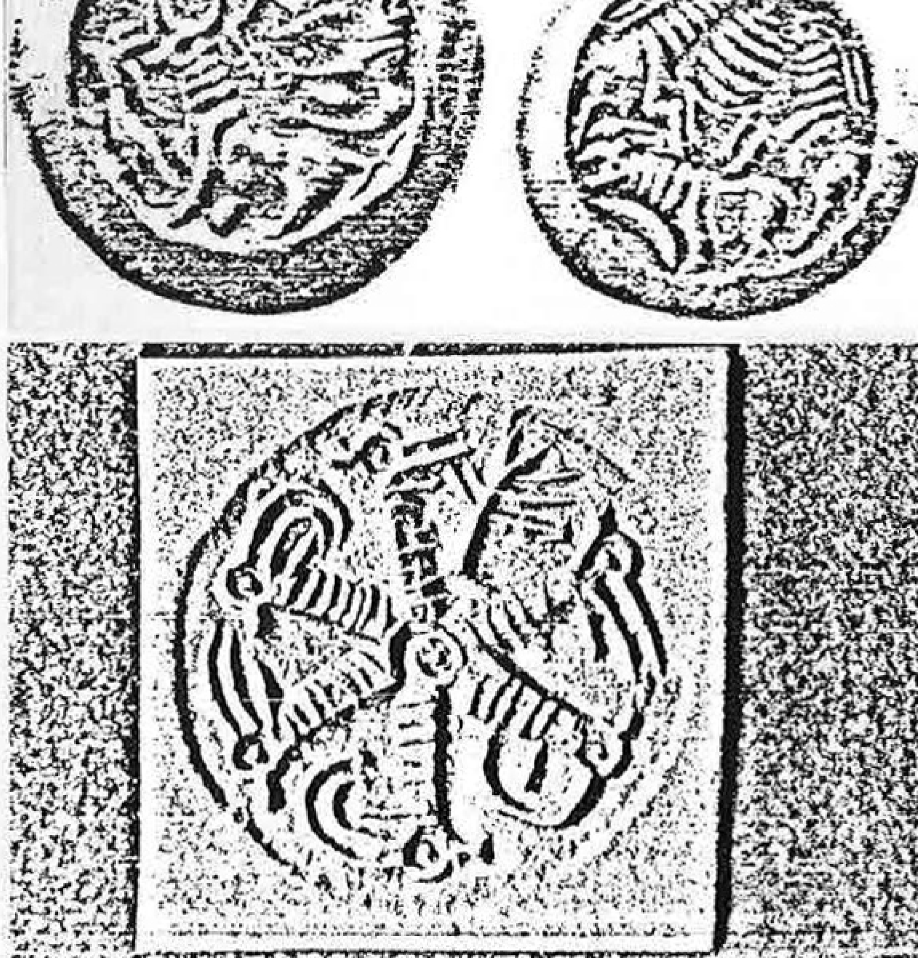
● يلاحظ أن حضارة (دلمون) في موقع وسط بين حضارتي وادى الرافدين ووادى السند …

انظر البحث عن دلمون (جوفرى بيبي)

احوال بلاد الهند حتى اذا عرف ذلك بدأت المحاولات العسكرية فى عهد الخليفة الرابع على بن ابي طالب كرم الله وجهه اذ خرج (الحارث بن مرة العبدى) من عبدالقيس وهم من سكان البحرين وذلك عام ٣٩هـ وفى حملة خاطفه حصلت على غنائم الا ان القائد لقي حتفه . وجاء دور (المهلب بن ابي صفره) الذى حاول هو الاخر دون أن يحقق انتصارات تذكر . كل ذلك يدل على ان المسلمين لم يكونوا غزاة مغامرين بل كانوا يسيرون وفق خطة مرسومة من دار الخلافة . واستمرت المحاولات ففى عهد معاوية قاد (عبدالله بن سوار العبدى) مهمات عسكرية كانت طلائع الفتح

الاسلامى للهند على يد (محمد بن القاسم الثقفى) وفق مخطط عسكرى وضعه الحجاج بن يوسف وأتبعه بحملة اخرى يقودها (قتيبه بن مسلم الباهلى) ثم اسندهما باسطول لدعم الجيشين فسقطت الديبل (كراجى) بفضل قوة العقيدة والخطط الحكيمة والاسطول الذى توجه عبر الخليج العربى من البحرين وعمان وكان يطلق اسم (البحرين) على الاقليم الساحلى الممتد من كاظمة شمالا الى عمان جنوبا . وجدير بالذكر فان الاسلام دخل الهند سلما بدليل العلاقات التجارية والاتصالات التى سبقت الحركات العسكرية فان سكان المليبار اسلموا قبل الفتح العسكرى

اذ يورد البعض من علماء الهند والعرب ان تجارا من العرب ذهبوا الى سيلان عبر ساحل المليبار لزيارة اثر قدم آدم وهناك لقيهم ملك المليبار فاكرم وفادتهم ونتيجة للمصاهرة فقد نشأ جيل من المسلمين المعروفين فى ساحل المليبار باسم (مابلا) او (موبالا) اى الصهر لانهم تزوجوا من النساء المسلمات المحليات وكان هناك جماعة يسمون (نوايات) اى الجدد وهم من العرب الذين حافظوا على عاداتهم العربية وازيائهم وفنونهم وعلى لغتهم العربية ومثلهم (الكنبابية) وهى من بلاد الجزرات الهندية وفيها للمسلمين مساجد ويقصدها تجار الهند وكذا مدينة (جاليور) و (صيمور) وقد زارها المسعودى المتوفى ٣٠٤هـ فوجد فيها خليطا من بياسره وسيرافيين وعمانيين وبحرينيين وبصريين وبغداديين وقد اختلطوا مع اهالي البلاد وللمسلمين رئاسة فيهم يتولاها واحد من رؤسائهم والبياسرة الذين ذكرهم المسعودى هم الذين نزحوا من اباء عرب يشتغلون فى حراسة السفن ومن امهات هنديات وعددهم نحو عشرة الاف وسكنوا فى كاليكوت وكوايلون . وللعلماء والرحالة كبير الاثر فى نشر الاسلام وبناء المساجد فاصبح هناك تراث عمرانى خليجى يتضح اثره فى بناء ملك مالابار اذ بنى (البابن الاعظم) فاصبح نموذجا للطراز الهندى العربى . كما ترجمت معانى القرآن الكريم للهندية فى عهد (مهروك بن رائق) ملك الورا هندوسى ٢٠٧هـ كل ذلك يدل على ان مظاهر الحضارة الثقافية المتبادلة لم تحدث نتيجة القوة العسكرية بل بسبب التعايش السلمى والتفاعل الحضارى . فانتشرت اللغة العربية والخط العربى وترجمت الكتب الكثيرة من اللغة الهندية للعربية وقد اورد ابن النديم قائمة لبعض الكتب المترجمة واستخدم العرب الارقام الهندية . وانتقل كثير من التجار والرحالة والعلماء العرب الى ساحل مليبار والى حيدر اباد الدكن وغيرهما ولا زالوا يعيشون كجاليات محافظة على عاداتها ولغتها متمسكة بعقيدتها الاسلامية ، وعثر على بعض النقود العربية الفضية التى تعود الى العصر العباسى فى (بهابور) و (مينامتى) فى البنغال [٦] وشهد القرن التاسع والعاشر نشاطا تجاريا عبر البحرين اذ تحولت التجارة القادمة من الصين والهند والمتجهة الى مركز الخلافة العباسية عبر الخليج العربى الى البحرين نتيجة للاحداث المضطربة فى ذلك العصر فضعفت اهمية (سيراف والابلة) وحلت محلهما البحرين . ويشير الملاح (سليمان التاجر) الى الاساليب البحرية السائدة لدى



● هذه الأختام عثر عليها فى البحرين وهى تشبه الأختام التى وجدت فى وادى السند ووادى الرافدين وفيها يبدو (الثور) و (الماعز) و (العقرب) .

انظر حفريات البعثة العربية فى موقع (سار) الجسر ۱۹۷۷ ـ ۱۹۷۹ الدكتور معاوية ابراهيم هى ۲۲۳

● انظر صور من البحرين جون لورنس ص ۱۷۹ أختام دلمون التى تربط بين حضارة وادى الرافدين ووادى السند فى الألف الثالث ق . م .

الملاحين فى الخليج العربى والتى تشبه الى حد كبير اساليب الملاحين الهنود . ويؤكد الملاح (احمد بن ماجد) على ان السفن العربية كانت تضطر للرسو فى الموانىء الهندية والسيلانية حين تبحر الى الصين وتعود اليها وذلك لبعد المسافة والمعروف ان ابن ماجد هو الذى اكتشف الطريق الى كاليكوت فى الهند [٧] واستخدم كل من الهنود والعرب نفس الاساليب الفنية والادوات فى الملاحة كالا سطرلاب والكمال وآلة السدس للرؤية ليلا ونهارا تفاديا للنظر مباشرة لاشعة الشمس . والدارس لاساليب الملاحة وفنون البحرية يجد اختلافا بين اساليب الاوربيين من جهة والعرب والهنود من جهة اخرى خاصة فى حساب خطوط الطول والعرض [٨] اما القياسات لبعض عروض البلدان البحرية فهي تختلف عند البحارة العرب عنها عند البحارة الهنود الا ان الاختلاف لا يزيد على اصبع واحدة وغالبا ما يكون الاختلاف بينهما نصف اصبع ويرجع الملاح سليمان المهرى سبب الاختلاف فى القياسات بوجه عام الى الاختلاف فى حجم عود القياس من حيث الطول والقصر والى النقل الفاسد كالنقل عن شخص قليل المعرفة بعلم البحر وفساد القياس المنقول عنه والغلط فى فهم اللغة كنقل العربى عن الهندى او العكس .

ويوجد اختلافات بين الاوربيين من جهة والعرب والهنود من جهة اخرى فى حساب خطوط الطول للبلاد . اما عن خطوط العرض فيوجد لكل شخص استعمال خاص فى علم البحار لكل من العرب والهنود والبحريين الآخرين كما هو ايضا عند الاوربيين وهذه تكون الطريقة التى استعملت بواسطة رجال البحر (البحارة) فى البحرين وهناك تشابه فى (المصطلحات) عند البحارة الهنود وهى تشابه المصطلحات الشائعة عند البحارة فى البحرين فمثلا (ونجي) وهى سفينه باللهجة المليبارية وكانها قريبة من لفظ (الغنجه) التى هى احدى سفن الغوص فى الخليج العربي وقد اوردها ابن بطوطه ويرجح البعض ان اصل الكلمة هندي تشبه اسم النهر المقدس (كنجه اوكنجا) الذى هو حسب اعتقادهم مصدر كل ثروة . وشعار (الكوتية) الهندية يشبه شعار (الغنجة) الخليجية وهو رأس طائر ملتف الى الخلف ولفظ (كوتية) وهى كلمة سنسكريتية وتعنى القلعة او السفينة التى تحمل الجنود والمدافع فهى اشبه بالقلعة و (دنكي) وهى تعنى السفينة الكبيرة من سفن القتال . وجمن : تعنى المركب . وعند اهل البحرين (الجمنتى) هو من يتولى افراغ السفينة من الماء فى

قاعها . وكلمة (بيرجه) و (هورى) وهو مركب للنقل . و (بنجرى) او (فنجرى) وهو المراقب الذى يجلس على الصارى ليرى الارض ويرقب الاحوال الجويه . و (السرهنك) : وهو نائب القبطان و(الزام) : ويعادل مسيرة ثلاث ساعات بالشراع وهى وحدة قياس المساحة التى شاع استعمالها : و (بهندارى) : وهو متولى التموين على المركب . و (قران او (كران) وهو كاتب الحسابات و (الخاروه) وهم البحارة ويسمون ايضا (البانيانية) ومفردها بانيانى وهو التاجر فى الهند والملاح عند بعض سكان الخليج [٩] .

واستوردت البحرين التوابل والسيوف والرماح والعطور والحرير من ديار الهند بينما صدرت البحرين اللؤلؤ والتمور وقد لا يختلف اثنان فى ان السفن الشراعية السريعة كانت تصنع من الواح الساج او شجر جوز الهند المستورد من الهند والتى لاتستخدم المسامير لتثبيتها . بل كانت تنظم الالواح بطريقة ذات انحناء ثم تخاط مع بعضها البعض بدلا من استعمال المسامير ويعلوها شراع مثلث الشكل وللسفينة نهاية مزدوجه ومجدافان جانبيان ثم استعملت دفة واحدة . وسرعة السفينة تسمى (تاك): ولعلها مشتقة من الاصل العربى (إتكأ) . وتصف النصوص الهندية ابوابا مزخرفة بنتوءات مائلة كانت مصدرة الى البنجاب فى النصف الثانى من القرن ١٢ الميلادى . ولا نؤيد ما ذكره الاستاذ (كارسويل) حول ازدهار التجارة فى القرن الثالث عشر الميلادى بين الهند والخليج العربى لان هذا القرن قد شهد سقوط الدولة العباسية على يد التتار ولكن بدأت الحياة الاقتصادية فى الانتعاش فى القرن الرابع عشر مستدلين على ذلك بما اورده (ماركوبولو) حين وصف بالتفصيل ميناء (كايال) الهندى وكيف كانت تستقبل السفن الشراعية وهى تحمل الخيول العربية ويستطرد بقوله ان تغير طعامها ادى الى موت كثير منها . وكان العرب يمتلكون اسطولا تجاريا يسير بين الهند والخليج العربى كما يملك الهنود ذلك ويسيرون الرحلات التجارية وفقا للرياح الموسيمة . وشهد القرن الخامس عشر تعاونا مزدوجا بين العرب والهنود فى مجال بناء السفن وملاحتها وان كان العرب لهم تسيير السفن من سواحل الهند الى موانىء الخليج العربى بينما اقتصر نشاط ملاحى الهند على سواحل الهند فقط [١٠] .

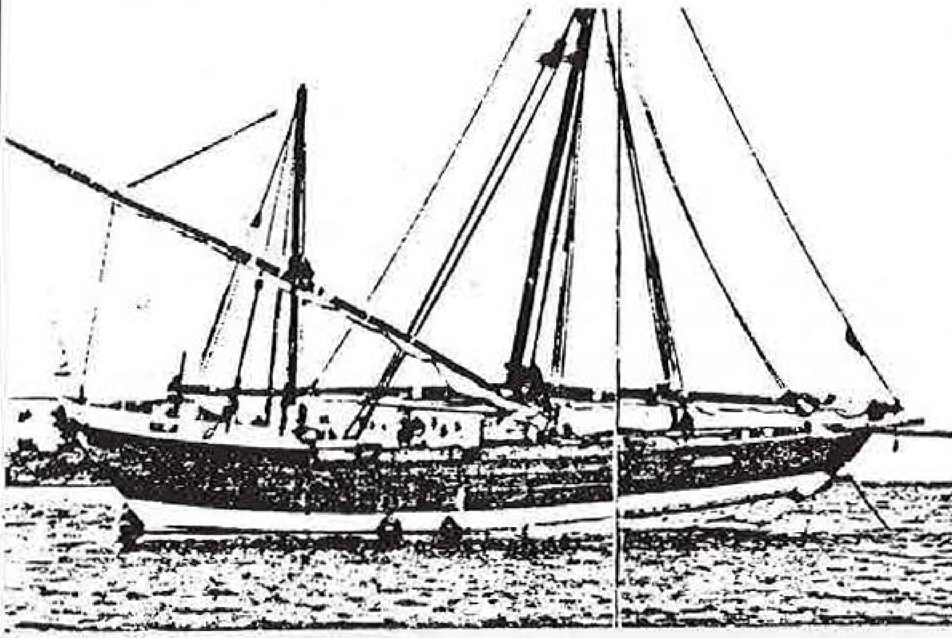
وتعرضت كل من البحرين والهند للهجوم البرتغالي فتدهورت التجارة وتعطلت الملاحة وذلك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وكابدت

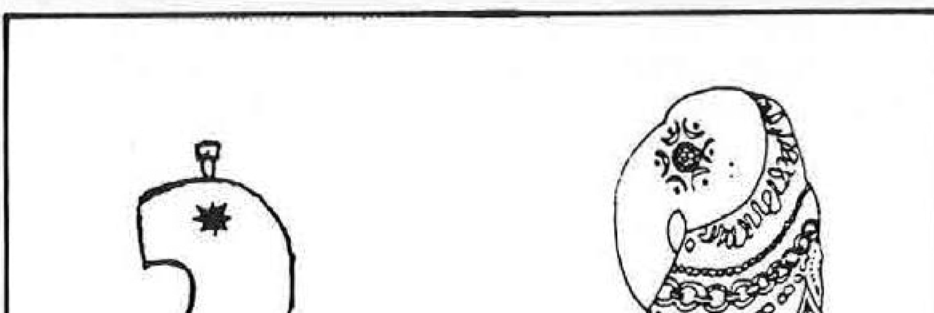
شعوب المنطقة الساحلية الممتدة من شمال الخليج العربى الى اقصى جنوب الهند من الاستبداد البرتغالي حتى استطاع عرب الخليج والبحر الاحمر وبالتعاون مع الهنود والعثمانيين والمماليك وعرب المغرب الاقصى دحر البرتغاليين فى الخليج العربى والمحيط الهندي والبحر المتوسط الى حيث لا رجعة .

وفى العصر الحديث

كان لشركة الهند الشرقية البريطانية دور فى مجال التجارة والاقتصاد ثم كان الطريق منها الى التدخل فى السياسة لدول الخليج العربى ومنها البحرين ومثل ذلك فى بلاد الهند فمنذ ان منحت الملكة اليزابث الاولى عام ١٦٠٠م امتيازا لشركة الهند الشرقية للقيام بالتجارة الانجليزية فى الهند وما جاورها كان الهدف الاساسى للشركة حين تأسيسها هدفاً اقتصاديا فهي تأمل ان تحصل على جزء من خيرات الشرق وثرواته وتنقل السلع الهندية خاصة والشرقية عامة كالتوابل والجواهر والعطور والبخور والحرير والقطن والانسجة الشرقية النفيسة والشاى والقهوة للاسواق الانجليزية دون الاعتماد على بقية الشعوب الاوربية فى ذلك وحافظت شركة الهند الشرقية على طابعها التجارى الى حد ما منذ ١٦١٦م ولمدة مائة وخمسين عاما فأصبحت لها مديريات منها (مديرية بومباى) التى تشرف على شئون الشركة ومصالحها فى جميع المناطق الواقعة الى الغرب من شبه القارة الهندية ومنها منطقتى الخليج العربى والبحر الاحمر .

وعلى اثر ضعف امبراطورية المغول فى الهند وتدهورها اخذت شركة الهند الشرقية تتبع سياسة توسعية مكنتها فى غضون سنوات قليلة من بسط نفوذها على اقاليم شاسعة فى شبه القارة الهندية فتحول دور الشركة فى اواخر القرن الثامن عشر الميلادى الى دور سياسى اذ انشأت شبكه واسعة من الوكالات والمقيميات لتنفيذ هذا الدور اعتبارا من ١٧٦٣ - ١٩٤٧م فى كل من بوشهر ومسقط والبصرة والبحرين والشارقة والكويت وكانت ادارة هذه الوكالات والمقيميات منوطة بحكومة الهند وحكومة بومباى تحت اشراف دائرة الهند فى لندن ودام ذلك حتى عام ١٩٤٧م [١١] وفى خلال هذه الفترة الطويلة حصلت شركة الهند الشرقية على ثروات كثيرة وارباح هائلة خاصة بعد ان حصلت على اسواق تجارية لصادراتها فى منطقة الخليج العربى ونشطت تجارة بيع الانسجة الصوفية المصنوعة فى بريطانية والمشهورة بمتانتها وجودتها حيث وجدت لها اسواقا رائجة فى شمال فارس وبلاد الشام والاناضول وشمال





● الكلمة السنسكريتية الهندية (كونيه) وتعني : القلعة . وتطلق على السفن التى تحمل شعار رأس طائر يشبه (الغنجه) وهي السفينة المعروفة في الخليج العربي والتى كانت تستخدم في الغوص .

العراق تلك البلاد التى تتميز بمناخ شتوى بارد طويل يحتاج الى الانسجة الصوفية وهكذا اصبحت هذه المنطقة فى الخليج العربى وما حولها منطقة رئيسية لتصريف السلع البريطانية .

ثم اخذت شركة الهند الشرقية تحاول السيطرة على جزر الخليج العربى وموانية كهرمز والبحرين وقشم وخرج وبندريق ولكن محاولاتها باءت بالفشل وذلك لمقاومة القبائل العربية لها وعرقلة مساعيها لتحقيق اهدافها السياسية كان ذلك فى الفترة ما بين ١٧٥٠ ـ ١٧٧٠م (١٢) .

وهكذا كان الخليج العربى تحت ادارة دائرة الهند (بلندن) وكان الوكلاء والمقيمون فيه من افراد السلك السياسى الهندى على رأس هيئة من الموظفين الهنود المجتهدين والمتفانين ولم تواجههم وقتئذ مشاكل معقدة كالتى واجهوها فى النصف الاول من القرن العشرين . (١٣) ولكن تعرضت كل من الهند والبحرين الى ضغوط سياسية اجنبية من القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين . ونظرا لاهمية الخليج العربى فى المواصلات الى الهند فقد اصبحت السيطرة على الخليج جزءاً من السياسة البريطانية تجاه الهند وواصلت الهند والبحرين وسائر دول الخليج الكفاح ضد النفوذ الاجنبي ولما كانت البحرين تتمتع بموقع جغرافى مناسب وقريب من البصرة فقد اسست مقيمية انجليزية فى البحرين فى فبراير من عام ١٩٠٠م واصبح امن الخليج وادارته فيما بعد هذا التاريخ من اختصاص الحكومة الهندية بواسطة محافظ بومباى والمقيم فى الخليج وواصلت الهند والبحرين دعمهما للقضايا العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية فقد ايدت الهند هذه القضية بينما قدمت البحرين الدعم المادى والمعنوى بصورة متواصلة منذ البداية وجاء فى تصريح للمهاتما غاندى فى ١٢ نوفمبر ١٩٣٨ قوله : وعلى الرغم من عطفى على اليهود الا اننى لا اغمض عينى الى مقتضيات العدالة . اننى لم اتأثر بمطالبة اليهود بوطن مستقل لهم ان فلسطين للعرب كما ان انجلترا للانجليز وفرنسا للفرنسيين ومن الخطأ ان نضع اليهود كعبء على العرب .

دور الوثائق الهندية والبحرين

لما كانت بومباى احدى المديريات الثلاث لشركة الهند الشرقية فقد حوت سجلات بومباى الوثائق والمراسلات والتقارير والاحصائيات الاقتصادية ثم السياسية لبلدان الخليج العربي بما فيها العراق واصبحت مصدراً مهما لتاريخ هذه المنطقة وذلك لان لمديرية بومباى الاشراف المباشر على جميع الوكالات السياسية والمقيميات

التجارية والممثليات البريطانية التى اوجدتها شركة الهند الشرقية فى منطقة الخليج العربى والعراق والجنوب العربى بالاضافة الى بلاد فارس كما ان مديرية بومباى مسئولة عن رعاية مصالح الحكومة البريطانية علاوة على مسئوليتها الاساسية لرعاية مصالح الشركة (شركة الهنـد الشرقية) والباحث فى ارشيف بومباى يجد سبعة مجلدات فيها معلومات متنوعة عن البحرين وتقع تحت الارقـام التالية :

١٣/٤١ و ٥/٢٩٩ و ١/٣٠٠ و ١/٣٠٧ و ١٤/٤٣١ و ١٢/٤٣٢ و ٦/٤٣٩ [١٤] اما الفترة مابين ١٨٩٩ ـ ١٩٥١ فقد نقلت هذه الارشيفات الى لندن عام ١٩٥٧ فى (دائرة تسجيلات الهند) وحتى عام ١٧٧٨م كان المقيم فى بوشهر يعمل تحت اشراف حكومة بومباى عن طريق الوكيل فى البصره ثم مباشرة تحت حكومة بومباى حتى عام ١٨٧٣م . ثم نقلت السلطة بشأن تسيير امور الخليج الى حكومة الهند فى ينـايـر ١٨٧٣م لان الاتصـالات اللاسلكية جعلت الاتصال السريع بكافة المناطق فى متناول يد الحكومة الهنـدية فـاستغنت عن المكـاتب الخارجية لتنفيذ سياستها وفى يناير ١٩٢١م تم تشكيل قسم لمعالجة شئون الشرق الاوسط تحت اشراف وزارة المستعمـرات ونقلت بعض المسئوليات لحكومة الهند عن الشرق الاوسط من دائرة اختصاصها [١٥] وتطورت العلاقات الاقتصادية بين البلدين الهند والبحرين وهناك جداول تجارية تعود الى ١٨٧٣م وما بعدها وفيها كميات الصادرات من الهند الى البحرين وهي تحتل الصداره بين المواد المستوردة للبحرين بالنسبة للدول الاخرى فقد بلغ مجمـوع ما استوردته البحرين من الهنـد ١,١٦٧,٣٧٥ ربيه وهو يكون اكثر من ثلث الواردات عموما [١٦] .

وكان التجار الهنود فى البحرين يقومون بتصـدير (التمـور) من القطيف الى الهند وقد واجهتهم مصاعب من الدولة العثمانية ١٨٩٣م حين طلب منهم دفع رسوم اضافية بنسبة واحد بالمائة . كما ان الهند من اكبر الاسواق لتجـارة (اللؤلؤ) المصدر من البحرين وذلك لجودته وكان التجار الهنود حريصين على شراء اللؤلؤ باسعار مرتفعه بقدر ٤٠ ـ ٦٠ بالمائة وذلك فى عام ١٨٩٩م نظرا لقيام معرض باريس الذى كان فى نظرهم يرفع الطلب الى حد كبير الا ان توقعاتهم لم تتحقق وخسر معظمهم مبالغ ضخمه كما افلس بعضهم ورغم ان التجار عرفوا بان موسم الصيد فى عام ١٩٠٠م قصير الا انهم تحمسوا لشراء اللؤلؤ مع تراجع الاسعار الى معدل عام ١٨٩٨م فقد انخفض حجم

التجارة الى ٥,٤٠٠,٠٠٠ ربية ويرجع سبب هذا الانخفاض الى التخفيض فى استيراد الأرز من الهند وتصدير اللؤلؤ لها . واخيرا وصل الخبر بان سوق بومباى يطلب كميات من اللآلىء الصغيرة مما رفع السعر لهذا النوع من ٢٠ ـ ٤٠ بالمائة مقارنه بالاسعار المعتادة وهذا التحسن فى سعر اللؤلؤ فى بومباى يوفر لتجار البحرين فرصة استيراد البضائع وتنشيط التجارة خاصة تجارة الأرز . كما زاد الطلب فى البحرين على الملابس القطنيه مما اثار انتباه اصحاب المصانع فى الهند وبريطانية .

وفى عام ١٩٠٠ انخفضت واردات البحرين بقدر ٢,٨٠٠,٠٠٠ ربيه بالمقارنه مع العام السابق ويرجع السبب الى تكديس كميات من الأرز المتبقية من العام السابق من جهة وقلة الاموال المتوفرة لدى الناس من جهة اخرى مما ادى الى اقتراض التجار الهنود لشراء اللؤلؤ وبالتالى ظلت فى اسواق بومباى غير مباعة مما ادى الى ازمة النقود فى البحرين ولم يحصل الغواصون على اجورهم من اصحابهم وبلغت قيمة البضائع المصدرة من الهند للبحرين ثلاثة اخماس مجموع واردات البحرين [١٧] . وكانت تستخدم (الربيات الهندية) و (دولارات ماريا تريزا) فى الصفقات التجارية ويزداد الطلب على دولار ماريا تريزا فى موسم اللؤلؤ من مايو الى سبتمبر فيصل الى ١٥٠ ربيه للدولار الواحد وفقا لحجم استيراد اللؤلؤ من البحرين فاذا قل الطلب على لؤلؤ البحرين انخفض سعر النقود [١٨] . وكانت اجور الشحن تؤخذ بنسبة نصف بالمائة من قيمة البضاعة المشحونة او ١٢,٥ ربيه لكل طن اذا بلغت الشحنه سبعمائة طن سواء على السفن العربية او الهندية والتى تبلغ حمولتها نحو ١٤٥٠ طنا من التمور و ٧٤٠ طنا من القمح الى كراتشى باجرة حوالى عشر ربيات للطن الواحد وبلغت كميات التمور التى تنقل الى الهند بواسطة السفن حوالى ستة الاف طن [١٩] .

واعدت حكومة الهند تقريرا ارسلته الى بريطانية وفيه بحث عن وضع مغاصات اللؤلؤ العربية ومنها مغاصات البحرين [٢٠] واستوطن بعض التجار العرب فى الهند وزاولوا مهنة التجارة مع تجار البحرين خاصة فى تجارة اللؤلؤ والخيول التى تصدرها البحرين الى الهند كما استقر بعض الهنود فى البحرين لمزاولة التجارة وعمل البعض الاخر فى المرافق العامة كالبناء والخدمات واستمرت تجارة اللؤلؤ مع بومباى التى ظلت تعتبر من اكبر مستوردى اللؤلؤ من البحرين حتى تدهورت تجارة اللؤلؤ فى ١٩٣٤ م ١٩٣٥م بسبب ظهور النفط وتوجه

الايدى العاملة الى العمل فى النفط ثم ظهور اللؤلؤ الصناعى اليابانى وقد حرم تجار اللؤلؤ من طبقة المهراجا فى الهند وهم من اكبر عملاء تجارة اللؤلؤ الطبيعى خاصة بعد الاستقلال عام ١٩٤٧م ففقدت اكبر سوق للؤلؤ البحرين فى الهند [٢١] .

الضرائب الجمركية :

حاولت بريطانيا منذ عام ١٩٠١م ادخال ما تسميه بالاصلاحات فى ادارة الجمارك فى البحرين وذلك فى سبيل توطيد سلطة حكومة الهند البريطانية على البحرين وتعيين مدير للجمارك بريطاني او هندى لان مثل هذا التعيين يؤكد للعثمانيين السلطة على البحرين واكد وزير الخارجية البريطانية على ضرورة البت فى الامر سريعا من قبل حكومة الهند ورغم اعتراضات شيخ البحرين حاول المعتمد السياسى اقناعة تحت ستار الاصلاحات فى ادارة الجمارك وقد اكد الكولونيل (كامبل) تلك المحاولة وعرض على الشيخ الاقتراح مع استعداد حكومة الهند لتقديم مساعدة ماليه له ليغير النظام الجمركى ولكنه رفض على اساس ان مستشاريه يعارضون هذا المشروع . واخيرا فقد اتصل بتاجر هندى الجنسية فى مسقط هو (رتنسى بر شوتام) بقصد عقد اتفاقية معه لادارة الجمرك مقابل مبلغ اكبر كان ذلك فى ٢٥ مايو ١٩٠٦ وتم تجديدها حتى يناير ١٩٠٨م على الرغم من ان هذا الترتيب لم ينفع حاكم البحرين [٢٢] واخيرا انتدبت بريطانيا المستربور Bower من قسم الجمارك بالهند لتنظيم جمارك البحرين [٢٣] وكانت تهدف الى الهيمنة على البحرين بغرض سياسة التدخل فى شئونها الداخلية بادخال اكبر عدد ممكن من الموظفين الاجانب كالهنود وغيرهم فى الادارة والمحاكم والجمارك تحت ستار الاصلاحات . ولقد ظلت الشئون الجمركية فى أيدى الهنود وكان يساعدهم ممثل شخصى لحاكم البحرين ولا يكسب شيخ البحرين اكثر من مائة الف ربيه من عائدات الجمرك وهو راض بهذا المبلغ ويعتقد بان سبب قلة الوارد الجمركى يرجع الى الكساد فى التجارة [٢٤] .

وشهدت الاعوام التالية لعام ١٩١١ زيادة ملحوظة فى السكان حيث بلغ عدد سكان البحرين ١١٥ الف نسمة نتيجة لما تتمتع به البحرين من ميزات جغرافية وتجارية وسياسية اذ أقبل التجار الاجانب فى العمل بالبحرين . وكانت الدائرة الجمركية تنقصها الكفاءة ويجرى العمل فيها بصورة عشوائية وبدون نظام . على حد قول الوكيل السياسى فى تقريرة . وفى ١٩١٨م اتجه الوكيل السياسى فى البحرين الى كلكتا ليستشير مدير

المخابرات التجارية حول امكانية استيراد السلع المصنوعة في الهند الى الاسواق البحرينية لأن عامي ١٩١٦ و ١٩١٧ شهدا تدهور التجارة وقلة حصيلة اللؤلؤ فتأثرت البحرين بسبب الحظر الذى فرضته حكومة الهند على تصدير العملة المعدنية الى البحرين وتصدير اللآلىء الى أوربا من الهند وان التجار العرب في الهند الذين يمتلكون كميات كبيرة من الذهب قد اشتروا نصف كمية اللؤلؤ وعقب انتهاء الحرب العالمية الاولى ارتفع الطلب على اللؤلؤ فارتفعت اسعاره بنسبة ٥٠٪ عن العام السابق وغادر قسم من التجار العرب والهنود الى بومباى ومعهم اللؤلؤ بما قيمته ٤٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني كما شحنوا ايضاً ما قيمته ١٦٥,٠٠٠ جنيه من اللؤلؤ . وفي عام ١٩١٩م واجهت التجارة نقصا في الشحنات البحرية وفي النقود مما اثر في توزيع الاجور بين الغواصين . ولم تتحقق الرحلات البحرية الى الهند مما ادى الى خسارة للتجار في البحرين وفي هذا العام توفي (تيرات داس) مدير كمرك البحرين السابق في كراجي بسبب مرض السكر وكان تيرات داس الهندى متعاوناً مع الوكالة البريطانية في منع تهريب الحبوب والمواد الغذائية ونال تقدير الكولونيل (تريفور) وحزن شيخ البحرين على وفاة رجل مخلص ذى كفاءة في عمله (٢٥) .

وفي ١٩٢٠ أنشىء فرع للبنك الشرقي في البحرين وواجه صعوبة كبيرة في البداية بسبب فرض حظر على تصدير الفضة من الهند الا ان حكومة الهند الغت الحظر في اواخر هذا العام فاستقر البنك اثر ذلك حيث اتخذت اجراءات احتياطية في ادخال كميات من الفضة لتزويد الغواصين بها حين الطلب رغم ان تجار اللؤلؤ في البحرين خسروا كثيرا في السنتين التاليتين لنفس السبب وهو الحظر الذى فرضته حكومة الهند على تصدير الفضة من الهند فقد استمرت حكومة البحرين في سياستها بتوزيع كمية الأرز المخصصة لهذا العام وشهد عام ١٩٢٠ زيادة في كمية الأرز المخصصة للبحرين من الهند لكن ادخال نظام المزاد في كراتشي ادى الى ارتفاع اسعاره في البحرين وبموجب هذا النظام لا يجوز لاى تاجر شراء الأرز الا اذا اشترى حق الشراء اولا ويباع حق الشراء بالمزاد العلنى مما ادى الى ارتفاع اسعار الأرز الى ١١ ربيه فى الكيس الواحد ولم يكن اهل البحرين قد رضوا بهذا النظام . واستمرت الصلات التجارية بين التجار الهنود وتجار البحرين على ماهى عليه منذ اكثر من قرن ونصف وكانت نسبة كبيرة من الصادرات والواردات تعود الى الهند وشركة بريطانية وقد عين

قنصل تجاري في البحرين على اثر توصية قدمتها حكومة كلكتا الهندية ومهمة القنصل الاتصال بالبيوت التجارية في انجلترة وتقديم التوصيات للاطراف المعنية وهذه الخطوة تدل على اهمية البحرين المتزايدة كمركز لتوزيع السلع الى جيرانها في الجزيرة العربية واطرافها وقد استخدمت موانيء البحرين لا ستيراد البضائع التى يطلبها تجار الجزيرة العربية وفرضت البحرين رسوما جمركية بواقع ٥٪ على قيمة البضائع المستوردة ووفقا لقرار اصدرته الحكومة الهندية في يونيو ١٩٢٠ خفضت الضريبة الجمركية على بضائع الترانزيت من ٥٪ الى ٢٪ وحددت ضريبة التصدير بواقع ١٠ ربيات لكل رزمه من الجلود وربيتان لسلة التمر . وتقوم شركة هندية بمهام دائرة الجمارك كما يعمل احد افرادها كمدير للجمرك .

وكان الوكيل السياسى في البحرين يرد على الاستفسارات التجارية من تجار انجلتره على ان توجه كافة الاستفسارات في الهند الى مكتب المدير العام للاستخبارات التجارية في كلكتا مباشرة للردود السريعة . وقد ارسل مدير عام الاستخبارات التجارية عينات من السلع الهندية في عام ١٩٢٢م وقد عرضت امام الناس فلم تجد رواجا لعدم التوافق بين المعروضات والقوائم وعدم ذكر اسماء الشركات وسوء تنظيم المعروضات وسجلت واردات البحرين تحسنا في عام ١٩٢٠م في حين سجلت الصادرات الى الهند انخفاضا بسبب نقل المسافرين كميات من اللؤلؤ دون الاعلان عنها لدى دائرة الجمارك (٢٦) ونظرا للحاجه الملحة وبسبب التدهور في المدخول التجارى للبحرين عام ١٩٢١ فقد تم سحب ١٧٠٠٠٠ ربيه لاستثمارها في بومباى (٢٧) .

وقد قام الوكيل السياسى في البحرين ١٩٢٠ بتعيين بعض التجار الهنود لجباية الضرائب من التجار الاخرين وكان معظم الوارد يدخل في جيوب هؤلاء الجباة من الهنود المتعاقدين الملتزمين للضرائب الجمركية فاضطر الشيخ لرفع نسبة الضرائب الجمركية من ٤ ـ ٥٪ (٢٨) دون استشارة الوكيل السياسى مسبقا فاعترض المقيم في بوشهر وهو تاجر من البحرين اسمه (أغا محمد رحيم) الذى لم يكن بريئا من استغلال مكانته وتوالت الخلافات بين الوكيل السياسى والشيخ (٢٩) حتى عين الميجر (ديلى) في يناير ١٩٢١ خلفا (لديكسن) ولم يكن على وئام من الشيخ عيسى بن علي فاثار الاضطرابات الطائفية والعنصرية لغرض فرض مزيد من السيطرة وادخال اكبر عدد ممكن من الموظفين

بسم الله الرحمن الرحيم

المحترم
القرقة

الى جناب الاجل الافخم ناردندس المدير متولي

من عيسى بن علي الخليفة

بعد السؤال لشريف خاطركم ثم بينت كتابنا المؤرخ ٢٤
جماد الاول ١٣٢٨ فبخصوص الاموال الواردة الى البحرين بان يكون تأخذ
عليها رسم القمرق بموجب مائة الروبية خمس ربيات ولا يكون
تأخذ زيادة ولا نقصان فنعرفكم بان يكون رسم القمرق على
موجب قيمة خريد المال ومصاريفه راكب الى المركب والى
صل البحرين ومتى صار عندكم شك على التجار فيكون تفتشون
وتثمنون المال واذا رأيتم احداً عمل الحيلة بالقايد ترخصون
الامر لنا لاجل اجراء ما يلزم عليه وبخصوص قمرق التنباك
فيكون تأخذ عليه على حسب الاصطلاح البندر تتن
العماني اربع ربيات سوى ثمنها مائة روبية ام عشر ربيات
وتتن الاصفهاني من البحرين عليه قرانين عبارة انه ٢ ١/٢
سوى كان ثمن المن اربعة عشر روبية ام ثمان ربيات
وتتن العمايدي من البحرين عليه ثلاث ربيات سوى
كان المن ثمنه ثمانين روبية ام اربعين روبية هذا ما
يلزم بيانه ودمتم سالمين ٩ رمضان ١٣٢٨
١٩١٠م

السواد مطابق الاصل

الاجانب . وفى ديسمبر ١٩٢١ ارسل المقيم البريطانى فى الخليج الكولونيل (تريفور) وفدا من سكان البحرين الى حكومة الهند بعريضه ضد الحاكم واقترح لدى حكومته منح الوكيل السياسى صلاحيات تامه وان يكون من حقه منح الحماية لكل من يلجأ اليه من السكان [٣٠] ولفت الكولونيل (نوكس) انتباه الحكومة الهندية بان تكون ادارة البلاد تحت امرة المعتمد السياسى ويرى (برايور) المعتمد السياسى فى البحرين بان الرجل المناسب لادارة الجمارك من المواطنين هو خريج جامعة بيروت الامريكية على ان يحضر دورة تدريبية فى دائرة الجمارك الهندية [٣١] .

المسح البحرى : اعدت البحرية الهندية وقبلها (مارين بومباى) رسوما وخرائط لمنطقة الخليج فى النصف الاول من القرن التاسع عشر وتم تحويل (مارين بومباى) الاسطول البحرى الهندى فى عام ١٧٩٨م بهدف الحفاظ على الطريق البحرى الى الهند وسمى (البحرية الهندية) فى اول مايو ١٨٣٠م وجهزت بخمسة طرادات لمراقبة الخليج بين ١٨٣٥ ـ ١٨٥٣م وهنا شعرت بضرورة المسح البحرى لمياهه فاهتمت بعمل خرائط دقيقة للخليج العربى واول دليل نشرته شركة الهند الشرقية نتيجة هذا المسح البحرى سمى (الدليل الهندى) [٣٢] كما قام القبطان بروكس فى البحرية الهندية بمسح بحرى لسواحل الخليج العربى فى ١٨٢٥م وكتب تقريرا بعث به الى بومباى واشاد بالمساعدة التى قدمها له حاكم البحرين اثناء عمليات المسح واثنى على كرم ضيافة الشيخ خليفة بن سلمان بن احمد الفاتح الذى كان يرسل التمر واللبن والخبز لفريق المسح البحرى [٣٣] وفى تقرير القبطان بروكس معلومات طريفه عن سكان البحرين ومدنها وتجارتها وزراعتها وصناعة اللؤلؤ وتاريخها وكذا عن سواحل قطر والكويت . ثم بدأت الشركة البريطانية الهندية للملاحة رحلاتها الى البحرين فى عام ١٩٢٤م وتلتها شركة هانسا [٣٤] .

وفى مجال الخطوط الجوية عبر سواحل الخليج العربى فقد تطورت فى عام ١٩٢٨م مما جعل اعادة النظر فى (التنظيم الادارى) فى الخليج امرا لابد منه وفى نفس الوقت شعرت الحكومة الهندية بانه يجب عليها ان تستعيد بعض السلطات التى انتزعت منها فى سنة ١٩٢١ بحجة ان معالجة الشئون العربية يجب ان ينظر اليها من ناحية ردود فعلها بين مسلمى الهند وتم تشكيل لجنة فرعية لتقديم توصياتها واخيرا قررت وزارة الخارجية البريطانية ان تكون (دائرة الهند بلندن) مسئوله عن الخليج

لخبرتها الواسعة فى هذا المجال كان ذلك القرار فى يوليو ١٩٣٣م كما طالبت المقيمين فى الخليج ان يرسلوا صوراً لرسائلهم الموجهه الى دائرة الهند الى كل من حكومة الهند ووزارة المستعمرات ايضا ، وبعد استقلال الهند ١٩٤٧م تقرر ان تعود شئون الخليج العربى الى وزارة الخارجية بلندن مباشرة اعتبارا من ابريل ١٩٤٨م [٣٥] وتم اختيار وتعيين الوكلاء السياسيين فى البحرين من السلك السياسى الهندى من ١٩٠٠ - ١٩٤٧ ومنهم من الهنود بدرجة مساعد المعتمد او المقيم السيد صديق حسن بين ١٩١٩ - ١٩٢٠م وخان بهادر عبدالحى الهاشمى وهو الذى عمل مساعداً للمقيم فى ١٩٣٢م ثم طالبت الهند بعد نيلها الاستقلال بانشاء قنصليه لها فى البحرين فاعترضت الحكومة البريطانية ثم طلبت ان تفتح لها وكالة تجارية فى البحرين ووافق حاكم البحرين على ذلك فى يونيو ١٩٥٠م وفق تقييد من بريطانية حين طلبت موافقة لزيارة ممثل الهند التجارى فى بغداد للبحرين فاشترطت بريطانية ان الممثل التجارى الهندى لن يكون له حرية الاتصال بحاكم البحرين او بافراد حكومته مباشرة ويتم الاتصال عن طريق الوكيل السياسى البريطانى فالغت الحكومة الهندية هذا الاقتراح

وكان القائم بالاعمال فى السفارة الهندية ببغداد يزور البحرين مرة أو مرتين فى كل عام ويهتم بمصالح الرعايا الهنود فى البحرين فقط . وفى ديسمبر ١٩٤٨م اوفدت حكومة الهند (بعثة حسن النيه) لمشاهدة احوال العمال الهنود فى شركة نفط البحرين فوجدت ظروفهم حسنه وزارت شيخ البحرين للسلام عليه فقابلهم شيخ البحرين بحماس وقدم لافراد الوفد الهدايا . وكان يرسل اللؤلؤ الى بومباى لثقبة وتلميعه وفى ١٩٤١ فرضت حكومة الهند حظرا على استيراد اللؤلؤ مما سبب قلقا شديدا فى البحرين الا ان حكومة الهند الغت ذلك الحظر عقب احتجاج اهل البحرين ثم فرضت رسوما على استيراد اللؤلؤ بنسبة ٢٠٪ [٣٦] فاستمر ارسال اللؤلؤ من البحرين الى بومباى لثقبه وتلميعه . أما تأسيس البريد فى البحرين خاصة والمنطقة الخليجية بصورة عامة فهو تأكيد للعمل الاقتصادى والسياسى والعسكرى الذى تميزت به مراحل التغلغل فى المنطقة من قبل وكالات شركة الهند الشرقية ففى ١٨٦٢م اقرت حكومة الهند انشاء خط بواخر للاغراض البريديه بين بومباى والخليج العربى . وكانت دائرة البريد فى البحرين تابعة للنظام الداخلى للبريد العمومى الهندى فى بومباى وقد

عرضت الطوابع الهندية التى تحمل صورة للملكة فيكتوريا واختاما (خالصة الاجرة) منذ عام ١٨٨٢م . واستخدمت ايضا طوابع (الخدمة) الهندية الا انها كانت مخصصة لمراسلات دائرة المعتمد السياسى والموظفين الحكوميين وتم تأسيس مكاتب بريد فى البحرين فى ١٨٨٤م وكان البريد يرسل الى الهند فى كل اسبوعين والى البحرين من الهند فى كل اسبوع (٣٧) .

أما فى القضاء فقد قامت حركة عام ١٩١٩م لمواجهة تطبيق الانظمة والقوانين المدنية والجنائية المعمول بها فى الهند على سكان البحرين وهى التى تضمنت الامر التنفيذى الذى عرف باسم (مجلس البحرين التنفيذى) وكانت الحكومة البريطانية قد حاولت تطبيق القانون منذ صدوره فى عام ١٩١٣ على سكان ساحل الخليج العربى ولكن ظروف الحرب العالمية الاولى أجلت العمل به ، وجدير بالذكر فقد سبق للهنود ان اعترضوا على تطبيق الانظمة الانجليزية فى بلادهم شأن اهل البحرين . وقد جاء فى هذا القانون : انه يطبق على سكان البحرين اى قانون يتم تشريعة فى المستقبل من قبل الحاكم العام او حاكم بومباى وفقا للوائح الملكية ويمكن تطبيق اى قانون فى البحرين قد يتم تشريعة فى الهند ولو قبل تنفيذ هذا القانون . وان (القانون الجنائى) السارى المفعول فى الهند يطبق على البحرين ويرأس المقيم محكمة التمييز فى البحرين ويتمتع الوكيل السياسى بصلاحيات قاضى الولاية وله الحق فى اعادة حكم القاضى ولن يكون لحكم القاضى اى تأثير الا اذا صادق عليه الوكيل السياسى . ويحق للمقيم النفى للهند ويرسل تقريرا عن المنفى للحاكم الهندى . كما يطبق فى البحرين (القانون التجارى) السارى المفعول فى الهند ويطبق (القانون المدنى) السارى فى الهند على البحرينيين وكأن البحرين جزء من ولاية بومباى . ويكون للوكيل السياسى صلاحيات قاضى الولاية هذا كله ورد فى قانون ما يسمى (مجلس البحرين التنفيذى) وعلى اثر ذلك فقد رفض سكان البحرين تطبيق هذه القوانين لمنافاتها للاعراف والعادات والقيم الاجتماعية واجتمع اثنا عشر شخصا بشيخ البحرين وطلبوا منه ان يضع حدا لتطبيق هذه الانظمة الدخيله فى شئون القضاء وان ينشىء مجلسا يضم ذوى الرأى ويخول لهم حق انتخاب القضاة الشرعيين ورؤساء الدوائر وعزل الاجانب فاجابهم شيخ البحرين بينما ابى المعتمد السياسى ومن هنا بدأت وسائل المقيم (الميجر ديلى) لا حباط خطط الوطنيين وشيخ البحرين فما كان منهم الا ان عقدوا

مؤتمرا وطنيا واتخذوا قرارات لم ترض المعتمد وعلى اثرها اعتقل بعض الوطنيين ونفاهم المقيم السياسى الى الهند [٣٨] .

وكانت الخصومات التى تقع بين البحرينيين من جهة والاجانب من جهة اخرى تحال الى جلسة مشتركة بين شيخ البحرين والوكيل السياسى وينفذ فيها القانون الجنائى والمدنى الهندى المطبق فى البحرين باسم (مجلس البحرين التنفيذى) . اما القضايا التجارية بين البحرينيين والاجانب فتعالج بمجلس عرفى [٣٩] .

ولما كان هذا القانون يجيز للمقيم النفى الى الهند وان يرسل تقريرا عن المنفى للحاكم الهندى فقد كان ذلك القانون فى عام ١٩١٣هـ ولكن الهند كانت مكانا لنفى السياسيين قبل ذلك من قبل الوكالة البريطانية فى البحرين فقد شهد عام ١٨٦٩م اضطرابات فى البحرين ادت الى القبض على حاكمى البحرين الشيخ محمد بن خليفة والشيخ محمد بن عبدالله من قبل (الكولونيل بيلى) ونفيا الى الهند على متن سفينة (دفنى) يرافقهما (الكابتن دوجلاس) الى بومباى ثم الى سجن جنار فى قلعة (اسيرجره) فى ١٧ مارس ١٨٧١م وكان معهما تسعة من المرافقين والخدم وقد توفى الشيخ محمد بن عبدالله فى سجن (جنار) بالهند فى ٢٠ ديسمبر ١٨٧٧م وكتب (الرائد انجيلو) مدير السجن الى وزارة خارجية حكومة الهند بكلكتا رسالة جاء فيها : ان ظروف الوفاة كانت طبيعية وقد اخترت له موقعا مناسبا لقبرة وهو فى صومعة الشيخ قاسم سليمانى بجانب ضريح لا حدى الاميرات من سلالة المغول السلالة التى حكمت دلهى وان هذا الموقع يكون متمشيا مع مكانة الفقيد وملائم لبناء نصب تذكارى له باعتباره احد الامراء العرب المسجونين ولا ادرى كم يتكلف هذا النصب لكن التكاليف قد لا تتجاوز المعاش الذى كان الفقيد يتقاضاه والمصرح له لبقية السنة المالية وهى تكفى للنحات الذى قام بتبليط قبرة اما نفقات الجنازة فقد صرفت فعلا وتبلغ تسعين ربيه [٤٠] .

والمعروف ان الشيخ محمد بن عبدالله تولى الحكم لثلاثة اشهر فى وقت اضطربت فيه الاحوال بالبحرين اما الشيخ محمد بن خليفة فقد اعتقله الكولونيل بيلي وبدون محاكمة ارسله الى الهند ووضعه فى السجن وقدم ابنه طلبا الى نائب الملك فى الهند لاطلاق سراح والده ولكن نائب الملك لم يستجب للطلب وسافر على بن محمد بن خليفة الى بومباى وقدم طلبا اخر الى سكرتير الملك فى الهند بعد سبع سنوات قضاها والده فى الاسر بقلعة اسير غره [٤١] وبقى الاسرى منذ يونيو ١٨٧٠ ثم صدر الامر بنقل

الشيخ محمد بن خليفة الى عدن بتوصية من حاكم بومباى فى الرابع من ديسمبر ١٨٧٨م وفى شهر فبراير من عام ١٨٧٩م اطلق سراح علي بن ناصر بن مبارك فى عدن وهو ممن قبض عليهم سابقا وتم ترحيلهم الى الهند عام ١٨٧٠م واقترح المقيم فى عدن الافراج عن الشيخ محمد بن خليفة ولكن بتوسط من الدولة العثمانية افرج عنه على ان يعيش بمكة المكرمة وكان ذلك فى عام ١٣٠٤هـ وبقى فيها حتى توفى هناك بعد ثلاث سنوات [٤٢] وجاء فى تقرير عام ١٩٠٤م ان حكومة الهند طالبت حاكم البحرين تسفير اربعة اشخاص الى الهند لاعتدائهم على عامل يعمل فى شركة المانية بالبحرين على حد زعم المقيم فى البحرين وقد تم تسفيرهم على متن السفينة (سفينكس) فى ٣١ يوليو ١٩٠٥م حيث بقى احدهم فى بومباى ثلاث سنوات . وارسل الآخرون الى ولاية السند لمدة ستة شهور وكان شيخ البحرين يرسل مخصصات سكن للمنفيين لان حكومة الهند رفضت دفع المخصصات [٤٣] .

كما قررت حكومة الهند نفى احد البحرينيين الى (احمد نفر) بالقرب من بومباى فاسكن فى فندق حين وصوله ومعه اخران اما الخادمان اللذان معه فقد ارسلا الى سجن كراجى كما حجز على خادم اخر فى سجن كراجى لمدة ثلاث سنوات [٤٤] كل ذلك تم بامر من (الرائد ديلى) الوكيل السياسى فى البحرين وكان يخاطب رئيس قسم الشرطة فى بومباى تنفيذا للامر الصادر من الحكومة الهندية [٤٥] وقد كان شيخ البحرين يدفع علاوة شهرية الى هؤلاء المسجونين . ووافقت حكومة الهند ايضا على ترحيل الشيخ عبدالوهاب الزيانى الى الهند وبقى فيها حتى توفى هناك [٤٦] وقد قدم طلبا الى المحكمة العليا فى بومباى لمعرفة الصيغة القانونية التى بموجبها تم نقله الى الهند ووضعه تحت الرقابة وتقييد حرية حركته فى بومباى . وبخصوص الاحكام الصادرة بحق البحرينيين الذى اودعواسجون الهند ليست قانونية . وطلب محمد علي جناح ممثل شركة المحاماة (باش شنكر كانجا وجردرلال) والتى عينها شيخ البحرين فى بومباى طلب من الحاكم العام فى الهند ونائب الملك اللورد ريدنج تفسيرا لذلك واعترض على تصرفات الميجر ديلى ورفضت حكومة الهند اعادة النظر فى القضايا التى اثارها الميجر ديلى فى البحرين والتى كانت السبب فى ايجاد الفتن والاضطرابات وبالتالى نفي بعض المواطنين للهند . وطالبت المحاماة بانه ليس للمقيم او المعتمد السياسى الحق فى ان يجعل من الهند مكانا لنفى او

ابعاد احد من البحرين او من اى مكان آخر (٤٧) .

العلاقات في مجال الشرطة :

لقد عرفت البحرين منذ القديم والى وقت قريب باعتمادها بالدرجة الاولى على الغوص وصيد اللؤلؤ وكان اكثر المواطنين يعملون فى هذه المهنة تاركين أمر الامن والشرطة الى (افداوية) شيخ البحرين وهؤلاء الفداوية يأتمرون بأمره . وشهدت السنوات الاولى لتولى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة الحكم الامن والازدهار فلم تحدث اى شكاوى من الرعايا عموما ولم يرد فى التقارير اية اجراءات امنية ذات اهمية (٤٨) . ويظهر ان هناك حرساً يعملون مع فداويه الشيخ وجلهم من البلوش والهنود واول ذكر للحرس الهندى فى البحرين كان عام ١٩٠٧م اذ وصل ٢٦ جندى من وحدة مشاة هندية لتحل محل حرس مماثل بالتناوب ووصل حرس جديد من الهند ايضا فى اكتوبر ١٩٠٨ ليقوم بدوره هناك (٤٩) وجدير بالذكر فقد زودت حكومة الهند شيخ البحرين بست قطع من مدافع عيار ٩ رطل من اجل استخدامها للتحية فى المراسم الرسمية وذلك فى عام ١٩١٨م وكان القائمون عليها من الهنود (٥٠) .

وفى عام ١٩٢٦م خصصت الحكومة للشرطة مهام خاصة وكانوا تابعين للبلدية ودفعت لهم رواتب وجلهم من البلوش الذين كانوا من رعايا الهند قبل التقسيم (اى قبل تقسيم الهند والباكستان) وكان استخدام البلوش تقليدا قديما لدى شيوخ البحرين كحرس لهم ولا يزال يسكن أخلافهم البحرين الى الان ويحدثنا التاريخ ان (الميجر ديلى) اهان احد الحراس من البلوش فاطلق على ديلى النار وجرحه فقتل البلوشى وعاد (ديلى) الى بلاده على اثر هذه الحادثة وسرحت الفصيلة وابدلت بشرطة من البنجاب المتقاعدين فى الجيش الهندى والتى استمرت حتى عام ١٩٣٢م (٥١) وبدأ الاهتمام بالاعتماد على العناصر الوطنية فى الشرطة فارسلت حاجى سلمان الى الهند للتدريب على الاجراءات القضائية وكسب خبرة عملية هناك (٥٢) وهكذا انهيت خدمة ٤٤ من افراد الشرطة الهندية وحل محلهم افراد محليون (٥٣) لانهم فشلوا فى تعلم اللغة المحلية ولم يرض المواطنون عن تواجدهم وبدأت محاولات تعبئة شرطة من السكان المحليين ولكن المقيم اقترح لاسباب تتعلق بالامن ان يكون ثلث القوة من الهنود (٥٤) . ونتيجة للتدريب الجيد فقد اكتسبت قوة الشرطة من السكان المحليين كفاءة جيدة ولياقة ممتازه واصبح عددهم ١٢٢ جنديا واتخذت الدولة وسيلة تدريب المتطوعين من الشرطة المحليين

فى كراتشى ثم جلبت عددا من المدربين لهذه الكتيبة وعقدت دورة تدريب على استخدام العصا على يد معلم هندى من (كراتشى) وقد تخرج من هذه الدورة عشرون شخصا وكانت قوة الشرطة تشمل علاوة على هؤلاء المدربين عددا قليلا مما يشبه (الفداوية) وكان رئيس الشرطة من اهل البحرين يدعى الحاج سلمان بن جاسم الذى توفى ١٩٣٥م . واستخدم قائد فرقة موسيقية متقاعد من الجيش الهندى لتدريب الموسيقيين فى البحرين وفى عام ١٩٣٧م عاد من الهند اثنا عشر عضوا من ضباط الصف من شرطة البحرين بعد ان تلقوا تدريباتهم فى كراتشي وفى ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩ عاد (الشيخ خليفة بن محمد آل خليفة) من الهند بعد ان تلقى التدريب فى مدرسة تدريب الشرطة فى (ناسك) بالقرب من بومباى وعين مشرفا على شرطة البحرين ثم ارسل الرقيب عبدالكريم ابن المشرف السابق الحاج سليمان الى (ناسك) للتدريب وعين مساعدا للمفتش فى وقت لاحق .

العلاقات فى المجال الصحى :

لقد ساهم الهنود فى المجالات الصحية للعمل كاطباء او ممرضيين وممرضات كما قام بعض الاطباء الهنود بممارسة الطب اليونانى الشعبى القديم مع وجود المستشفيات الحديثة ففى عام ١٩٣١م عينت قابلة هندية مدربه فى مستشفى الولادة بمدينة المحرق واخرى فى المنامة فى ١٩٣٢م وعين الطبيب (لاكره) طبيبا فى مستشفى الخميس . وكلف الرائد (افريدى) فى ١٩٣٧م وهو من سلك الخدمات الطبية الهندية ومعهد الملاريا بدلهى كلف بالقيام بمسح عام لمرض الملاريا فى البحرين وجاء فى تقريره : ان نسبة الاصابة بالملاريا فى هذا العام ٢٠٪ وان مصادر توالد البعوض كالمستنقعات والعيون والابار تحتاج لمكافحة برش النفط وتنظيف المجارى ثم وصل ثلاثة من المعنيين بمكافحة الملاريا من الهند . وفى عام ١٩٤٠ تعاقدت الحكومة مع ثلاث ممرضات لمستشفى الولادة وفى العام التالى قدمت سبع عشرة ممرضة هندية مدربة واربعة اطباء هنود منهم الدكتور (باترجى) والدكتور محسن وبعد الحرب تولى الدكتور (نامبيار) الاشراف على مكافحة الملاريا واحيل الدكتور (باندركار) الذى خدم فى البحرين ثلاثين سنة من ١٩٢٥ ويصف باندركار المستشفى العائم وهو مركب ابيض يخرج مع سفن الغوص ومجهز باللوازم الطبية والادوية وتدوم السفرة نحو ستة اسابيع فى كل موسم ويستطرد الدكتور بندركار بقوله : ولقد زرت المغاصات والجرز الواقعة حول

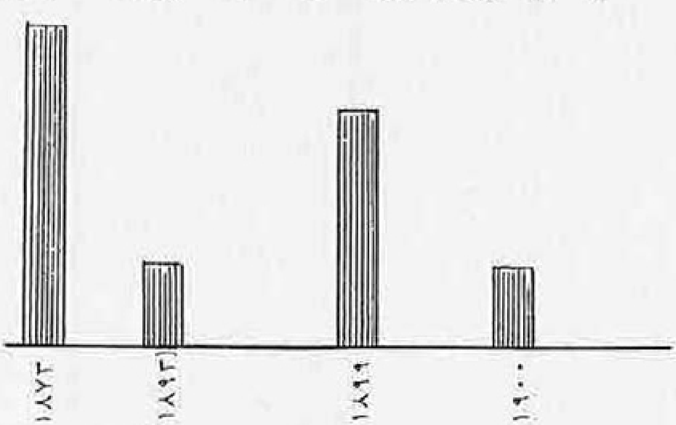
البحرين بما فيها (حوار وبوسواد وفشت الديبل وخور فشت) وغيرها تلك التى تلجأ لها سفينتنا وسفن الغوص البحرينية اثناء العواصف او للحصول على الماء العذب وكانت تعمل فى الغوص نحو سبعمائة سفينه بحـرينية . وهكـذا كتب الدكتـور بندركار تقريرا ممتعا لرحلاته مع سفن الغوص بسفينته الحكومية لعلاج المصابين والمرضى فى اثناء موسم الغوص ولمدة نحو ثلاثين سنة من عام ١٩٢٥م (٥٥) وفى مجال الطباعة كانت تجربة البحرين قد بدأت منذ عام ١٩١٣م حين استقدمت مطبعة حجرية الى البحرين وكانت تطبـع فيها الكـراسات الـدينيـة والسجلات التجاريـة . ثم جلبت مطبعة حجرية عام ١٩٣٢ وقد طبع فيها جريدة (البحرين) للاستاذ عبدالله الزايد (٥٦) . ولعل تلك المطابع الحجرية مستوردة من الهند . وكانت البحرين ترسل ما تحتاج لطبعه من مطبوعات رسمية وغير رسمية الى المطابع الحجرية فى الهند . وقد وجدت فى البحرين نسخ مزخرفة من الكتب الدينية المطبوعة فى مطابع هندية .

د. علي ابا حسين
مدير مركز الوثائق التاريخية
بالبحرين

تاريخ تطور العلاقات الاقتصادية بين الهند والبحرين

السنة

- (١٨٧٣) زادت صادرات الهند للبحرين فاحتلت اكثر من ثلث وارداتها .
- (١٨٩٣) انخفضت صادرات البحرين للهند بسبب فرض ضريبة عثمانية بنسبة ١٪ على التمور التى يصدرها تجار البحرين من القطيف الى الهند .
- (١٨٩٩) ارتفع سعر اللؤلؤ فى اسواق بومباى فزاد تصديره الى الهند ومنها قام التجار الهنود بتصديره الى معرض باريس لكنهم خسروا نتيجة الخطأ فى توقعاتهم .
- (١٩٠٠) قل تصدير اللؤلؤ للهند لانخفاض سعره فى بومباى فاصبحت ازمة نقود فى البحرين فلم يحصل الغواصون على اجورهم . وانخفضت واردات البحرين بسبب انخفاض استيراد الأرز من الهند الذى تكدس لدى تجار البحرين من العام الماضى فانخفض سعر النقود (الروبية ودولار ماريا تريزا) لقلة الطلب على اللؤلؤ وتكون صادرات الهند ٢٪ واردات البحرين .



● (١٩٠١) حدثت محاولة لاصلاح نظام الجمارك بغية توطيد سلطة حكومة الهند البريطانية بتعيين مدير جمارك هندى وبريطانى رغم اعتراض شيخ البحرين على ذلك .

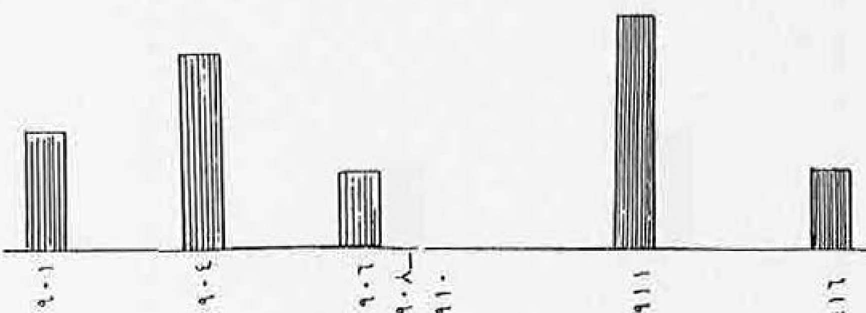
● (١٩٠٤) استقر بعض تجار العرب في الهند لمزاولة مهنة تجارة اللؤلؤ والخيول العربية المصدرة من البحرين كما استقر بعض الهنود بالبحرين .

● (١٩٠٦ ـ ١٩٠٨) عقد شيخ البحرين اتفاقية مع مدير للجمارك هندى اسمه (رتنسي برشوتام) من ١٩٠٦ الى ١٩٠٨م . ثم انتدبت بريطانيا المستر (بور) من الهند مديرا للجمارك ، لفرض سيطرتها والتدخل في الشئون الداخلية . فكسدت التجارة لاسباب منها تلاعب موظفى الجمارك الهنود وتهريب اللؤلؤ فقل الوارد الجمركى .

● (١٩١٠) تم اختيار وتعيين الوكلاء السياسيين في البحرين من السلك الهندى من ١٩٠٠ ـ ١٩٤٧ ومنهم من الهنود السيد صديق حسن مساعد المقيم في ١٩١٩ و ١٩٢٠ وخان بهادر عبدالحي الهاشمى مساعد المقيم في ١٩٣٣م .

● (١٩١١) بلغ سكان البحرين ١١٥ الف نسمة بسبب تمتع البحرين بميزات جغرافية وتجارية وسياسية واقبال التجار الاجانب للعمل في البحرين الا ان الادارة الجمركية ينقصها الكفاءة والنظام .

● (١٩١٦م) تدهورت التجارة (١) لقلة محصول اللؤلؤ (٢) وللحظر الذى فرضته الهند على تصدير العملة . (٣) وقيام التجار الهنود والعرب بشراء اللؤلؤ وتهريبه الى الهند ثم تصديره الى اوربا بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى فارتفع سعره الى ٥٠٪ .



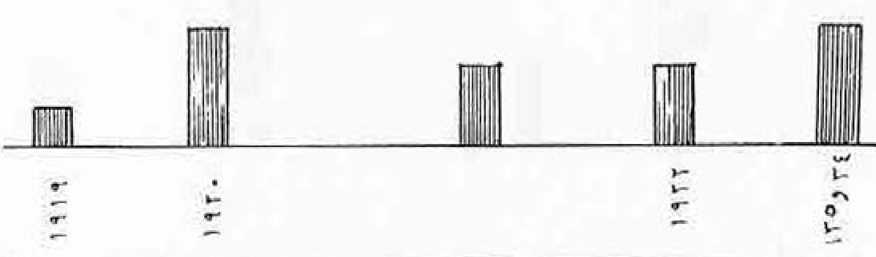
● (١٩١٩م) قلت واردات البحرين من الهند بسبب تهريب اللؤلؤ وتم سحب ١٧،٠٠٠ روبية من البحرين لاستثمارها فى بومباى وكان الوارد الجمركى يدخل جيوب الهنود الجباة فى الجمارك .

● (١٩٢٠م) انشىء فرع للبنك الشرقى بالبحرين فواجه صعوبة بسبب فرض حظر على تصدير الفضه من الهند الا ان الهند الغت الحظر فاستقر البنك حيث جمع كميات كبيرة من الفضة لتزويد الغواصين بها حين الطلب وقد زادت كميات الأرز المستورد من الهند ولكن نظام المزاد فى كراجى ادى لارتفاع اسعاره بالبحرين لانه يتوجب شراء حق الشراء بالمزاد مما يكلف كثيرا . وفرضت البحرين ضريبة ترانزيت جمركية ٥٪ ثم ٢٪ .

● عين قنصل تجاري فى البحرين بتوصية من حكومة كلكتا . واجهت البحرين نقصا فى الشحنات البحرية ونقصا فى النقود فقل دفع الاجور للغواصين . توفى مدير الجمرك الهندى (تيرات داس) وكان مخلصا كفئا بمكافحة التهريب .

● (١٩٢٢م) اقيم معرض للسلع الهندية فى البحرين بعد ان ارسل مدير عام الاستخبارات التجارية عينات من السلع الهندية لكنها لم تجد رواجا لعدم التنظيم والتوافق بين المعروضات مع القوائم وعدم ذكر اسماء الشركات .

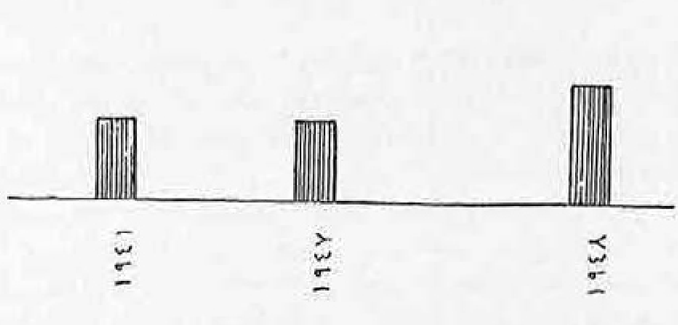
● (١٩٣٤و١٩٣٥م) تدهورت تجارة اللؤلؤ فى البحرين بسبب ظهور النفط وتحول عمال الغوص الى العمل فى النفط وظهور اللؤلؤ اليابانى الصناعي وزوال طبقة المهراجا المستوردة للؤلؤ .



● (١٩٤١م) فرضت الهند حظرا على استيراد اللؤلؤ الذى يرسله التجار لثقبة وتلميعه مما سبب قلقا لهم فألغت الحظر وفرضت رسوما على اللؤلؤ بنسبة ٢٠٪ .

● (١٩٤٧م) تقرر ان تعود شئون الخليج الى وزارة الخارجية بلندن مباشرة اعتبارا من ابريل ١٩٤٨ وطلبت الهند انشاء قنصلية لها فى البحرين فاعترضت بريطانية ثم طلبت فتح وكالة بدلا من القنصلية فوافق حاكم البحرين فى ١٩٥٠م ولكن قيدت بريطانية تلك الموافقة فالغت الهند اقتراحها واكتفت بزيارة القائم بالسفارة الهندية ببغداد الى البحرين مرة او مرتين فى كل عام للاهتمام بمصالح الرعايا الهنود فقط .

● (١٩٤٨م) أوفدت حكومة الهند (بعثة حسن النيه) لمشاهدة احوال العمال الهنود العاملين فى النفط ووجدوا ظروفهم حسنه وزاروا شيخ البحرين فرحب بهم واكرمهم وقدم لهم الهدايا .



الهوامش

(١) موريزيو توسى . الثقافات البحرية المبكرة فى الخليج العربى والمحيط الهندى . ص ٣ و ٩ .

(٢) اس . ار . راو . العلاقات التجارية والثقافية بين البحرين والهند فى الالفين الثالث والثانى ق . م ص ٣،١ . و/د . محمد حرب . العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربى وشبه القارة الهندية حتى الالف الاول ق .م ص ١ - ٨ والدكتور معاوية ابراهيم تنقيبات البعثه العربية فى (سار) بالبحرين ص . ٢٢٣ والدكتور رشيد الناضورى دور الحضارة فى فجر التاريخ (العصر الاكدى) ١٤٧/ص ٦ و (مجان) او (مكان) هى عمان . ويوجد اليوم موضع يطلق عليه (مجان) فى ساحل الباطنه قرب (شناص) بارض عمان . وهناك موضع اخر يدعى (الوجن) فى الامارات العربية المتحدة ويبعد عن (العين) بنحو سبعين كيلومتراً باتجاه الربع الخالى .

(٣) راو . ن . م . س . ص ٣ وانظر د . محمد حرب . ن . م . س . ص ٨،٧ ود . فيصل عبدالله . الخليج العربى ووادى الهندوس فى الادبيات والحوليات المسمارية ص ٢ - ٥ .

(٤) جيه . بى . جوشى . الهند والبحرين ص ٥،٣ ود . سامى الاحمد : تاريخ الخليج العربى ص ٢٣ - ٢٦ .

(٥) د . محمد حرب . ن . م . س . ص ١٠ وانظر د . سامى الاحمد ن . م . س . ص ٢٣و٢٦ .

(٦) البلاذرى . فتوح البلدان ص ٤٢٠ وانظر د . ابراهيم القادرى . قراءة نقدية فى مظاهر العلاقات التاريخية بين الخليج العربى وشبه القارة الهندية ص ١١ - ١٥ . وابن سعيد كتاب الجغرافيا ص ٤١ والمسعودى مروج الذهب جـ ١/ص ٢١٠و٢١٣ . والمباركوى . رجال السند والهند فى القرن السابع ص ٢٩٥/ د . الشيخلى . تاريخ الاسلام فى افريقيه وشرقى اسيا . ج .٢ ص .١٦١ و١٧٥ . /د . عبدالعزيز المنقادى . تاريخ ظهور الاسلام فى ساحل مليبار ص . ٧ صلاح الدين احمد الاتصالات المبكره بين العرب وبنكلادش ص ٥ . ود . صادق نقوى . العلاقات الهندية العربية بعد ظهور

الاسلام ص ٧ . ومن اعجاب العرب بالهند فقد اطلقوا على بناتهم اسم (هند) ومنهن (هند بنت الحرث الكندى) عمة امرؤ القيس الشاعر المعروف ووالدة (عمرو بن المنذر الكندى) ملك العرب في الحيرة قبل الاسلام والمعروف (بعمرو بن هند) . ثم هند بنت سهل المخزومية احدى زوجات الرسول (ص) اما هند بن ابى هالة فهو ربيب رسول الله (ص) وامه ام المؤمنين خديجه بنت خويلد رضى الله عنها .

(٧) كارسول . التجارة القديمة في المحيط الهندى ص ٢٠١ . واحمد حسن دانى . البحرين وحضارة الاندس ص ١ .

(٨) وليام سي برايس . الاساليب الفنية البحرية التقليدية في بحار البحرين الوثيقة ٩/١٩٠/١٩١/١٩٨ وانظر ص ١١٠ من مخطوطه بعنوان اخبار الصين والهند لسليمان التاجر . ومخطوطه الفوائد في اصول علم البحر والقواعد لاحمد بن ماجد (صور المخطوطتين في مركز الوثائق التاريخية بالبحرين) .

(٩) حسن صالح شهاب . الاهتداء بالنجوم في ظلمات البحر . الوثيقة ١٤/٧٠/٧٤/٧٥ وانظر وليم بريك اساليب بحريه فنيه تقليدية والتجارة القديمة في المحيط الهندى . /١٦٩ ص ١٥،٥ . والدكتور انور عبدالعليم . الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ٢٩و٣٠ .

(١٠) جون كارسول . البحرين والخليج والاتصالات التجارية بجنوب الهند والشرق الاقصى ص ٣،٢ . وكايال : ميناء في اقصى جنوب الهند/ وانظر : رونالد لوكوك . عمارة البحرين التقليديه . ص ١٠١/١٤ وابوظفر الندوى . اسطول كجرات مجلة ثقافة الهند م ١٦ العدد ٤ ص ١٩٦٥/٩٥م/ والدكتور مقبول احمد . العلاقات التجارية بين الهند والعرب . مجلة ثقافة الهند م ١٧/ ص ٤٣ العدد الاول ١٩٦٥م .

(١١) توسون تسجيلات المعتمديات البريطانية في الخليج ص ١٣ . و د . عبدالامير محمد امين والدكتور النجار . دور السجلات الهندية . ص١١ و١٢ ، طبع ١٩٧٨ م .

(١٢) دور السجلات الهندية ص ١٥و١٧ .

(١٣) تشالز بلكريف . العمود الشخصى ص ٢٢٣ ، ١٩٥٥م .

(١٤) دور السجلات الهندية ص ١٥ و ١٧ و ٤١، ٤٢

(١٥) توسون ، المقدمة ١ و٥

(١٦) التقارير الادارية الخليجية لسنة ١٨٧٣/١٨٧٤م جدول (او)

(١٧) التقرير التجارى لعام ١٩٠٠م

(١٨) تقرير عن تجارة البحرين لعام ١٩٠١م

(١٩) جاكسين . التقرير التجارى لعام ١٩٠١م
(٢٠) لوريمر . ص ٢٢٤٨ بتاريخ ٨ مارس ١٩٠٤م .
(٢١) الخليج العربي . ص ٢٢٣
(٢٢) سالدنها . ملخص احداث البحرين . ص ١٤١ . و ١٤٢ في ٦ مايو ١٩٠١م - ١٩٠٤م التقرير التجاري لعام ١٩٠٦ .
(٢٣) الخليج العربي . ص ٢١٤ .
(٢٤) التقرير التجارى لعام ١٩٠٧/١٩٠٨م .
(٢٥) تقرير كتبه الكابتن (براى) الوكيل السياسى في البحرين عام ١٩١٨ و ١٩١٩ .
(٢٦) التقرير التجارى لدول الخليج/ البحرين مجلد ٢ عام ١٩٢٠ عن الوكيل السياسى في البحرين الرائد ديكسن .
(٢٧) التقرير السنوى لعام ١٩٣١م - ص ٢١١ .
(٢٨) مرفق اعلان من الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين مؤرخ في ٩ رمضان ١٣٢٨هـ يأمر بان رسم الكمرك لا يزيد على ٥٪ .
(٢٩) لوريمر . جـ ١/ص ٥٦٤ و جـ ٣/١٣٩٨ .
(٣٠) جمال زكريا قاسم الخليج العربى ص ٢٠٨ .
(٣١) ال بى اس /١٨/ بى ٤٢٠/ بى ٦٢٥٨/١٩٢٩م/ والتقرير السنوى لعام ١٩٣٠/٣١/ص ٢١١ .
(٣٢) الوثيقة العدد ٥/ ص ٢٣ (توسون) .
(٣٣) بروكس . المسح البحرى لعام ١٨٣٢/ الوثيقة ص ٢٣و٣٥
(٣٤) التقرير السنوى لعام ١٩٣٠/ ص ١٦
(٣٥) توسن ص ٥، ٦
(٣٦) ملخص الاحداث التاريخية مجلد ٣ ص ٢٤١/ منشورات الارشيف بلندن عام ١٩٨٧م .
(٣٧) الوثيقة العدد ٦/ ص ١٩٢و١٩٣/ والتقرير السنوى العام ٨١و٨٢و١٨٨٣م .
(٣٨) د . جمال زكريا قاسم . الخليج العربي . ص ٢٠٣ ود . امل الزياني ص ١١٧ و ١٢٠ . والريحاني ٢/٨٣ و ٩٠/ار/ ١٥/ الوكالة السياسية في البحرين/ اى/او/ ار - ال/بى/ اس/ ١٠/٢٤٨ في ١٢ اغسطس ١٩١٣م
(٣٩) سى/ او/ ١٩٣٢/٧/٧٢٧ في ١٠ نوفمبر ١٩٣٢ والخليج العربى ٢١٩ والتقرير الادارى الخليجى لعام ١٩١٩م/ ١٧ .
(٤٠) ٢٤ ب ر/٤/٤٥ من الرائد انجيلو قائد سجن شونار الى خارجية الهند بكلكتا بتاريخ ٢١/ ديسمبر ١٩٧٧م . وانظر رسالة رقم ١١٤ حول التكاليف مورخة في ٥ ديسمبر ١٨٧٨ .

(٤١) ٢٤ ب ر ـ ٢ / مايو ١٨٧٧م / و ٧ يوليو ١٨٧٧م .

(٤٢) التقرير السنوى لعام ٧٩ و٨٤و٨٦و١٨٨٨م .

(٤٣) التقرير السنوى لعام ١٩٠٤ و ١٩٠٦ و ١٩٠٧م .

(٤٤) ال بى / اس / ١٠ / ١٠٣٩ فى ٢٣ اكتوبر ١٩٢٣م .

(٤٥) ال بى اس / ١٠ / ١٠٣٩ فى ٢٩ اكتوبر ١٩٢٣م وبرقيه رقم ١٠٤٣ فى ١٨ نوفمبر ١٩٢٣م .

(٤٦) مولى ازارد . كتاب الخليج . ص ٥٩ .

(٤٧) اف او / ٣٧١ / ٨٩٤٢ فى ٤ نوفمبر ١٩٢٣ / ال بى اس / ١٠ / ١٠٣٩ ٩ ـ ب ر / ١ / ال بى اس / ١٠ ١٠٤٢ ص ٣٠٣ فى ١٣ / ٢ / ١٩٢٤ واف / او / ار / ٣٧١ / ١٠٠٤ / ٩ ب ر ـ ١ / ال بى اس / ١٠ / ١٠٤٢ ص ٢٧٤ فى ٥ / ١٠ / ١٩٢٤ وص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ فى ٣٠ / ٣ / ١٩٢٥م / ص ١٩٤ ـ ١٩٥ فى ١٨ / ٢ / ١٩٢٤م وص ٣٧٨ فى ١٠ / ٢ / ١٩٢٦م / وص ٤٤٦ فى ١٦ / ٥ / ١٩٢٨م .

(٤٨) التقرير السنوى لعامى ١٨٧٥و١٨٧٧م

(٤٩) التقرير السنوى لعام ١٩٠٧م ١٩٠٨ .

(٥٠) التقرير الادارى للخليج عام ١٩١٨م .

(٥١) التقرير السنوى ١٩١٤م . البحرين حضارة وتاريخ ص ٢٢٣ .

(٥٢) ال / بى / اس / ١٢ / ٣١٥١ فى ٢٣ سبتمبر ١٩٢٩ .

(٥٣) تقرير عام ١٩٣١م .

(٥٤) اف / او / ٣٧١ / ١٦٠٠٤ من مساعد المقيم الى سكرتير حكومة الهند فى ٩ مارس ١٩٣٢م / وانظر الخليج العربى / ص ٢١٤ .

(٥٥) انظر المحاضرة التى القاها الدكتور بندركار فى الجمعية الهندية فى البحرين فى نوفمبر ١٩٥٥ بمناسبة تقاعده . ونشرت فى مجلة الوثيقة العدد ١٣ / ص ٢١٥ .

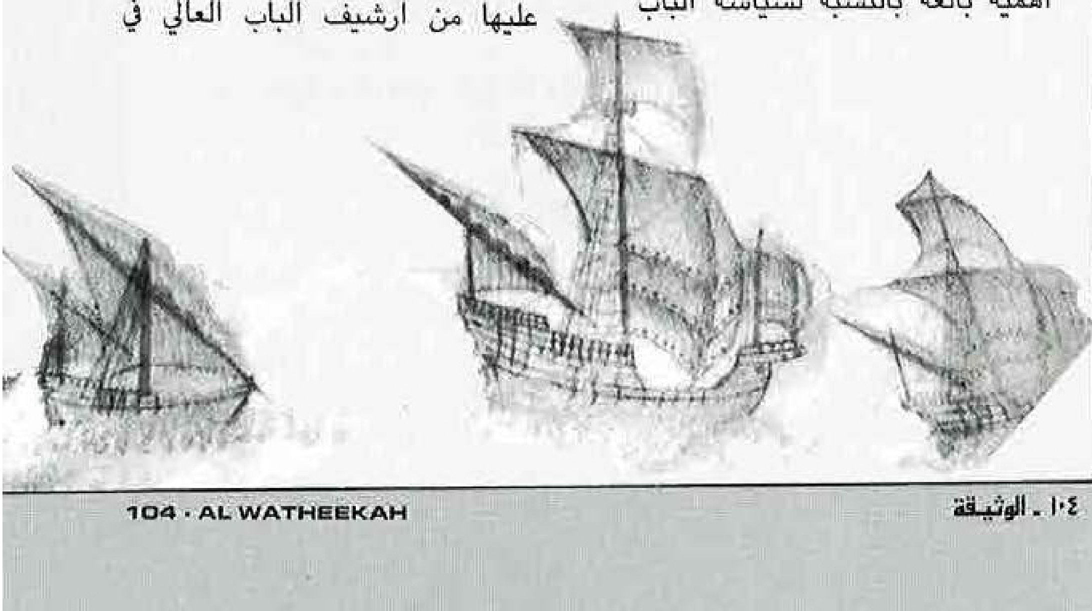
(٥٦) التحفه النبهانية . ص ٥٣ والوثيقة ٥ / ٦٠و٦١ .

وثائق عثمانية غير
عن البصرة وأسطولها وصلاتها



يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل جوانب من احوال مدينة البصرة ومحاولات اصلاحها ، لا سيما اوضاع الاسطول، والدور الذي قام به متصرف البصرة معشوق باشا بخصوص ايجاد صلات متينة وعلاقات وطيدة ومستمرة مع الكيانات العربية القائمة في الخليج العربي اواسط القرن التاسع عشر ، ومدى النجاح المتحقق في هذا المجال ، واسباب ذلك ، لما لهذا الموضوع من أهمية بالغة بالنسبة لسياسة الباب العالي في اسطنبول الرامية الى امتداد السيادة العثمانية في الخليج العربي والجزيرة العربية في وقت اشتد فيه الصراع وازداد التنافس بين القوى الدولية والمحلية لايجاد مواطىء قدم ومصالح اقتصادية وسياسية دائمة في هذه المنطقة الحساسة والمهمة من عالم القرن التاسع عشر .

ولا بد من الايضاح بدءا ان اطار هذا البحث واتجاهاته محدد بحدود المعلومات التي امدتني بها الوثائق العثمانية المتوافرة لدي والتي حصلت عليها من ارشيف الباب العالي في





منشورة بالخليج العربي أواسط القرن التاسع عشر

بقلم : الدكتور مهدي جواد حبيب البستاني (العراق)

اسطنبول (المديرية العامة لارشيف رئاسة الوزراء ـ الصدارة) ، وهذه الوثائق ـ وهي باللغة التركية القديمة وتنشر لاول مرة ـ تمثل المراسلات المتبادلة بين متصرف البصرة والصدارة ، والتقارير المرفوعة للصدارة من المتصرف المذكور ومن المندوب العثماني في لجنة تحديد الحدود مع ايران درويش باشا ، ورسالتين باللغة العربية موجهتين من سلطان مسقط وعمان سعيد بن سلطان وابنه ثويني الى معشوق باشا ، اضافة لما يتطلبه البحث من معلومات توضيحية ومكملة للنقص الحاصل في معلومات الوثائق المذكورة مما تضمنته الكتب والدراسات المنشورة المتخصصة في شئون الخليج العربي ، أملا ان تتضح جوانب اخرى من خلال الابحاث المطروحة ، ومما سوف انشره من وثائق اخرى في البحوث القادمة بعون الله وتوفيقه .

نظرة في احوال البصرة واسطولها :

شهد الخليج العربي ، بحكم موقعه الجغرافي المتميز واهميته التجارية والستراتيجية [1] في القرنين السابع عشر والثامن عشر

صراعا حادا وتنافسا بين القوى البحرية البرتغالية والهولندية والانجليزية والفرنسية . وقد تنازعت السيادة على المنطقة قوى عربية متعددة : كالعمانيين (اليعاربة والبوعلي والبوسعيد) والقواسم والوهابيين وبني كعب . وحاول الايرانيون منذ عهد نادر شاه (١٧٣٦ ـ ١٧٤٧) تأسيس قوة بحرية فعالة في الخليج لغرض هيمنة ايرانية على المنطقة والتوسع باتجاه الحدود الشرقية للوطن العربي ، بيد انهم فشلوا فشلا ذريعا في هذا الميدان .

اما القوة البحرية العثمانية في البصرة فقد كانت متخلفة وضعيفة ، ولم تقم بدور يذكر في التأثير على مجريات الصراع الدائر وتوجيه مساراته . وترتب على ذلك انحسار نفوذ ولاة بغداد والبصرة عن منطقة الخليج العربي وتعرض الامن الوطني للعراق لمخاطر عديدة ، لا سيما منطقة البصرة التي تعرضت للحصار والاحتلال الأجنبي عدة مرات نتيجة لاهمال القوة البحرية وضعف القوات البرية .

واستمر الوجود العثماني في الخليج العربي حتى اواسط القرن التاسع عشر ضعيفا وهامشيا ، بل لا يكاد يذكر في خضم صراع الستراتيجيات الدولية المحتدم حينذاك . وذلك يعود لعدة اسباب ، منها : ضعف الاسطول العثماني بوجه عام وضعف اسطول البصرة بوجه خاص ، وانشغال الدولة العثمانية بمشاكلها الداخلية المستعصية : كمشكلة محمد علي باشا والي مصر واندلاع الانتفاضات القومية في ولايات البلقان والوطن العربي ، وحروبها الخارجية مع روسيا وايران . وقد جرت عدة محاولات للتوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي ، الا ان ضعف القدرات المالية والعسكرية للدولة العثمانية ، ونجاح السياسة البريطانية في ابعاد العثمانيين عن المنطقة المذكورة ، باشغالهم في الصراع مع ايران والوهابيين وقوات محمد علي باشا حال دون انجاح ذلك التوجه .

كانت البصرة من مراكز التجارة المهمة في الشرق ، حيث تكدست في اسواقها ومخازنها مختلف السلع والبضائع الهندية والصينية والاوروبية المتدفقة عن طريق الخليج العربي والبحر المتوسط ، والمنقولة منها الى بغداد والموصل وبلاد الشام وشبه جزيرة العرب والاناضول وايران عن طريق نهري دجلة والفرات ، او القوافل البرية وصولا الى سواحل البحر المتوسط فأوربا ، عن طريق وادي الفرات الى بيروت وموانىء الساحل الفينيقي مرورا بدمشق وطريق وادي دجلة الى انطاكية والاسكندرية مرورا بحلب .

كما ان صادرات تلك الاقطار كانت تتجمع في مخازن البصرة لتنقل منها الى الهند . وهكذا كانت التجارة تشكل موردا اساسيا لخزينة بغداد واقتصاديات الولاية .

وكان الاسطول العثماني في البصرة يتولى مهمة الدفاع عن المدينة وحماية الملاحة في الخليج وشط العرب ونهرى دجلة والفرات وانيطت مهمة قيادته الى ضابط يلقب بـ (قيودان باشا) اي قائد الاسطول ، ويأتي بالمرتبة الثانية بعد متصرف البصرة من حيث التسلسل الاداري ، وكانت له دار خاصة تقع على شط العرب في قرية المناوي ، تصطف امامها قطعات الاسطول ، وهي سفن صغيرة مسلحة تعرف بـ (الثكنات) . تتميز بقعرها المسطح المطلي بالقار . وكانت هذه السفن تشكل العمود الفقري لاسطول البصرة حتى سنة ١٧٦٥ ، وتم استبدالها بعد ذلك بالغلافات وبانواع اخرى من السفن ، لمواجهة التطورات البحرية الجديدة في شط العرب والخليج العربي[٢] .

وفي اواخر عام ١٧٧٣ انضمت الى اسطول البصرة سفينتان كبيرتان نسبيا تم بناؤهما في الهند ، تحمل كل منهما اربعة عشر مدفعا ، واطلق عليهما اسما دجلة والفرات . ومع ذلك فان هذا الاسطول ظل دون مستوى الاهداف المطلوبة منه بسبب النقص في عدد السفن التي يتألف منها ، وتدني نوعيتها ، ونقص الاعداد والكوادر الفنية والعسكرية المستخدمة على ظهر هذه السفن وقلة خبرتها . كما حاول والي بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٧٩ - ١٨٠٢) في بداية حكمه تعزيز اسطول البصرة فطلب من شركة الهند الشرقية البريطانية في بومباي بناء ست غلافات كبيرة تحمل كل واحدة منها ستة مدافع ، بيد ان تلك المحاولة كانت بدون جدوى لان الانجليز لم تكن من مصلحتهم في ذلك الوقت تعزيز القدرات العسكرية لولاة بغداد وذلك لاخضاعهم لمشيئتهم وابتزازهم ، فادعوا انهم يخشون وقوع تلك الغلافات بأيدي اعداء والي بغداد واعداء الانجليز من القواسم وكعب .[٣]

تقرير معشوق باشا :

بدءا من منتصف القرن التاسع عشر اخذ العثمانيون يبدون اهتماما وان كان سطحيا بشئون الخليج العربي ، ويرقبون تطورات الاحداث فيه ، وقاموا بجمع المعلومات عن القوى السياسية المحلية والاجنبية المتواجدة في هذه المنطقة الحساسة من عالم القرن التاسع عشر ، فشرعوا بارسال المبعوثين الى مشايخ العشائر العربية المتنفذة لجس نبضهم ومعرفة ميولهم واتجاهاتهم ومدى استعدادهم لتقبل السيادة العثمانية حتى ولو

إسميا أو التعاون مع الدولة العثمانية على اقل تقدير بصفتها دولة اسلامية . وانطلاقا من هذا الموقف الجديد في السياسة العثمانية كلّف الباب العالي متصرف البصرة معشوق باشا للقيام بهذه المهمة ، فبادر الاخير الى ارسال عدة اشخاص الى كل من الكويت والحسا والقطيف ومسقط واتصل بعدد من التجار وذوي المصالح مع البلدان المذكورة بهدف جمع المعلومات المتيسرة واستقصاء الحقائق واستكشاف ردود فعل الامراء والمشايخ العرب .

فورد في تقرير معشوق باشا المرفوع الى الصدارة في اواخر عام ١٨٥٠ م معلومات مبتسرة عن كيفية نشأة امارة الكويت ، حيث يشير الى ان بعض عربان نجد كانوا يأتون الى الكويت لاجل صيد الاسماك واثناء راحتهم وبغية الوقاية من ضربة الشمس وحرارتها الشديدة شيدوا لهم بيوتا صغيرة من القصب ، تحولت بمرور الزمن الى بيوت مبنية باللبن . وكان منشأ هذه الامارة في اواخر القرن السابع عشر ، ولكونها كانت حرة ومستقلة فقد اصبحت ملجأ ومسكنا أمنا للهاربين من جور حكام البصرة وغيرها ، وبلغ عدد بيوتها ستة آلاف بيت ، وكان اهالي الامارة غير مكلفين بدفع اي نوع من الضرائب ، عدا الجمرك المفروض على الامتعة والبضائع الواردة عن طريق البحر ، وبمعدل ريالين عن كل نوع ، وبلغ وارد الجمرك مائة الف ريال سنويا .

ونظرا لكون الضريبة الجمركية المفروضة على البضائع التجارية المطروحة في ميناء الكويت تعد خفيفة نسبيا ، لذا كان اغلب التجار يفضلون انزال تجارتهم في الميناء المذكور ، ونقلها برا الى العراق وبلاد نجد والحجاز والحسا والقطيف وغيرها . وكان امير الكويت الشيخ جابر يبادر الى تقديم الامدادات والمساعدات الى اهالي البصرة برا وبحرا عندما يحل الخطب بهم وتتعرض مدينتهم لحصار العمانيين او تسلط الكعبيين ، ومقابل هذه الخدمة كان امير الكويت يحصل على مائة واربعين كارة(٤) من التمور سنويا من حكومة البصرة .

وذكر معشوق باشا ان مسألة ربط الكويت بادارة البصرة واستثمار موارده الاقتصادية لحساب خزينة البصرة وقطع عطية التمور السنوية رهين بتقوية اسطول البصرة وتعزيز قوتها العسكرية بفرقة نظامية كاملة على اقل تقدير . واضاف الى ان اهالي الكويت يبدون وكأنهم تابعين للبصرة ، الا ان موارد هذا البلد وحاصلاته ترجع الى مشايخه الذين لا يراجعون ادارة البصرة باي موضوع او مادة ، واذا كان لا بد من وضع الكويت والبحرين تحت الحماية على الرغم من

اظهارهم الميل الى جانب الدولة العثمانية بحكم العاملين الجغرافي والديني ، فان واقع الحال يقتضي اظهار سطوة السلطنة السنية وجانب من قدراتها العسكرية ، لكي لا يعطوا اذنا صاغية لدسائس بعض الاطراف الدولية والمحلية .

وبخصوص مقاطعتي الحسا والقطيف اللتين كانتا خاضعتين لحكم ابن سعود تشير معلومات معشوق باشا ان الامير السعودي يستوفي منهما سنويا مائة الف ريال (اربعة آلاف كيس) باسم بدل جمرك وميري ، مقابل مبلغ زهيد يدفعه الى خزينة جدة وانه يحتفظ بقوة عسكرية رمزية تقدر بمائتي عسكري في كل منهما . واستنادا الى افادة عدد من ابناء الحسا والقطيف القادمين الى البصرة فإن الاهالي هناك مستاءون ومتنفرون وراغبون بالانضواء ، تحت الحكم العثماني ولتحقيق هذا الهدف أكد معشوق باشا على اهمية وضرورة بناء الاسطول وتعزيز القوات البرية لمنطقة البصرة حتى يتسنى لها التحرك لفرض السيادة العثمانية على تلك الجهات .

وقد تضمن تقرير معشوق باشا ، زيادة على ما تقدم ، عدة مقترحات لاصلاح احوال مدينة البصرة وانتشالها من حال التردي الذي اصابها والعمل على تطويرها حسب الامكانات المتاحة . ومما يذكر ان اهالي البصرة والعاملين فيها من أتراك واجانب كانوا يعانون من وخامة الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة بسبب احاطة المدينة بالمستنقعات والبحيرات الناتجة من طغيان نهر الفرات وانهيار بعض السدود التي كانت تتحكم بتوزيع فائض مياهه ، لدرجة ساد فيها التفكير بضرورة نقل البصرة الى موقع آخر . فقد ارسلت الصدارة بناء على طلب والي بغداد السابق لجنة مكونة من قائم مقام مكتب الحربية علي بك ، والخواجه الثاني للمكتب المذكور أمين افندي . وقد تضمن تقريرهما تحديد سبب وخامة طقس البصرة بوجود المقبرة العامة بين محلات المدينة ، وجريان المياه الآسنة والثقيلة في ازقة المدينة وعدم تطهير مضيق العشار منذ مدة طويلة ، وتجمع المياه داخل الحدائق الموجودة بالمدينة وعدم تصريفها ، وتعفنها ، ووجود سوق الاسماك وسط المدينة وما يبعثه من عفونة وروائح كريهة تزكم الانوف ، وانهدام السدود القريبة من البصرة والمعروفة بإسم (سلحة) وتحول مجري نهر الفرات عن مجراه القديم مما ادى الى انتشار المستنقعات والبحيرات وتعرض المدينة الى وباء الكوليرا الذي اهلك وشرد عددا كبيرا من اهاليها وتحولت بيوتهم الى خرائب ومزابل ، وحدوث ظاهرة المد والجزر باستمرار .

لذا تقرر في الصدارة اختيار موقع العشار لبناء المدينة الجديدة عليه بصورة تدريجية وكمرحلة اولى تقرر بناء جامع يحمل اسم السلطان العثماني ، ودائرة للجمرك ، ومقر القائمقام ، وعدد مناسب من المغازات والدكاكين . وحمام يوقف لحساب الجامع . على ان تتم تسوية تكاليف هذه المنشآت ، البالغة بصورة تخمينية ثلاثة آلاف كيس أقجة من الحاصلات الجديدة للمدينة .

ولكن معشوق باشا ، بعد توليه لمهام منصبه ومطالعته لجميع التقارير المكتوبة حول اصلاح احوال البصرة واطلاعه ميدانيا على واقع المدينة اقنع الصدارة بامكانية معالجة مشاكل المدينة دون الحاجة الى نقلها الى مكان آخر . فعمل على ازالة الاسباب المؤدية الى وخامة الجو ، وطلب من الصدارة ارسال طبيب وصيدلي لمعالجة المرضى ، حيث ينعدم وجود الطبيب في المدينة وقتذاك ، كما قام ببناء دوائر للحجر الصحي «تحفظ خانه» والجمرك وخان وعدد من الدكاكين في العشار ، وابدى مساعدته لكل راغب من الأهالي في بناء دور لهم في الموقع المذكور . وتعهد معشوق باشا للصدارة بانه سيعمل على اتخاذ التدابير والاجراءات المؤدية الى عودة المهاجرين من اهالي البصرة الذين تركوها في الازمان السابقة وسكنوا في الكويت والمحمرة وغيرهما . وحدد اسباب هجرة الاهالي بما يلي :

١ ـ الظلم والتعدى الذي لحق بهم .
٢ ـ عدم تمكن حكام البصرة السابقين من انقاذ الأهالي من تعديات العشائر .
٣ ـ وجود ادارة حرة ومستقلة في كل من الكويت والمحمرة جذب اهل البصرة اليهما .
٤ ـ تعرض البصرة الى الوباء عام ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م ، والكوليرا عام ١٢٦٢ هـ / ١٨٤٦ م .
٥ ـ وخامة جو البصرة الزائد عن التحمل بسبب انتشار المستنقعات والبحيرات وامتلاء الأزقه بالمياه الآسنه والثقيله وانتشار الخرائب والمزابل وما شابه.

وبذل معشوق باشا مجهودات كبيرة ـ حسب ما ذكر في تقريره من اجل اعادة النازحين والمقيمين في الكويت والمحمرة من اهالي البصرة اليها ، فاتصل سرا بهم ورغبهم على العودة الى بيوتهم واستخدم اقاربهم واصدقاءهم لتحقيق هذا الغرض كما عمل على منع تعدي عشائر المنتفق على الحاصلات الزراعية العائدة الى اصحاب بساتين النخيل في منطقة البصرة [٥].

بيد ان الباب العالي ـ الذي كان

مشغولا بحرب القرم مع روسيا ـ وجد نفسه عاجزا عن تلبية مطالب متصرف البصرة ولم يجد بدا من التوصية باتخاذ التدابير الممكنة لاستمالة اهالي الخليج العربي وترغيبهم بقبول التابعية للدولة العثمانية (السلطنة السنية).(٦)

تقرير درويش باشا :

من خلال قيام المندوب العثماني في اللجنة الدولية لتحديد الحدود مع ايران بمهام عمله الذي يتطلب التجوال والمشاهدة الشخصية للمناطق المتنازع عليها من اجل اعادة ترسيم الحدود العراقية ـ الايرانية اطلع درويش باشا عن كثب على الاوضاع المزرية لاسطول البصرة وقواتها العسكرية البرية والبحرية فبادر الى تسجيل ملاحظاته ورفعها بتقرير مستعجل الى الصدارة في ٢١ ربيع الثاني ١٢٦٦هـ / ٦ مارس ١٨٥٠م بناء على التعليمات السرية التي زودته بها الاجهزة الخاصة في الباب العالي عند تكليفه بهذه المهمة والتي كانت تقتضي جمع المعلومات وتقصي الحقائق عن احوال واوضاع ايالات العراق زيادة على مهمته الاساسية .

ابتدأ درويش باشا تقريره بتبيان اهمية موقع البصرة ، فذكر ان البصرة من المواقع التي تتطلب العناية الكبيرة والاهتمام الاستثنائي نظرا لاشرافها على عدد كبير من القرى والمقاطعات وديار العشائر ولمجاورتها ايران وعشائر عربية غير منقادة (كعب والمنتفق وبني لام) ، مما يتطلب وجود قوات برية وبحرية قادرة على تحقيق الامن الداخلي وحماية الحدود البرية ومياه شط العرب وخليج البصرة . بيد ان واقع الحال يشير الى خلاف المطلوب ، اذ ان موجود القوات العسكرية في البصرة لا يتعدى ٧٠ ـ ٨٠ جنديا من صنف المدفعية و٢٥٠ جندي مشاة (باشبوزق بيادة) ، علما ان اكثر من نصف صنف المدفعية المذكورين اعداد غير صالحة للخدمة العسكرية لكونهم مرضى ومعوقين اما المدافع فهي على قلتها فانها من النوع القديم وينقصها بعض قطع الغيار (المواد الاحتياطية) .

وتناول في تقريره واقع اسطول البصرة ، فذكر انه يتألف من ست قطع بحرية كبيرة الا ان احداها غير صالحة للخدمة على الاطلاق وقد سحبت الى البر في مضيق العشار لاجل تعميرها فاهملت ، وهي الآن معرضة للتلف يوما بعد يوم ، والسفينة الاخرى يمكن استعمالها بعد اجراء صيانة واسعة عليها . اما السفن الاربع الباقية فهي ايضا غير صالحة ليس لركوب البحر فحسب وانما غير صالحة للاستخدام حتى في

مياه شط العرب ، وينقص اشرعتها جميع الادوات اللازمة لتشغيلها لذلك وضعت كل واحدة من هذه السفن الاربع في موضع معين لتحصيل الرسوم الجمركية .

في حين يتجول في خليج البصرة اسطول انجليزي يتألف من ٥ ـ ٦ قطع بحرية نوع «بريق» و«قروت» بحجة ملاحقة القراصنة ومنع تجارة الرقيق وحماية صيادي اللؤلؤ . وكان قائد الاسطول الانجليزي يقيم في البصرة او في ميناء بوشهر او البحرين خلال تجوال سفنه في مياه الخليج وشط العرب حتى ان القائد المذكور يرابط قبل عدة ايام من تاريخ كتابة هذا التقرير بسفينة القيادة التابعة للأسطول الانجليـزي امام ميناء المحمرة .

واستنادا للمعلومات المتجمعة لدى درويش باشا فان النفوذ الانجليزي امتد الى عدة جزر في سواحل خليج البصرة ومنها جزيرة «قشم» الواقعة في مضيق هرمز ، والتي اقام الانجليز على الجانب الشمالي منها ابنية ومنشآت عديدة وحتى لو لم تحصل هذه التطورات فان من اهم مهام السلطنة السنيَّة ازاء موقع مهم كالبصرة ، التي تعتبر من المناطق الحدودية الرئيسية والموانىء الكبيرة تهيئة اربع سفن حربية على الأقل ، نوع «فرقتين وقروت وبريق» وسفينة بحرية تجارية كبيرة ، وباخرتين للنقل النهري في دجلة والفرات تعملان بين بغداد والبصرة ومدخل الخليج «مضيق خليج البصرة» واعادة تنظيم وتشغيل ترسانة البصرة القديمة .

واضاف درويش باشا انه في حال تعزيز القوات البرية والبحرية في هذه المنطقة فان كل امور واوضاع ايالة البصرة سوف تسير في الاتجاه الصحيح ويتحقق الاصلاح المطلوب والرقي المنشود وسوف تعود الحسا والقطيف اللتان كانتا تعدان قديما من مضافات البصرة ثم خرجتا من التابعية العثمانية بسبب تسيب وضعف الادارة في العراق ، الى السيادة العثمانية ، وانه لامر واضح ان يبادر سلطان مسقط الذي يخشى الانجليز ويخافهم الى طلب حماية هكذا دولة اسلامية عظيمة .

وبقصد تسهيل اعادة تنظيم اسطول البصرة اقترح درويش باشا تعيين «مباشر» للاشراف على ذلك وعند صدور الامر السامي ببناء السفن والبواخر المذكورة في بومباي وحين اكمالها يصار الى تعيين قائد مناسب لقيادة الاسطول من ضباط قيادة البحرية في اسطنبول مع عدد مناسب من الضباط المختصين بفنون البحر لتعليمهم وتدريب العساكر والسفانة المحليين . ولما كان تحقيق هذا الامر يحتاج الى وقت ليس بالقصير فان

المصلحة العامة للدولة تتطلب الايعاز الى قائد فيلق الحجاز والعراق ليقوم بارسال طابورين مشاة من القوات النظامية ، ومقدار مناسب من جنود الفرسان والمدفعية ، مع عدد من المدافع الى البصرة كتعزيز سريع لقدراتها الدفاعية .(٧)

وفي مذكرته المرفوعة الى متصرف البصرة معشوق باشا في غرة شعبان ١٢٦٦ هـ / ١٢ حزيران ١٨٥٠ م اشار درويش باشا الى وجود سفينتين من اسطول البصرة وهما فتحعلي وصالحي ، ترابطان امام المحمرة وفي نهر الكارون وامام مضيق نهر بهمشير .(٨)

صلات البصرة بسلطنة مسقط وعمان :

في عام ١٢٦٧ هـ / ١٨٥١ كلف الباب العالي متصرف ايالة البصرة معشوق باشا بدراسة احوال منطقة الخليج العربي ، ومعرفة مدى امكانية مد جسور التعاون والالتقاء مع الكيانات المحلية القائمة هناك ، لا سيما مع سلطان مسقط وعمان السيد سعيد بن سلطان (١٧٩١ - ١٨٥٦) ، والعمل على جذبها الى حظيرة الدولة العثمانية . وكان الباب العالي يرصد حينذاك دخول سعيد بن سلطان في دائرة واسعة من العلاقات والمصالح مع سائر الدول ، على الرغم من تظاهره بالميل نحو الدولة العثمانية ، لذا طلب من متصرف البصرة مراسلته سرا من اجل استمالته الى الصف العثماني ، ومعرفة حقيقة الاخبار الواردة الى مسامع الخارجية العثمانية حول حدوث نزاع بين سلطان مسقط والانجليز بسبب عدم ايفاء الاولى بالاتفاق المعقود معه من جانب بريطانيا بخصوص منع تجارة العبيد (٩).

افاد معشوق باشا في مذكرته الجوابية المرسلة الى الباب العالى بتاريخ ١٥ شوال ١٢٦٧ هـ /١٥ حزيران ١٨٥١ ، استنادا الى المعلومات المتجمعة لديه من التجار العاملين بين البصرة ومسقط ، ان علاقات سلطان مسقط مع الدول الاجنبية متأتية من الصلات والمعاملات التجارية القائمة بين سلطنة عمان والموانىء الهندية القريبة من سواحل بلاد العرب الجنوبية الشرقية . وبحكم خضوع بلاد الهند للهيمنة البريطانية ، فان الضرورة تقتضي عقد العلاقات الاقتصادية والسياسية مع بريطانيا كذلك واحتمال ميل سلطان مسقط للدولة العثمانية يقع في اطار السياق السابق نفسه الذي تحتمه المصالح التجارية التي تقوم وترتكز عليها سلطنة مسقط وعمان وبغية الوقوف جليا على هذا الحال ومد جسور الاتصال مع السلطنة المذكورة ارسل

معشوق باشا رسالتين: احداهما الى السلطان سعيد الموجود حينذاك في عمان ، والاخرى الى ابنه ثويني وكيله في مسقط ، تضمنتا عبارات المودة والاستفسار عن الخاطر ، وكيفية وصوله الى البصرة ومباشرته مهام منصبه .

يلاحظ هنا ابتعاد متصرف البصرة معشوق باشا ، بناء على توجيهات الباب العالي عن الاشارة الى المسائل المتعلقة بمصالح الدولة العثمانية في الخليج العربي في رسالتيه المذكورتين وذلك تجنبا من وقوع الطرف الآخر في دائرة سوء الفهم او الشكوك في المقاصد العثمانية التي تنطوي عليها سياستهم الجديدة في المنطقة المذكورة . كما يلاحظ في هذه الوثيقة وفي الادبيات العثمانية كافة ورود اسم سعيد بن سلطان مقترنا بلقب «الامام» بينما المعروف ان لقب الأمامة لم يحمله من اسرة البوسعيد الا مؤسس هذه الأسرة الامام احمد بن سعيد (١٧٤٤ - ١٧٨٣) الذي قضى على حكم اسرة اليعاربة في عام ١٧٤٤ وورث اللقب من بعده سعيد (١٧٨٣ - ١٨٠٣) دون انتخاب او مبايعة او اعتراف . وقد اتخذ حكام البوسعيد المتأخرون لقب «السيد» (١٠) «كما شاع استخدام لقب «السلطان» لا سيما في الادبيات والكتابات والتقارير الاوروبية ، ويبدو ان الاتراك العثمانيين فضلوا استخدام لقب «امام» لانهم لا يعترفون بالسلطنة والقاب السلطان الا لملوكهم من آل عثمان .

وفي الوقت والسياق ذاته ارسل معشوق باشا رسالة ثالثة الى احد تجار البصرة البارزين ، يدعى عبدالله جمال الجلبى كان مقيما منذ فترة طويلة في سلطنة مسقط وعمان وبالرغم من وصول رسالة ثويني الجوابية المؤرخة في الرابع عشر من شوال ١٢٦٦ هـ / ٢٣ آب ١٨٥٠ م الى البصرة في شهر رمضان ١٢٦٧ هـ / حزيران ١٨٥١ م الا ان معشوق باشا آثر تعليق ارسالها الى الصدارة لحين ورود رسالة والده الجوابية وعندما عاد السيد سعيد بن سلطان من عمان الى مسقط في ٩ رجب ١٢٦٧ هـ / ١٠ مايو ١٨٥١ م بادر الى تحرير رسالة جوابية الى متصرف البصرة مؤرخة في ٢٩ رجب ١٢٦٧ هـ/ ٣٠ مايو ١٨٥١م وصلت الى البصرة في الشهر التالي لتحريرها ، وفيما يلي نصها الحرفي مع نص رسالة ثويني :

الجناب المستطاب ذو الشوكة والاجلال العالي جاه الافخم الاحشم الاخ معشوق باشا المكرم دام اجلاله وحرسه الله سبحانه من شر الاشرار وامنه من عواصف الاكدار ورواجف الاخطار بحق محمد سيد الابرار أمين

رب العالمين :

اما بعد ، فالغرض الاهم والمطلب الاتم من تحرير رقيمة الوداد وتأنيق انيقة الاتحاد هو السؤال عن احوال سلامة تلك الذات الجامعة لمكارم الاخـلاق والصفات حـرسها رب الارضين والسموات وفي ابرك الاوقات واشرف الساعات ورد علينا كتابكم الكريم المنبىء عن الود القـويم والاتحاد المستقيم فأسر الخاطر واقر الناظر وجمع ما اشتمل عليه من غرر المعاني ودرر البيان فقد ارتسم في الخاطر والجنان ونحن قد وصلنا مسقط في ٩ من رجب وان شاء الله المحبة من الطرفين ثابتة الاركان مشيدة البنيان ، لا يغيرها غير ، ولا يشوبها كدر والمأمول ادرار المراسلات مع شرح احوال سلامة تلك الذات وبما يبدو من المهمات بعون الله ليقضي بمجرد الاعلام والسلام خير مبدأ وختام .(١١)

هذا من المحب
الواثق بالله عبده سعيد بن سلطان
تحرير ٢٩ في رجب الاصم سنة ١٢٦٧

الجناب المستطاب ، مركز كرة الأبهة والرأي ، ثمرة شجرة العزة والسياسة نتيجة الاشراف من آل عبد مناف ، الافخم المحترم معشوق باشا المكرم والي حكومة البصرة ونواحيها دام اجلاله وحرسه الله سبحانه وتعالى من شر الاشرار وامنه من عواصف الاكدار ورواجف الاخطار بحق محمد سيد الابرار آمين رب العالمين :

اما بعد ، فالغرض الاهم والمطلب الأوفى الأتم من تحرير رقيمة الوداد وانيقة المودة والاتحاد هو السؤال عن احوال سلامة تلك الذات الجامعة لمكارم الاخلاق والصفات ، حرسها رب الارضين والسموات ، وفي ابرك الاوقات واشرف الساعات ورد علينا كتابكم الكريم المنبىء عن الود القويم والاتحاد المستقيم فكان اعز واصل واجل نازل ، وجميع ما اشتمل عليه من درر المعاني وغرر البيان فقد ارتسم في الخاطر والجنان ، لا سيما من طـرف وصـولكم الى البصرة وتفويضكم أمر ايالتها وحكومتها مع جميع ملحقاتها وعشيرة المنتفك ، فقد استبشرنا بذلك غاية البشارة وسررنا بذلك كثيرا ، فكذلك من طرف اثبات المحبة والمودة فنحن من جانبنا ثابتة الاركان لا يغيرها غير ولا يشوبها كدر ما دامت الارواح في الصور . والكتاب الذي بأسم جناب سيدنا الوالد حفظه الله وصلنا حال تحريره لنرسله لجنابه ان شاء الله ليكون معلوما .. هذا والمأمول ادرار المراسلات مع شرح احوال سلامة تلك الذات وبما يبدو لكم من المهمات في هذه النواحي

والجهات ليقضي بعون الله بمجرد الاعــلام ، والســلام خــير مبــدأ وختام .(١٢)

هذا من المحب
الواثق بالله عبده ثويني بن سعيد بن سلطان
تحرير ١٤ في شوال المكرم سنة ١٢٦٦

لقد تضمنت مذكرة معشوق باشا ، زيادة على ما تقدم ، معلومات مهمة عن احوال الاسرة الحاكمة للسلطنة العمانية ، منها ان السلطان سعيد كان يميل الى اشراك ابنه الصغير ثويني في تدبير شئون الادارة في مسقط اثناء غيابه فجعله وكيلا عنه مما أثار حفيظة ابنه الكبير هلال واوغر صدره فهرب الى مصر ، ومكث هناك مدة من الزمن بأمل تحقيق مطالبه الشخصية ولكن بدون جدوى ، اذ انه لم يجد اذنا صاغية لمطالبه ، فشدّ الرحال الى انجلترا ، وبعد مرور سنتين على مكوثه في انجلترا عاد الى مسقط بوساطة الحكومة البريطانية ، بيد ان والده لم يغير موقفه منه ولم يسند اليه اي عمل اداري او رسمي .(١٣)

ومن الجدير بالذكر هنا ان السيد سعيد بن سلطان كان له عدد كبير من الابناء من بينهم هلال وخالد وثويني وتركي وبرغش ، وانه كان على خلاف عميق مع ابنه البكر هلال تسبب في حرمانه من ولاية العهد . اما اسباب الخصام العائلي فتعود على ما يبدو الى ان الابن الاكبر يعتبر في قصور الملوك والسلاطين موضع ريبة ابيه وشكه ، وخصوصا اذا امتلك الابن قدرا من الشجاعة وعلو الهمة وسعة الطموح وكانت ام خالد الاخ الاصغر لهلال ، ذات حظـوة ونفوذ لـدى زوجها السلطان فاستغلت منزلتها لتحصل لأبنها على ولاية العهد ، بالرغم من كونه غير محبوب من الناس لانهماكه في التجارة وجمع المال ، في حين اتصف هلال بالشجاعة والفروسية ، فحظي بحب الناس واحترامهم ، الا ان ميل ابيه الى اخيه خالد وتفضيله عليه دفعه الى الشكوى ثم المعارضة فالتمرد .

وزاد الطين بلة اكتشاف السلطان سعيد قيام صلات وثيقة بين ابنه هلال والقنصـل الفـرنسي في زنجبـار ، فازدادت مخاوفه من ابنه الاكبر وشكوكه فيه . وكان السيد سعيد يشعر بالشـك والريبـة في نوايـا الفرنسيين تجاهه . تلك النوايا المتمثلة بسعيهم الى الاستحواذ على املاكه في افريقيا الشرقية ، لذا اقدم في عام ١٨٤٤ عـلى استشارة الحكومـة البريطانية برغبته في ان يرثه على ملكه في عمان ابنه ثويني ، وعلى ملكه في افريقيا الشرقية ابنه خالد . وكان جواب الحكومة البريطانية انها لا تتدخل في الشئون الداخلية للسلطنة ،

ولكنها نصحت السلطان سعيد بصورة غير مباشرة بضرورة المصالحة والتفاهم مع ابنه .

ويبدو ان سيل غضب الأب على ابنه قد بلغ الزبى عندما قام هلال في شهر ايلول من عام ١٨٤٥ بزيارة سرية مفاجئة الى لندن ، فصمم على حرمان هلال من حقوقه ، وتعيين ابنية ثويني وخالد وكيلين له في مسقط وزنجبار وعند عودة هلال الى زنجبار على ظهر باخرة بريطانية في شباط ١٨٤٦ ازداد والده حنقا عليه وضاق منه ذرعا ، فنفاه عام ١٨٤٩ الى جزيرة لامو حيث مكث فيها ولم يغادرها الا لأداء فريضة الحج ، فوافته المنية في ٢٢ ايلول ١٨٥١ في مدينة عدن في طريقه الى مكة المكرمة .(١٤)

نعود الى مذكرة معشوق باشا لنستعرض بعض الجوانب الخفية من الصراع الدائر بين النفوذين البريطاني والامريكي في المحيط الهندي وبحر العرب والخليج العربي . فقد ذكر معشوق باشا ان احدى السفن الامريكية جاءت الى سواحل عمان واخذت أعدادا كبيرة من العبيد ، وان هذا العمل اثار استياء وعدم رضا قائد الوحدة البحرية البريطانية المتواجدة في هذه المياه ، والمؤلفة من سفينتين من نوع «بيلك» وطلب القائد المذكور من سلطان مسقط منع الامريكان واهالي السلطنة الذين يتعاطون هذه التجارة ، استنادا الى الاتفاقية المعقودة بين الطرفين بخصوص العمل المشترك من اجل منع ممارسة تجارة العبيد في سواحل الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية .

وقد اجاب السلطان سعيد بعدم امكانية منع هذه التجارة داخل سلطنته ، وعدم اقتداره على منع الامريكان من ممارستها .

وبالفعل اخذ الامريكان ما يشاؤون من العبيد ، واثناء مغادرتهم السواحل المذكورة لم يفعل القائد البريطاني سوى الادعاء بأنه سوف يتعقب السفن الامريكية ويمنع نشاطها ، بيد انه لم يصنع شيئا ، بل استمر الامريكان بمزاولة تجارة العبيد في السواحل المذكورة وداخل السلطنة ، مما اثار الجدل المستمر بين الحكومة البريطانية وسلطان مسقط .(١٥)

والمعروف ان مسقط كانت تعتبر سوقا كبيرة من اسواق بيع الرقيق وتصديره الى اوربا وامريكا ومدن الخليج العربي والبصرة وبغداد . وكان حكام عمان يمارسون هذه التجارة لحسابهم الخاص ، ويحصلون على دخل سنوي يقدر بثلاثة عشر ألف باون . ذكر كرزن (Curzon) ان ايراد السلطان سعيد

من تجارة الرقيق قبل الغائها كان يشكل ربع ايراده الاجمالي البالغ ثمانين الف باون سنويا . واستنادا الى معلومات شركة الهند الشرقية عام ١٨١٢ فان عدد الرقيق المصدر من زنجبار الى مسقط والهند وجزر موريشيوس يتراح بين ٦٠٠٠ - ١٠٠٠٠ نفر سنويا ، وان عدد السكان الاحرار في هذه الاماكن لا يتجاوز ٢٥٪ من التعداد العام للسكان ، ومن المألوف هناك ان يمتلك بعض الاشخاص من الاثرياء حوالي ٨٠٠ - ٩٠٠ نفر من العبيد .(١٦)

لذلك خسر السلطان سعيد موردا ضخما عند توقيعه معاهدة ١٨٢٢ مع بريطانيا لمكافحة تجارة الرقيق ، واصبح لسفن الأسطول البريطاني الحق في تفتيش السفن المشتبه بتعاطيها هذه التجارة المحرمة دوليا . كما أثارت هذه المعاهدة استياء التجار العمانيين الذين كانت تجارة الرقيق تشكل مهنتهم الرئيسية ، ومعارضة رجال الدين المتعاطفين مع التجار ، ولذا فان حجما واسعا من هذه التجارة ظل مستمرا ، مما تطلب التأكيد على تحريم تجارة الرقيق بالمعاهدات المبرمة في اعوام ١٨٣٩ و١٨٤٥ و١٨٧٣ .

ولكن نجاح الفرنسيين في ابرام معاهدة مع السيد سعيد عام ١٨٤٤ منحتهم الحصانة الدبلوماسية ، وامنت لهم ولتابعيهم الحماية من المتابعة والتفتيش ، مما ادى الى استمرار تجارة الرقيق تحت العلم الفرنسي ، ولم تستطع صرامة معاهدة ١٨٤٥ مع انجلترا مكافحتها والقضاء عليها نهائيا .(١٧) ومما يجدر ذكره هنا ان الفرنسيين كانت لهم علاقات تجارية مبكرة مع عمان واثناء الحملة الفرنسية على مصر وخشية بريطانيا من سيطرة الفرنسيين على طريق الهند سارعت الى عقد معاهدة مع عمان في ١٢ تشرين الاول ١٧٩٨ حصلت بموجبها على حق فتح وكالة لها في بندر عباس تكفلت بحمايتها ذاتيا . وبعد عامين عقدت معاهدة ثانية تضمنت وجوب وجود وكيل بريطاني مقيم في مسقط ، الا ان هذا البند من المعاهدة لم يدخل حيز التنفيذ الا بعد مرور اربعين عاما .

ويبدو ان الحكومة البريطانية ، حتى عام ١٨١٦ ، كانت غير راغبة في التدخل المباشر بشئون عمان ، ليس عزوفا عن مبدأ التدخل بشئون الغير ، وانما لخوفها من مغبة التورط ولقصور رؤيتها عن ادراك نطاق مصالحها الحقيقية في تلك المنطقة الحيوية ، ومقدار الفوائد المتحققة نتيجة هذا التدخل . وقد تصدت سفن بعض المواطنين من العمانيين والقواسم للسفن الانجليزية وانزلوا بسفن اعدائهم خسائر جسيمة ، سواء

اكانت تجارية او حربية .[١٨] لذلك اطلق الانجليز على ساحل عمان الذي يمتد غربا الى شبه جزيرة قطر اسم «ساحل القرصنة» ، وبعد اخضاع العمانيين والقواسم لمشيئتهم وتقييدهم باتفاقيات غير متكافئة اطلقوا على الساحل نفسه اسم «ساحل عمان المهادن» او «ساحل عمان المتصالح» .[١٩]

وعندما اقتنع سلطان عمان بعدم جدية الانجليز والايرانيين في تحالفهم معه ، لكون كل واحد منهم كان يبحث عن تأمين مصالحه الذاتية في ميدان الصراع ، عاد مجددا لمغازلة الفرنسيين ، وعقد اتفاقا معهم في ٣٠ آذار ١٨١٧ ظل معمولا به حتى توقيع المعاهدة التجارية الفرنسية ـ العمانية عام ١٨٤٤ .[٢٠]

وبعد نجاح قوات محمد علي باشا في احتلال الدرعية واسر عبدالله بن سعود (١٨١٨ ـ ١٨١٩) وجد السيد سعيد بن سلطان ان الوقت قد حان للقضاء على القواسم بمعاونة القوة البحرية البريطانية [٢١] فتم له ما اراد هذه المرة بالرغم من المقاومة الضارية للقواسم الذين اجبروا على توقيع معاهدة في ٨ كانون الثاني ١٨٢٠ تعهدوا بموجبها بعدم ممارسة اعمال الغزو في البر والقرصنة في البحر مستقبلا .[٢٢] وفي تموز ١٨٢٦ حاول السلطان سعيد محاصرة بوشهر والاستيلاء عليها ولكنه عدل عن ذلك بناء على طلب من المقيم البريطاني ، وقد تمكن من اسر حاكمها الايراني الذي كان مبحرا الى بلاده ، ومكث في الاسر عدة اشهر . كما ارسل في تشرين الثاني من السنة ذاتها حملة بحرية الى البصرة لارغام الوالي العثماني على دفع المنحة السنوية التي قررها السلطان مصطفى الثالث عام ١٧٥٦ الى الأمام احمد بن سعيد مقابل نصرته للبصرة عند حصار الايرانيين لها .[٢٣]

وخلال السنوات الممتدة بين ١٨٢٨ ـ ١٨٣٨ تمكن سلطان عمان من بسط نفوذه على ساحل افريقيا الشرقي فاستولى على ممباسة وزنجبار .

ومن الجدير بالذكر ان بريطانيا كانت تعتمد على سعيد بن سلطان للحفاظ على الوضع الراهن في الخليج العربي بما يؤمن استمرار المصالح البريطانية الاقتصادية والسياسية ، لذلك قدمت اليه الدعم والاسناد المباشر وغير المباشر في صراعه مع القواسم وآل سعود ، ومع الطامعين في السلطة من ابناء اسرته وغيرهم من زعماء القبائل في السلطنة .[٢٤]

وازاء تصاعد نشاط محمد علي باشا ونزوعه نحو تكوين دولة كبيرة تضم شبه جزيرة العرب والهلال الخصيب ، اضافة لمصر والسودان ،

اقتنعت حكومة الهند البريطانية بضرورة اقامة علاقات اوثق بين سلطنة عمان وبومباي ، فقررت ارسال وكيل بريطاني الى مسقط ، وبناء على ذلك فقد عين الكابتن همرتون قنصلا بريطانيا في عمان عام ١٨٤٠ ، ولكن اتخاذ السلطان سعيد زنجبار مقرا لحكومته في ذلك الوقت جعل القنصل المذكور يتجه اليها ويتخذها هو الآخر مقرا له .[٢٥] .

اسطول البصرة ومحاولات تطويره

ذكرنا في بداية البحث ، ومن خلال عرض ما ورد في تقرير درويش باشا ، ان اسطول البصرة لم يقم بدور مؤثر في مياه الخليج العربي من النواحي السياسية والعسكرية والتجارية ، وانه كان عاجزا حتى عن تأمين الحماية للبصرة ذاتها بسبب تدهوره وتردي احواله فنيا ونوعيا ، كما وكيفا ، وقد اشرنا الى اسباب هذا التدهور والتردي ، ولا نجد ضرورة لتكرار ذلك .

كان يوجد في ترسانة البصرة اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر سبع سفن احداها تصلح للتجارة البحرية بعد صيانتها وتسمى «فتح علي» والست الاخرى تصلح للتجارة النهرية ، وهي : بتار وفتح خيبر وتكبير وبغداد وعطية الرحمن وصالحي . وبناء على طلب كل من والي بغداد وقائد اسطول البصرة من الصدارة الموافقة على شراء خمس سفن صغيرة إحداها من نوع «قروت» ، واثنتين من نوع «بريق» ، واثنتين من نوع «اوسقونة» وكذلك سفينتين كبيرتين نهرية وبحرية ، فقد تمت مفاتحة الجهات المعنية في لندن لبناء السفينتين الاخيرتين ، وتقرر تصنيع السفن الخمس الاخرى في ترسانة اسطنبول .[٢٦]

وبناء على مقترحات مجلس البحرية في الباب العالي الواردة في المذكرة المرفوعة الى الصدارة بتاريخ ٥ جمادى الثانية ١٢٦٥هـ / ٢٨ نيسان ١٨٤٩ م من قائد (قيودان) البحرية العثمانية سليمان باشا والمقترنة بموافقة الصدارة في السابع من جمادى الثانية ، ومصادقة السلطان في الثامن منه تقرر ما يلي :

١ ـ تعيين قائد السفينة الحربية «مسعودية» ميرالاى بيربك قائدا لاسطول البصرة ، ومنحه صلاحية اعادة تنظيم القوات البرية وتعمير السفن الموجودة في ترسانة البصرة ، ومنحه كذلك رتبة «رياسة همايون» .

٢ ـ تعيين رستم اغا ، وهو احد ضباط البحرية في اسطنبول ، مساعدا لقبطان البصرة ، ومنحه رتبة «بكباشى» .

٣ - ارسال مجموعة من الضباط والمراتب من صنف البحرية الحربي والفني وكما مبين ادناه :

الرتبة	الصنف	العدد
قول اغاسى	حربي	١
يوزباشى	حربي	١
مـلازم	حربي	١
جاوش	حربي	٥
اونباشي	حربي	٥
قول اغاسى	حربي	١
يوزباشى	انشآت	١

جنـود فنيـين حـدادة
نجارة بناء عدد مناسب(٢٧)

تم تعاقد مجلس البحرية مع احد التجار الاجانب المدعو «قره ين» لاستيراد اربع بواخر من انجلترا لاستخدامها في البصرة وجدة ونهر الطونة ، مع آلاتها وادواتها ولوازمها الأساسية والاحتياطية كافة ، مقابل ١٥٦٥٠ كيس (٢٨) وقد تضمنت المقاولة المعقودة بين الطرفين في ١٧ رمضـان ١٢٦٧ هـ / ١٦ تمـوز ١٨٥١ م تعهد الطرف العثماني بقيام خزينة الدولة المركزية بدفع ١٢٠٠٠ كيس من اصل المبلغ المذكور على شكل اقساط شهرية اعتبارا من شهر تموز ، وبمعدل ٧٥٠ كيسا للقسط الواحد ، اما المبلغ المتبقي فيدفع بنسبة الأقساط ذاتها من قبل خزينة ترسانة اسطنبول ، على ان لا يطلب الطرف الثاني اي شيء كتعويض للضرر والخسائر التي قد يدعي حصولها عند تسديد مستحقاته عن طريق النقد او القوائم او اي وسيلة اخرى . كما نصت المقاولة على وجوب تسليم الباخرتين لأسطول البصرة بعد مـرور ثمانيـة شهور من تـاريخ ابرامها .(٢٩)

ولكن الطرف العثماني لم يتمكن من الوفاء بالتزاماته المالية حسب المواعيد المقررة بين الطرفين ، ففي ظرف ثمانية شهور سددت وزارة المالية ٢٢٥٠ كيسا من اصل ستة آلاف كيس واجبة الدفع خلال المدة المذكورة ، مما ادى الى تأخير تسليم الباخرتين .(٣٠)

واستمر الحال على هذه الشاكلة لعدة سنوات ، بسبب العجز المالي الـذي كانت تعـاني منه الـدولة العثمانية ، ولانشغالها بحرب القرم وغيرها من الحروب الخارجية والفتن والاضطـرابـات الـداخليـة ، ومـا تعرضت له من مصاعب وعقبات ومعوقات مقصودة من جانب انجلترا وغيرها من القوى البحرية التي كانت لهـا مصلحة في ابقـاء الأسطول العثمـاني في البصرة على تخلفـه وترديه ، لكي تتحرك في مياه شط العرب والخليج العربي بحرية تامة ودون مضايقة او رقابة او منافسة عثمانية .

وعند ورود رسالة سلطان عمان جدد والي بغداد مطالبته بارسال عدد من السفن من ترسانة اسطنبول ، او بالشراء من انجلترا وبومباي لتعزيز اسطول البصرة ، واستمالة السيد سعيد بن سلطان . كما اعلم الصدارة بأن من مقتضيات المصلحة العامة للدولة ارسال مبعوث مناسب ، او قائد اسطول البصرة القومند ان يبربك الى المنطقة المذكورة ، وارسل بالفعل رسالة اخرى الى حاكم عمان تضمنت تبريكه وتنهئته بمناسبة عودته الى مسقط ، كما تضمنت عبارات التلطيف والمجاملة دون التطرق الى اي شيء آخر .(٣١)

وفي الباب العالي تقرر اجابة متصرف البصرة بتخويله اتخاذ التدابير المؤدية الى جلب حاكم مسقط واستمالته الى الصف العثماني ، واعطائه التأمينات والتأكيدات اللازمة لتحقيق هذا الهدف ، لحين تشكيل القوة البحرية المطلوبة في خليج البصرة .(٣٢) .

وكان متصرف البصرة معشوق باشا قد اعد دراسة مفصلة الى الصدارة تضمنت جملة من المقترحات لأحياء اسطول البصرة ، وتنشيط الحركة التجارية مع الهند ووضع اسس جديدة لدور عثماني مؤثر في الخليج العربي (٣٣) وتتمثل هذه المقترحات بالامور التالية :

١ ـ بناء خمس سفن احداها بحرية مسلحة لمقاومة القراصنة ، والاربع الاخرى نهرية من نوع (قروت ، وبريق ، واوسقونة) ، واقترح ثلاثة طرق لتأمين الحصول على هذه السفن وهي : المبادرة ببناء هذه السفن في ترسانة البصرة ، ويتطلب ذلك جلب الأخشاب والمواد الاخرى اللازمة لبناء السفن من الهند مباشرة او عن طريق الكويت ، وكذلك جلب عدد من العمال والمهندسين من الهند او اسطنبول . والطريق الثاني هو استيرادها من احواض بناء السفن في بومباي وكلكتا ! او عن طريق بنائها في ترسانة اسطنبول واضاف ان طريق الشراء الجاهز أو التوصية على بنائها بالمواصفات المطلوبة من الهند يوفر وقتا اقل وكلفة تقل بنسبة ٣٠٪ مما لو تقرر بناء هذه السفن في البصرة او اسطنبول او انجلترا كما ان الاخشاب الهندية المستخدمة في صناعة السفن اكثر مقاومة من الانواع الاخرى وقد استقى معشوق باشا هذه المعلومات من قبطان السفينة الانجليزية العاملة في نقل البريد البريطاني بين الهند وبغداد وكذلك من التجار المترددين على الموانيء الهندية .

٢ ـ تعيين قنصل «شهبندر» عثماني في ميناء بومباي لرعاية المصالح العثمانية في الهند، كالقيام بمعاملات بناء وشراء السفن من الموانىء الهندية، وحماية مصالح التجار من التبعية العثمانية المترددين على الموانىء المذكورة وانقاذهم من الاضطرار الى قبول الحماية البريطانية تحت مغريات الامتيازات والضمانات والتسهيلات التي يحصلون عليها من جراء ذلك سواء في الموانىء الهندية او في عرض البحار. في حين يلاقي التجار واصحاب السفن العثمانيين الرافضين قبول الحماية الأجنبية صنوف الأذى والمعاملة الجافة في الموانىء الهندية، بقصد ارغامهم على قبول الحماية البريطانية وطلب من الباب العالي ان تقوم وزارة الخارجية العثمانية بلفت نظر سفارة انجلترا في اسطنبول وتنبيهها الى العواقب الوخيمة المترتبة على استمرار هذه السياسة التعسفية.

٣ ـ وضع النجمة العثمانية على مقدمة السفن التي يمتلكها رعايا الدولة العثمانية كافة وتزويدهم مجانا بالاعلام العثمانية لرفعها فوق ساريات سفنهم واوامر تحريرية باللغتين العربية والتركية تتضمن منح حامليها الحرمة والرعاية عند دخولهم المياه العثمانية في شط العرب وسائر الجهات الاخرى. وقد اتخذ معشوق باشا هذا الاجراء كرد وقائي على قيام قائد الاسطول البريطاني المتجول في الخليج العربي وساحل عمان بمحاولة فرض الحماية البريطانية على اهالي الكويت والبحرين اذ ان القائد المذكور كلف اهالي الكويت والبحرين قبول الحماية البريطانية مقابل تأمين سلامة سير سفنهم بحرية في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي وطلب منهم اجابته خلال ستة اشهر. ولكن اهالي الكويت والبحرين رفضوا العرض البريطاني بطريقة دبلوماسية.

٤ ـ تأسيس اسطول حربي عثماني يتألف من عدة سفن مسلحة للتجوال في مياه شط العرب والخليج العربي لتأمين الحماية للسفن التجارية العثمانية ولمدينة البصرة بالذات، وكذلك تزويد البصرة بقوة عسكرية برية اضافية لما لذلك من اهمية في امتداد النفوذ العثماني الى الكويت والحسا والقطيف والوقوف بوجه التوسع الايراني.

ومن الجدير بالاشارة ان الدولة العثمانية لم تكن تمتلك اية سفينة بحرية في مياه الخليج العربي ، حربية كانت ام تجارية وكان التجار والحجاج من رعايا الدولة العثمانية يركبون السفن البريطانية الى ميناء جدة بقصد الحج او الى بومباي بهدف المتاجرة وقد خصص الانجليز سفينة بحرية للقيام برحلة سنوية واحدة بين البصرة وجدة في موسم الحج ، مرورا بمينائي بوشهر ومسقط ، وكانت هذه الرحلة تستغرق اثني عشر يوما للذهاب فقط وحققت في عام ١٢٦٦ هـ / ١٨٥٠ م ايرادا مقداره ٣٥٠٠٠ ربيه ، من نقطة انطلاقها في ميناء البصرة ، يضاف الى ذلك ما حققته من ايرادات مضاعفة اثناء مرورها بمينائي بوشهر ومسقط .

لذا طالب معشوق باشا حكومته المركزية بشراء سفينة بحرية من انجلترا او ارسال احدى السفن البحرية الموجودة في ترسانة اسطنبول لاستخدامها في الملاحة مع ميناء جدة في موسم الحج ، بمعدل رحلة او رحلتين ومع بومباي بمعدل اربع رحلات سنويا واكد على ما سوف

تحققه هذه العملية من فوائد مادية ومعنوية ، حيث ستمخر عباب البحر امام السواحل العربية والهندية سفينة يرفرف على ساريتها العلم العثماني . ومن الناحية العسكرية والادارية فان هذه العملية لو تمت فإنها سوف تحقق اتصالات ومخابرات سريعة بين اليمن والبصرة او الحجاز ، ومنها الى اسطنبول .(٣٤)

الهوامش

(١) يمثل الخليج العربي احد الطرق العالمية القديمة الثلاثة (الجنوبي والاوسط والشمالي) التي تربط الشرق بالغرب . فالطريق الاوسط للتجارة الشرقية يمر عبر الخليج العربي وسهول العراق وبلاد الشام الى موانيء الساحل الشرقي للبحر المتوسط . وقد قام هذا الطريق بدور هام في النقل التجاري والبشري والحضاري منذ اقدم العصور حتى افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ . ففقد كثيرا من اهميته واستطاع العرب، اعتمادا على سواحلهم الطويلة التي تسيطر على بعض مداخل ومخارج التجارة الشرقية في البحر العربي والمحيط الهندي ، خلال حقبة طويلة من التاريخ الانساني ان يكونوا اسيادا للتجارة والملاحة المارة عبر الطرق البحرية والبرية الموصلة بين العالمين القديم والجديد وانتشرت مسكوكاتهم ومعارفهم على هذه المسالك بين الصين وشبه جزيرة اسكنديناوة مما يدل على عمق نفوذهم الاقتصادي وتاثيرهم الحضاري .
انظر : د . ابراهيم شريف : الشرق الاوسط «دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق» ، (بغداد ، ١٩٦٥) ، ص ١٧ ، ١٩ ، ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢) كارستين نيبور : مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة سنة ١٧٦٥ ، ترجمة سعاد هادي العمري ، (بغداد ، ١٩٥٥) ص ١٢٠ . ستيفن همسلي لونكريك : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ترجمة جعفر الخياط ، (بغداد ، ١٩٨٥) ط ٦ ، ص ٣٦٢ .
د . عبدالامير محمد امين : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، (بغداد ١٩٦٦) ، ص ٩ ـ ١٢ ، ٦٥ ، ٧٤ ـ ٧٥ .

(٣) د . عبدالامير محمد امين : المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٨٣ .

(٤) الكارة : احد انواع المكاييل المستخدمة وقتذاك ، وتعادل الف اوقية اسطنبولية .

(٥) ارشيف الباب العالي في اسطنبول/تركيا/ ارادة : مجلس والا ، رقم الوثيقة ٥٥٠٠ .

(٦) ارشيف الباب العالي : الوثيقة السابقة .

(٧) ارشيف الباب العالي : ارادة/ خارجية ، رقم الوثيقة ٢١٢٦ ، لف ٦ ، (من

المأمور المخصوص لتحديد حدود ايران محمد امين درويش باشا الى الصدارة ، ٢١ ربيع الآخر ١٢٦٦ هـ /٦ مارس ١٨٥٠م) .

(٨) ارشيف الباب العالي : ارادة/ خارجية ، رقم الوثيقة ٣٢٧٩ ، لف ١ (مذكرة درويش باشا الى متصرف البصرة معشوق باشا ، غرة شعبان ١٢٦٦ هـ / ١٢ حزيران ١٨٥٠ م) .

(٩) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ ، بحرية لف ١ (من متصرف ايالة البصرة اسماعيل معشوق باشا الى الصدارة ، ١٥ شوال ١٢٦٧ هـ /١٥ حزيران ١٨٥١ .

(١٠) ينظر : رود ولف سعيد روث : سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ ـ ١٨٥٦ ، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي ، (مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٢) ، ص ٤١ ـ ٤٧ . د . جمال زكريا قاسم دولة بوسعيد في عمان وشرق افريقيا ١٧٤١ ـ ١٨٦١ ، (القاهرة ١٩٦٢) ، ص ٤٠ ـ ٤٦ . عايشة السيار : دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا في الفترة من ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ ، (بيروت ١٩٧٥) ، ١٨٢ وما بعدها .

(١١) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ (بحرية لف ٣) .

(١٢) ارشيف الباب العالي/ ارادة/ داخلية رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ (بحرية لف ٤) .

(١٣) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ ، بحرية لف ١ .

(١٤) رود ولف سعيد روث : المصدر نفسه ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ . السيدة سالمة بنت السيد سعيد: مذكرات اميرة عربية ، ترجمة عبدالمجيد القيسي (مطبعة جامعة البصرة ، ١٩٨٠) ، ص ١٨٤ ـ ١٨٨ .

(١٥) ارشيف الباب العالي : الوثيقة نفسها .

(١٦) J. R. Wellstead, Travels in Arabia (London 1838) p. 387
وكان ويلستيد ، وهو ملازم في البحرية الهندية ، قد وصل الى مسقط في ٢١ تشرين الثاني ١٨٣٥ . رود ولف سعيد : المصدر نفسه ، ص ١٥٩ .

(١٧) رود لف سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٩ ـ ١٦٤ .

(١٨) رود لف سعيد : المصدر نفسه ، ص ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٧ ـ ٧٦ ـ ١٥٦ .

(١٩) د . ابراهيم شريف : الشرق الاوسط ، ص ٢٥ .

(٢٠) رود لف سعيد : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٢١) كانت القوة العسكرية البريطانية بقيادة السير دبليو كرانت كير ، وتضم السفينة ليفربول المجهزة بخمسين مدفعا ، والسفينة ايدن المجهزة بستة وعشرين مدفعا والسفينة كورلا المجهزة بثمانية عشر مدفعا ، وست سفن اخرى وكان على ظهرها ١٦٠٠ جندي من الاوربيين و١٤٠٠ من الهنود ، زيادة على ثلاث سفن عمانية و٤٠٠٠ جندي عماني . ينظر : رود ولف : المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٨٢ - ٨٣ .
(٢٣) من المعروف ان الاسطول العماني تدخل كذلك في ايلول ١٧٧٥ لفك الحصار الذي فرضه الحاكم الايراني صادق خان على البصرة ، واخذت القطعات البحرية العمانية موقعها في مدخل شط العرب وسيطرت على الشط لفترة من الزمن . وقامت بتأمين وصول المؤن والذخيرة الى المدافعين عن البصرة فعززت صمودهم بوجه الغزاة الفرس . ولكن الاسطول العماني انسحب فجأة وعاد الى بلاده . ويبدو ان ابتعاد الاسطول عن قواعده وخوف سلطان عمان من احتمال قيام الايرانيين بالتعرض الى عمان نفسها وربما مداخلة الانجليز ومشورتهم دفعت العمانيين الى الانسحاب وكان الاسطول العماني المرابط بمدخل شط العرب مؤلفا من عشر سفن كبيرة وعدد اكثر من الغلافات والترانكي والسفن الصغيرة الاخرى . وقد ادت هذه المشاركة العمانية الى حدوث خلاف عنيف بين سلطان عمان ووالي بغداد وذلك لادعاء الاول ان له ديونا في ذمة الوالي الذي اضطر الى تسوية خلافه مع حاكم عمان تجنبا لمجابهة بحرية لا قبل له بها . ينظر : رود ولف سعيد : المصدر نفسه ، ص ٨٦ . د . عبدالامير محمد امين : المصدر نفسه ، ص ٧٣ - ٧٨ .

(٢٤) رود ولف سعيد : المصدر نفسه ، ص ١١٠ ، ١٢٢ .
(٢٥) المصدر السابق ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .
(٢٦) ارشيف الباب العالي : ارادة/ مجلس والا ، وثيقة رقم ٥٥٠٠ .
(٢٧) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١١٠٠٧ (تلطيفات لف ١) ، مذكرة قبودان سليمان باشا الى الصدارة ، ٥ جمادى الثانية ١٢٦٥ هـ / ٢٨ نيسان ١٨٤٩ م .
(٢٨) الكيس : وحدة حسابية عثمانية تساوي ٦٠٠٠٠ آقجة ، او ٥٠٠ قرش او ٢٠٠٠٠ بارة ، والكيس الرومي يساوي ٥٠٠٠٠ آقجة . ينظر : د . مهدي جواد حبيب البستاني : ازمة النقود في ولاية بغداد ومحاولات معالجتها ١٨٢٠ - ١٨٥٦ ، المجلة التاريخية ، تونس، العدد الاول .
(٢٩) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، وثيقة رقم ١٣٨٣٠ (بحرية لف ٢) .
(٣٠) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، وثيقة رقم ١٣٨٣٠ (بحرية لف ١) . من ناظر المالية الى الصدارة ، ١٤ جمادى الثانية ١٢٦٨ هـ .
(٣١) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، وثيقة رقم ١٤٦٤٦ ، بحرية لف ٣ .
(٣٢) ارشيف الباب العالي : ارادة/ داخلية ، وثيقة رقم ١٤٦٤٦ ، (بحرية لف ٤) . مذكرة الصدارة الى السلطان ومصادقة السلطان عليها ، ١٩ ذي الحجة ١٢٦٧ هـ .
(٣٣) ارشيف الباب العالي : ارادة/ مجلس والا ، وثيقة رقم ٥٥٠٠ .
(٣٤) ارشيف الباب العالي : الوثيقة السابقة .

مكانة السّاحل العربي للخ

من القرن السّابع عشر

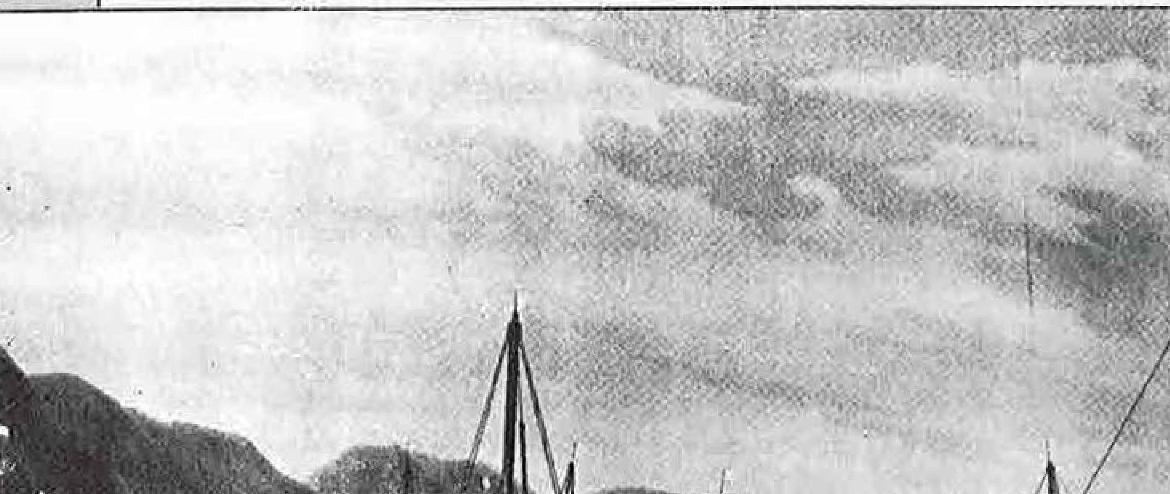
إن هذا البحث هو محاولة لحصر الخرائط الأوربية الموجودة بالمكتبة الملكية ببروكسل والتي يظهر فيها الخليج وبالتحديد الساحل العربي للخليج ، والغرض من هذا البحث هو دراسة وتحليل المحاولات الأوربية لرسم خرائط الخليج العربي ومدى نجاحها ، أو فشلها ، في تصوير الساحل العربي تصويرا علميا سليما ، وخصوصا ما يتعلق بالجانب الطوبونومي أي محاولة نقل أسماء المدن والبلدان والجزر . تشمل هذه الدراسة المدة من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر . وسبب اختيار هذه الفترة هو أن العصر الذهبي للخرائط في أوربا بدأ في القرن السابع عشر بعد عصر النهضة وعصر الاكتشافات الجغرافية الهامة ، وبدء عصر النشاط التجاري والعلمي الذى تبع عصر الاكتشافات الجغرافية . فتقدمت تبعا لذلك صناعة الخرائط ورسمها تقدما كبيرا في ذلك العصر واستفادت من التقدم الذى أحرزته مختلف فروع العلوم في القرن السابع عشر ، كعلم الفلك والعلوم الرياضية والفلسفية الطبيعية والآلات العلمية .

تنتهي الفترة التى نقوم بدراستها في القرن التاسع عشر ، وذلك لانه مع نهاية القرن التاسع عشر تنتهي الفترة التاريخية لذلك العلم لتبدأ المرحلة الحديثة والمعاصرة من تطوره . سنحاول أن نقوم في هذا البحث بدراسة الجانب التاريخي من علم الخرائط وليس ما يدخل منه في نطاق البحث المعاصر ولذلك يجب علينا أن نأخذ نهاية القرن التاسع عشر كنقطة نهاية لهذه الدراسة .

إعداد :
الدكتور
حسام
الخادم

...ليج في الخرائط الأوروبيّة

... إلى التاسع عشر الميلادي



إن أول ما يلاحظه الباحث بصدد هذه الدراسة أنه ليس هناك خريطة خاصة بالخليج العربي وحده ، وانما يظهر الخليج في مجموعة من الخرائط تشمل كل منها وحدة جغرافية أو سياسية أو طبيعية كبيرة ، والخليج يمثل في هذه الحالة جزءا من هذا الكل الأكبر ، مثال ذلك مجموعة الخرائط التى تمثل الدولة العثمانية ، أو شبه جزيرة العرب أو خريطة قارة آسيا أو الدولة الفارسية .كل من هذه الخرائط يشمل الخليج العربي ولكن ليس هناك أي خريطة تختص بالخليج وحده .

اننا نستطيع أن نقسم الخرائط التى يظهر فيها الخليج العربي الى خمسة أنواع :

أولا : الخرائط التى تمثل الدولة العثمانية وملحقاتها .

ثانيا : الخرائط التى تمثل الدولة الفارسية .

ثالثا : الخرائط التى تختص بشبه جزيرة العرب .

رابعا : الخرائط التى تمثل القارة الافريقية ، وخصوصا ساحلها الشرقي .

خامسا : الخرائط التى تمثل القارة الآسيوية في مجموعها .

ان المنطقة التى نقوم بدراستها محدودة بمدار السرطان جنوبا وبخط العرض ٣١ شمالا ، وبخطي الطول ٤٧ غربا و٦٠ شرقا والمدينتان اللتان تمثلان أبعد نقطتين في هذا المستطيل هما مسقط في الجنوب الشرقي والبصرة في الشمال الغربي .

في هذا البحث سنتتبع التدرج التاريخي لتطور الخرائط خلال فترة تبلغ ما يقرب من مائتي عام وبالتحديد من عام ١٦٥٥ الى عام ١٨٥٩ وذلك بدراسة اثنتي عشرة خريطة تعطي في مجموعها صورة صادقة عما تحتويه المكتبة الملكية ببروكسل من خرائط تتعلق بالخليج العربي . هذه الاثنتا عشرة كلها من وضع علماء الخرائط الآتية أسماؤهم :

بطلميوس ، جون بلاو ، يوهان ينسونيوس ، فردريك دي ويت ، بيير دو ڤال ، جان باتست هومان ، جيوم دي ليل ، فرانز لودفج جوسيفيلد ، فيليب ڤاندر مالين وكارل فرديناند ڤايلاند .

وقد وجدنا ضمن هذا المجموع خريطة لا تحمل اسم واضعها .

إن أقدم خريطة تصور الخليج العربي في هذه المجموعة من الخرائط التى ندرسها هنا منشورة في كتاب «الجغرافيا» لبطلميوس (٨٧ - ١٥٠ بعد الميلاد) وهذا الكتاب مع كتابه «المجسطي» يعتبران أهم كتابين في العصور القديمة والوسطى في علمي الخرائط الفلكية والخرائط الأرضية . أن أول طبعة لكتاب «الجغرافيا» هذا ترجع الى سنة ١٤٧٥ وهي كانت بدون خرائط



بطلميوس
، كتاب الجغرافيا .



بطلميوس ، كتاب الجغرافيا ، تفصيل للخليج .

أما أول طبعة للكتاب مزودة بالخرائط فترجع الى سنة ١٤٧٧ وهي طبعة ايطالية مثل الطبعة الأولى .

هذه الخريطة قد طبعت بامستردام في كتاب «الجغرافيا» وهي طبعة قد غفلت عن ذكر التاريخ ، ولكن مؤرخ علم الخرائط رونالد تولي يرجح أن طبعها قد تم سنة ١٦٩٥ . وعنوانها هو «خريطة آسيا وجزيرة العرب السعيدة والخليج» . مساحة الخريطة ٤٩ سم عرضا و٣١.٣ سم طولا . والمنطقة التى تمثلها محصورة بين خطي العرض ١٠ جنوبا و٣٠ شمالا وبين خطي الطول ٦٥ غربا و١٠٥ شرقا .

خط الطول صفر يقع على جزيرة «خييرو» بجزر الكنارى .

ليس هناك أي اسم من أسماء المدن والأماكن المذكورة على هذه الخريطة - برغم عددها الكبير - يمكن التعرف عليه . فرغم أن الشكل العام للخليج يقترب الى حد ما من الشكل الصحيح ، إلا أن أسماء المدن - على الرغم من كثرتها - لا تقترب اطلاقا من تسميتها الصحيحة أو المتعارف عليها .

***

(III 8898, XIV - Turquie d'Europe)

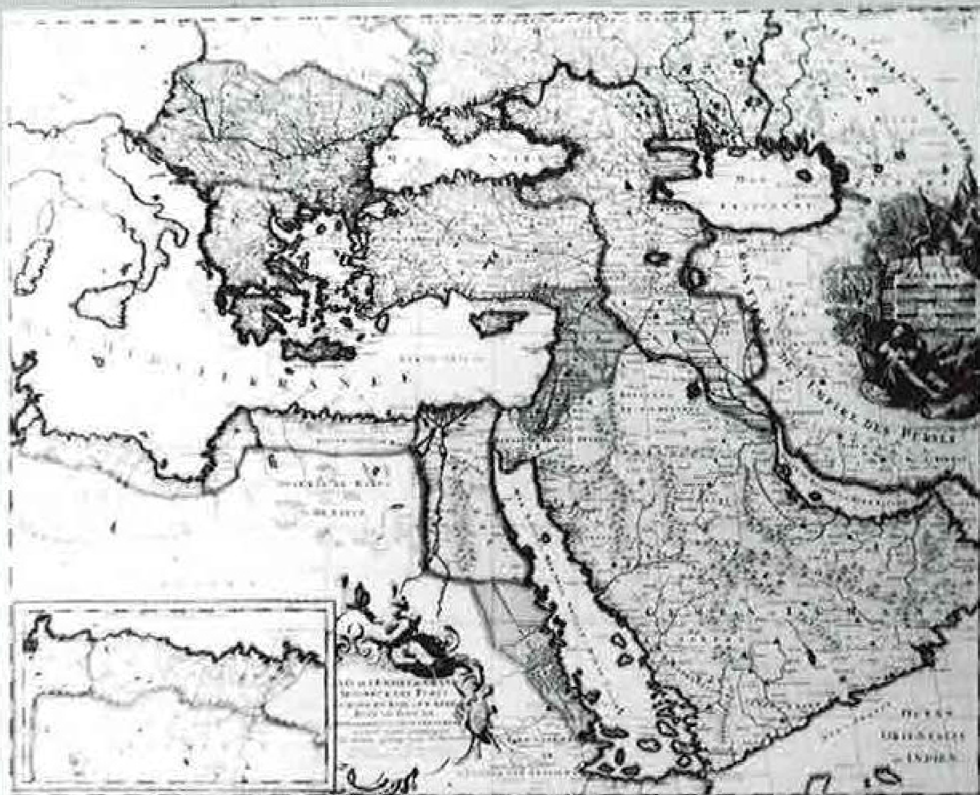
ثاني أقدم خريطة هنا يرجع تاريخها الى سنة ١٦٥٥ وهي تمثل الدول التى تحت السيادة العثمانية في أوربا وآسيا وافريقيا وقد قسمت هنا حسب اختلاف النظام السياسي لكل منها .

واضع الخريطة هو عالم الخرائط الفرنسي نقولا سانسون (١٦٠٠ - ١٦٦٧) جغرافي ورسام الخرائط الخاص بالملك لويس الرابع عشر.

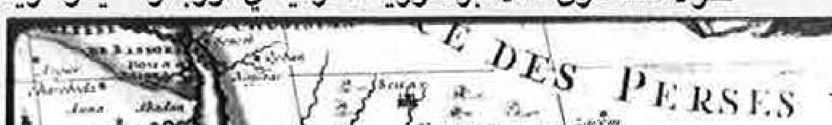
ان تاريخ نشر هذه الخريطة ليس مدونا عليها ، كما هي العادة ، ولكن نذهب الى أن تكون قد نشرت بين عامي ١٦٥٠ و١٦٥٥ - وإن كان فهرس خرائط المتحف البريطاني يعطي التاريخ الأخير ، كما نجده يعطي أيضا عنوان ٤ نسخ مختلفة لهذه الخريطة - على أي الحالات في رأيي أنه يجب أن نأخذ في الاعتبار أن تاريخ رسم هذه الخريطة قد كان بين عام ١٦٣٠ وعام ١٦٦٥ حيث انه قد ذكر على الخريطة نفسها أن سانسون يشغل منصب «جغرافي الملك» ، ونحن نعلم أنه شغل هذا المنصب من عام ١٦٣٠ الى عام ١٦٦٥ .

أن الرقعة التى تمثلها هذه الخريطة تقع بين خطي عرض ١٥ جنوبا و٥ شمالا وبين خطي طول ٢٠ غربا و١٠٠ شرقا .

أما بخصوص مقياس الرسم الذى طبقه سانسون فهو المعروف باسم «المقياس العام الفرنسي» وحتى يتيح الفرصة لمشاهد الخريطة أن يقارن بين



نقولا سانسون ، الامبراطورية التركية في أوربا و آسيا وافريقيا وشبه جزيرة العرب .



نقولا سانسون ، تفصيل للخليج .

هذا المقياس والمقاييس الأخرى ، فإنه قد ذكر المقياس الألماني والمقياس البولندي والمقياس الفارسي والمقياس المجري . ولما كان كل مقياس منها يختلف عن الآخر فإن سانسون قد حرص على اعطاء القيمة القياسية لكل منها .

ان وحدة القياس الفرنسي تعادل اليوم ٤,٤٤٤ كم ، ووحدة القياس الألماني تعادل ٧,٤٠٧٤٠٧ كم ، بينما الفرسخ الفارسي يعادل ٦ كم تقريبا . هكذا أتاح سانسون للقارىء غير الفرنسي أن يتوصل الى تصور المساحة الحقيقية التى قام بوضعها على الخريطة وذلك بتحويل مقياس الرسم الفرنسي الى مقياس بلد الشخص المشاهد للخريطة .

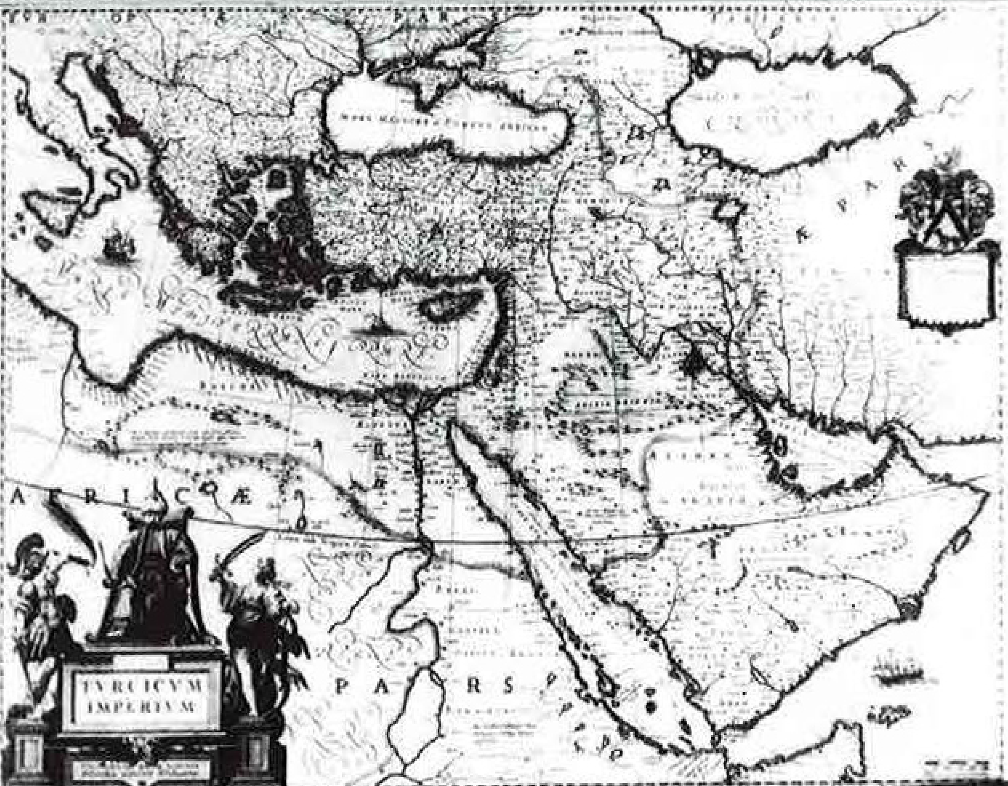
ان الكثير من الخرائط الأوربية يحمل مقاييس رسم مختلفة وذلك قبل توحيد المقاييس الأوربية وتطبيق النظام المتري على جميع الخرائط وفي مختلف البلدان مما يسترعي النظر في هذه الخريطة وجود مستطيل به خريطة مكبرة لمنطقة شمال افريقيا وهذه الخريطة الجانبية تحدد المساحة التى تمثلها بين خطي عرض ٣٠ جنوبا و٣٥ شمالا وبين خطي طول ٣٥ شرقا و١٥ غربا . وهذه الخريطة المكبرة تحتوي على التفاصيل الجغرافية لما كان معروفا عندئذ «بمملكة الجزائر» و «مملكة فزّ» . إن هذا الاهتمام الخاص بشمال افريقيا ـ لدرجة ان سانسون يقوم بعزل المنطقة عن مجمل الخريطة وتكبيرها داخل اطار خاص ـ لدليل على اهتمام الفرنسيين بهذه المنطقة اهتماما خاصا . وهكذا يكشف سانسون ـ بدون قصد منه ـ عن أهمية منطقة شمال افريقيا لفرنسا وذلك حوالي مائة عام قبل الاحتلال الفرنسي لدول المنطقة .

ان الخليج العربي في هذه الخريطة يسمى «خليج البصرة» وهذا دليل على ان مدينة البصرة في القرن السابع عشر كانت أهم مرفأ على الخليج أطلق اسمها على الخليج بأكمله . من بين الأسماء العديدة للمدن والجزر المذكورة على هذه الخريطة يمكن التعرف على عدد قليل منها مثل دبا (Doba) ، القطيف (el Catif) ، البحرين (Bahr al Bahrain) ، البصرة (Bosra al Bassora) .

***

(BLAEU, J. Geographie Blauiane, contenant l'Asie, Amsterdam, Blaeu, 1667) VB 7590 D L.P.

هذه الخريطة من رسم جون بلاو John Blaeu نشرها بمدينة امستردام



جون بلاو ، الامبراطورية التركية .

في هذا المجلد الذى يشتمل على خريطة قارة آسيا وذلك عام ١٦٦٧ (ص٥) .
هذه الخريطة نفسها قد نشرت بعد ذلك تحت عنوان آخر هو خريطة «الامبراطورية التركية» ولكن اذا دققنا النظر وقارنا بين هاتين الخريطتين وجدنا اختلافا ظاهرا بينهما .

أولا : تظليل الاطار الخاص بالخريطة وكذلك تظليل البحار والأنهار يختلف في الخريطتين .

ثانيا : في الركن الأيمن السفلي من خريطة «الامبراطورية التركية» نستطيع أن نقرأ العبارة «[طبعت] على نفقة يوهانس يانسونيوس وهي أكثر دقة مما سبقها [من الخرائط]» وهي عبارة لا وجود لها على الخريطة التى ننشرها هنا .

ثالثا : على الخريطة التى تعنينا هنا وفي الجانب الأيمن منها نجد شعار نسب دافيد دي ولهلم وتحته عبارة اهداء الخريطة اليه ، وهما لا يوجدان على خريطة «الامبراطورية التركية» المشار اليها .

هناك خريطة أخرى من وضع عالم الخرائط الهولندي جون بلاو قام بنشرها في نفس المجلد ص١٢٧ ومساحة الخريطة هي ٤٨ سم عرضا و٣٦ سم طولا . والرقعة المرسومة هنا يحدها خطا العرض ٢٠ جنوبا و٤٥ شمالا وخطا الطول ٦٥ غربا و١٢ شرقا .

من الواضح حسب المذكور في اطار عنوان الخريطة أن موضوعها الأساسي هو «فارس أو الدولة الصفوية» ولكن رغم ذلك فإن الساحل العربي للخليج مرسوم بتفصيل ملحوظ مما يدل عل أهميته في نظر الأروبيين .

أما فيما يتعلق بمقياس رسم الخريطة فإن بلاو يوضح ذلك في نص باللغة اللاتينية «مقياس الرسم هو الفرسخ وهو يساوي ٣٠٠٠ قدم بواسطته يقيس الفرس اليوم المسافات وكذلك العرب (Mauzes) الذين يحتلون جزءا كبيرا من آسيا ، وإن وحدة القياس هذه وكذلك المصطلح «فرسخ» هما مرادفان للمصطلح القديم «بارسانج» ، أما باقي الآسيويين فيحسبون المسافات بعدد الأيام التى يقطعونها من مكان لآخر» .

ان جون بلاو يعطي هنا كلا من مقياس الرسم بالفرسخ ومقياس الرسم بالقياس الألماني ويضع الواحد تحت الآخر حتى يتسنى للمطلع على الخريطة أن يقارن بين المقياسين . هذا دليل على الدقة والعناية التى تميزت بها الخرائط الأوربية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وبوجه الخصوص الخرائط الهولندية والبلجيكية .

ان عددا محدودا جدا من المدن المذكورة على هذه الخريطة ـ فيما يتعلق بالخليج ـ يمكننا التعرف عليه : مسقط (Moscella) ، صحار (Soar) ، دبا (Doba) ، كلبا (Calba) ، الكويت (Quezimi) ، البصرة (Bacora al Balsera) .

هناك أربع ملاحظات حول هذه الخريطة :

اولا : ان المدن والقرى يرمز الى كل منها بعلامة خاصة تدل المطلع على الخريطة على مدى كبر كل منها وأهميتها .

ثانيا : ان اسم الكويت ـ مُحرف هنا الى (Quezimi) ـ وقد كُتب على جزيرة بوبيان وليس على الشاطىء المواجه لها والذى هو موقع الكويت الحقيقي .

ثالثا : بجانب البحرين يحرص جون بلاو على كتابة الآتي : «البحرين ، حيث يوجد الكثير من اللؤلؤ» .

جون بلاو ، فارس
أو الدولة الصفوية
، طبعة سنة ١٦٦٣
، تفصيل يوضح
شعار سيمون هورن



جون بلاو ،

فارس أو الدولة الصفوية .



رابعا : في الجانب الأيمن الأسفل يوجد شعار نسب لم يتم الانتهاء من رسمه . هذا الشعار هو شعار سيمون ڤان هورن ، قنصل وسناتور مدينة أمستردام وذلك كما يظهر في طبعة سنة ١٦٦٢ من نفس الخريطة .

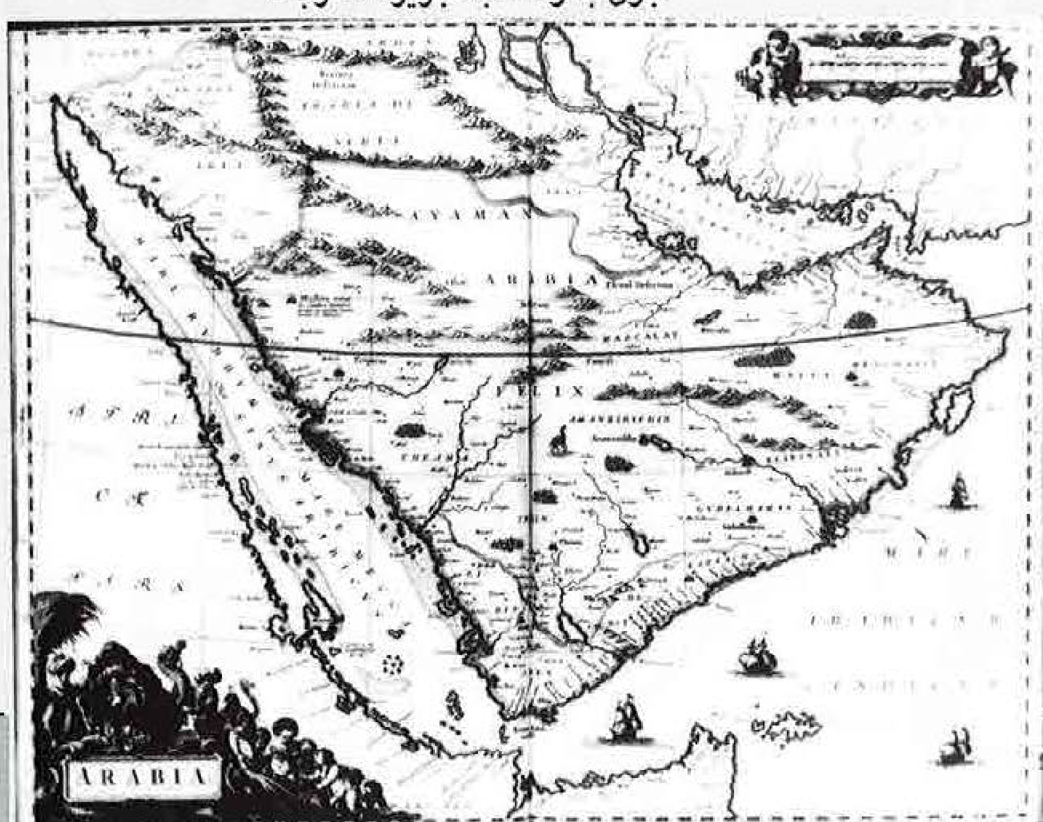
***

هذه خريطة أخرى لجون بلاو بنفس المجلد (ص١١١) تمثل منطقة الخليج وعنوانها «شبه الجزيرة العربية» (Arabia) . ونرى حول الاطار الخاص بعنوان الخريطة تمثيلا رمزيا لسكان شبه الجزيرة .

والرقعة التى تمثلها الخريطة محددة بين خطي العرض ١٠ جنوبا و٣٠ شمالا وبين خطي الطول ٦٠ غربا و٩٠ شرقا ، أما مقياس الرسم رسم الخريطة فهو الميل الألماني .

يصاحب هذه الخريطة نص يقدم فيه جون بلاو - الذى كان الجغرافي الرسمي لشركة الهند الشرقية من عام ١٦٣٨ الى عام ١٦٧٣ - للمطلع على الخريطة المعلومات الأساسية عن شبه جزيرة العرب ولدينا بعض الملاحظات على هذا النص :

جون بلاو ، شبه جزيرة العرب .



أولا : هذا النص دليل على اهتمام الجغرافيين وعلماء الخرائط الأوربيين بمنطقة الخليج . فحتى وان كانت المعلومات التى ينشرها هنا جون بلاو مبتورة ومجزأة إلا أنها في حد ذاتها ذات أهمية كبيرة للأوربي الذى يريد زيارة المنطقة لغرض تجاري أو دبلوماسي مثلا .

ثانيا : ان بعض المعلومات التى يقدمها بلاو على جانب قليل من الدقة مما يجعلنا نتساءل من أين تأتى له الحصول على هذه المعلومات ؟ فهو مثلا يواظب على ذكر أسماء المدن والقرى بشكل منتظم بدون أن يراعي في ذلك مدى صحة الأسماء ومطابقتها للواقع .

ثالثا : رغم هذا العيب فإن هناك بعض المدن التى يمكننا التعرف بسهولة على أسمائها ، بينما البعض الآخر من المستحيل التعرف عليه . سبب ذلك هو : إما أن نقل المعلومات عن طريق المسافرين والبحارة الى الجغرافيين وعلماء الخرائط كان يتم بطريقة عشوائية أدت الى تشويه أسماء المدن والقرى ، وإما أن هذه الأسماء قد تغيرت في الخليج منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر حتى الآن . مثال ذلك «جلفار» التى أصبحت فيما بعد «رأس الخيمة» .

إذا كان الأمر كذلك فإنه يجب في كلتا الحالتين دراسة أسماء مدن المنطقة وقراها وجزرها دراسة تاريخية طوبونيمية (Toponymy) وتتبع التغيرات التى طرأت على هذه الأسماء وأسبابها وذلك بالرجوع الى أقدم المصادر المكتوبة والشفهية .

إن أسماء المدن التى يمكن التعرف عليها بالساحل العربي للخليج في هذه الخريطة هي :

مسقط (Mascate) ، صحار (Soar) ، جلفار (Julfar) ، دبا (Doba) ، القطيف (Katife) ، البصرة (Basora) .

وهناك ملاحظتان في هذا الصدد :

أولا : يحرص جون بلاو على تسمية المدخل الشرقي للخليج العربي باسم «مضيق البصرة» (Basora Fretum) وليس «بمضيق هرمز» (Strait of Hormuz) كما هو الحال الآن .

ثانيا : يبين بلاو موقع جلفار داخل البلاد وليس على ساحل الخليج كما هو الواقع .

***



يوهان ينسونيوس ، الامبراطورية التركية ، تفصيل للخليج



يوهان ينسونيوس ، الامبراطورية التركية .

(Turquie 11)

هذه الخريطة «للامبراطورية العثمانية» ـ كما يدل عنوانها ـ من وضع عالم الخرائط الهولندي يوهان ينسونيوس . مقياسها كالآتي : ٥٠,٣ سم عرضا و٣٨,٨ سم طولا . والرقعة التى تمثلها الخريطة تقع بين خطي عرض ١٠ جنوبا و٤٥ شمالا وبين خطي طول ٣٠ غربا و١٠٠ شرقا . أما مقياس رسم الخريطة فهو الميل الألماني .

في الركن الأيمن السفلي للخريطة مذكور باللغة اللاتينية ما مؤداه أن هذه الخريطة قد طبعت على نفقة يوهانس ينسونيوس وانها أكثر دقة مما سبقها من خرائط هذه المنطقة .

يوهان ينسونيوس ولد ومات بهولندا بين عامي ١٥٨٨ و١٦٨٨ . نشر مجموعة من الاطالس بالاشتراك مع عالم الخرائط هنري هونديوس . ثم نشر بمفرده بعد ذلك خرائط لفرنسا وايطاليا سنة ١٦١٦ . بعد ذلك قام بنشر أطلسه الكبير في احد عشر جزءا .

إن الأسماء الوحيدة التى يمكننا التعرف عليها من بين الأسماء العديدة لمدن الخليج التى يذكرها ينسونيوس هي دبا (Doba) والبحرين (Baharen) أما باقي الأسماء فهي محرفة لدرجة لا تسمح لنا بمعرفة أصلها العربي . هناك ملاحظات يمكننا ذكرها بهذا الصدد :

أولا : بجانب اسم البحرين يذكر ينسونيوس العبارة الآتية «هنا كمية كبيرة من «اللؤلؤ» ، وتلك اشارة منه الى ثراء البحرين باللؤلؤ واشتهارها بتجارته في أوربا إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر .

ثانيا : ان الخليج العربي مذكور في هذه الخريطة تحت اسم «بحر القطيف» ، وهذا دليل آخر على شهرة المنطقة الموجودة حول البحرين وقوة نفوذها في القرن السابع عشر ، لدرجة ان الجغرافيين الأوربيين يطلقون اسم احد موانى هذه المنطقة على الخليج بأكمله .

ثالثا : ان اسم «البحرين» الذى كان يطلق أصلا على الجزء الغربي من ساحل الخليج المقابل لجزيرة البحرين وأيضا على الجزر المجاورة ، نجده قد أطلق هنا على جزيرة البحرين فقط ، ولم يطلق ـ كما هي العادة في خرائط هذه الفترة عموما ـ على الساحل وعلى الجزر المقابلة له أيضا .

رابعا : ان ينسونيوس قد حرص على بيان مدى انتشار التجارة بين أوربا ومنطقة الشرق الأوسط وذلك برسم سفينتين أوربيتين في بحر العرب وسفينة عربية بالقرب من الشاطىء الغربي لجزيرة قبرص .

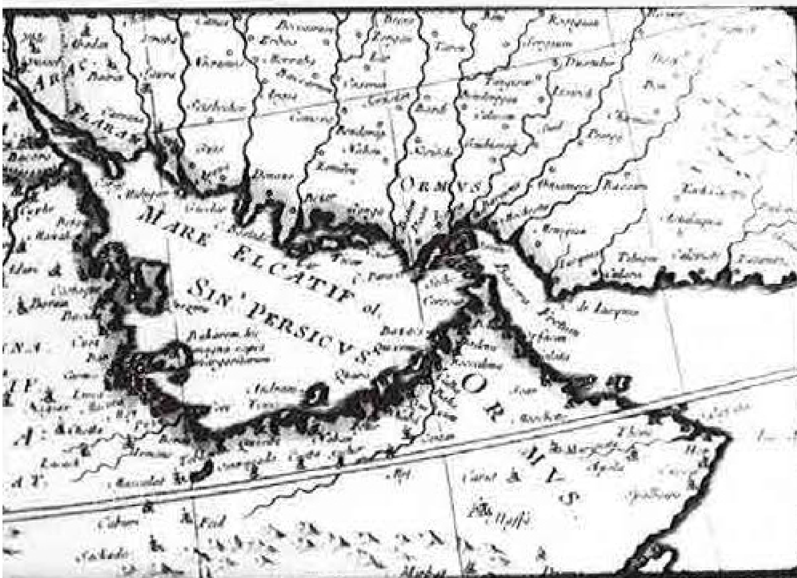
***

(Turcium Imperium, 41 ter)

الخريطة للامبراطورية التركية من رسم عالم الخرائط الهولندي فردريك دي ويت ، ولد عام ١٦١٠ ومات عام ١٦٩٨ .

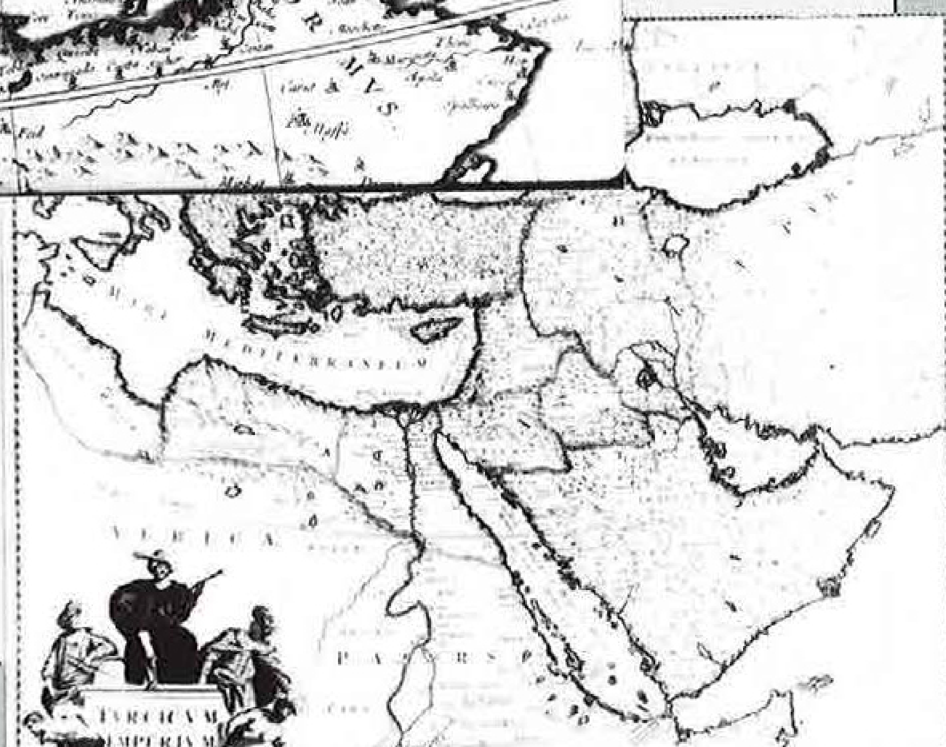
ان الخريطة التى أمامنا تغطي المساحة بين خطي العرض ١٠ جنوبا و٤٨ شمالا وخطي الطول ٢١ غربا و١٠٥ شرقا .

قد حرص فردريك دي ويت على تلوين الحدود السياسية التى تفصل بين



دي ويت ،
تفصيل للخليج .

دي ويت ،
الامبراطورية التركية



الدول المختلفة . كما قام بتلوين مختلف الجزر .

في الجانب الأيمن السفلي مكتوب أن هذه الخريطة «من نقش يوهانس لويليه بأمستردام» مقياس رسم الخريطة هو الميل الألماني وكل ١٥ ميلا ، أي ما يقرب من ١١١ كيلو مترا ، مساحة الخريطة هي : ٥٥ سم عرضا و٤٧ سم طولا .

من بين أسماء المدن التى يمكننا التعرف عليها في هذه الخريطة المدن الآتية :

مسقط (Moschetto) ، صحار (Soar) ، خورفكان (Orfacan) ، رأس الخيمة (Roccalima) ، دبا (Doba) ، البصرة (Bassora) ، البحرين (Baharen) .



دي ويت
تفصيل للخليج



دي ويت ، فارس وأرمنيا وأناطوليا وجزيرة العرب ، مثال آخر .



دو ڤال ،
امبراطورية
الترك في أوربا
وآسيا
وافريقيا .



دو ڤال ، تفصيل الخليج

(XVI Turqui d'Asie, 1686, Du Val, III 9643).

هذه خريطة الجزء الآسيوي من الامبراطورية التركية في القرن السابع عشر من رسم عالم الخرائط الفرنسي بيير دوفال عرضها ٥٢,٤ سم وطولها ٣٦,٨ سم . هذه المساحة من الدولة العثمانة تقع بين خطي عرض ٢٠ جنوبا و٥٠ شمالا وبين خطي طول ٣٥ غربا و١٠٠ شرقا .

عنوان الخريطة كما هو موضح في المربع الخاص بذلك هو الآتي :

«امبراطورية الترك في أوربا وآسيا وافريقيا موضح عليها بعض الطرق الرئيسية للقوافل من رسم پ . دو ڤال جغرافي الملك ، [تباع] في باريس عند المؤلف على رصيف الساعة بجانب قصر [الملك] . صاحب الامتياز هو جلالة [الملك] ١٦٨٦» .

ولد بيير دو ڤال عام ١٦١٨ بمدينة أبي ڤيل وتوفي عام ١٦٨٣ بمدينة باريس .

في هذه الخريطة جزء من الساحل العربي للخليج ليس ظاهرا بالمرة ، لذلك ستقتصر دراستنا للخريطة على الجزء المرسوم من الخليج فقط .

أهم ما نلاحظه هنا هو ذكر اسم الخليج بهذه الكيفية :

«خليج البصرة آخر بحر القطيف فيما سلف خليج فارس» .

قد يطلق رسامو الخرائط اسم خليج البصرة أو خليج القطيف على الخليج عامة . والأمر الذى يسترعى النظر هو أن بيير دوڤال يذكر أن الاسم السالف للخليج هو «خليج فارس» . وهذا قطعا دليل على مدى أهمية الساحل العربي وبلدانه في نظر الأوربيين لدرجة ان عالم خرائط كدو ڤال يطلق اسم مدينتين عربيتين على الخليج كله . الا أن هذه التسمية للخليج ربما تدل على أن أهمية فارس في نظر الأوربيين في القرن السابع عشر قد تدهورت لدرجة أن بيير دوفال يشير الى أن اسم «خليج فارس» هو الاسم «السالف» للخليج وان كان حاليا يحمل اسم احدى المدن العربية .

دليل اخر يمكن استنتاجه من هذه الخريطة هو الأهمية الخاصة التى بدأت البلاد العربية تحتلها في نظر الأوربيين ابتداء من القرن السابع عشر من ذلك أن بيير دو ڤال أطلق على الجزء المواجه للساحل المصري من البحر الأبيض المتوسط اسم «بحر مصر» .

هاتان الملاحظتان يجب أن تدعما بدراسة تفصيلية للعلاقات الدبلوماسية والسياسية والتجارية بين الشرق العربي والدولة الفرنسية في النصف الثاني من القرن السابع عشر حتى تتاح لنا معرفة الدوافع التى جعلت عالم خرائط فرنسي مثل دو ڤال يطلق هذين الإسمين على ممرين مائيين هما الخليج وجزء من البحر الأبيض المتوسط .

دليل آخر على اهتمام الدول الأوربية ومنها فرنسا بمنطقة الدول العربية ـ كما نستطيع أن نستنتج من هذه الخريطة ـ هو عزل دو ڤال منطقة شمال افريقيا في اطار خاص أسفل الخريطة من جهة الشمال مع تكبير للمنطقة . وهذا طبعا دليل على الاهتمام الخاص الذى تعلقه فرنسا بشمال افريقيا ، وبالتحديد بتونس والجزائر والمغرب . كما يطلق دو ڤال ، في هذه الخريطة ، على الجزء المواجه للجزائر من البحر الأبيض المتوسط اسم «بحر الجزائر» .

تكتسب هذه الخريطة أهمية خاصة إذ أنها تعطي لنا طرق القوافل ، أي الطرق التى اتخذتها للتجارة والحج والسياحة في الشرق الأوسط عموما وكذلك عبورا من الشرق الأوسط الى مختلف بلاد أوربا والبعض من بلدان الشرق الأقصى.

عين بيير دو ڤال طرق القوافل على هذه الخريطة بواسطة خطوط تصل المدن والقرى ومحطات القوافل بعضها ببعض ممثلا كلا منها بدائرة صغيرة . وشبكة القوافل هذه تصل افريقيا وآسيا وأوربا معا . في حين أن طرق القوافل المتجهة الى الشرق الأقصى للأسف غير كاملة . سبب ذلك أن الخريطة محدودة من جهة الشرق بخط الطول ٩٠ .

هذه الخريطة لبيير دو ڤال كانت جزءا من مجموعة خرائط «المؤسسة الجغرافية» لعالم الخرائط البلجيكي فيليب فاندر مالين قبل أن تصبح اليوم جزءا من مجموعة خرائط المكتبة الملكية ببروكسل .

***

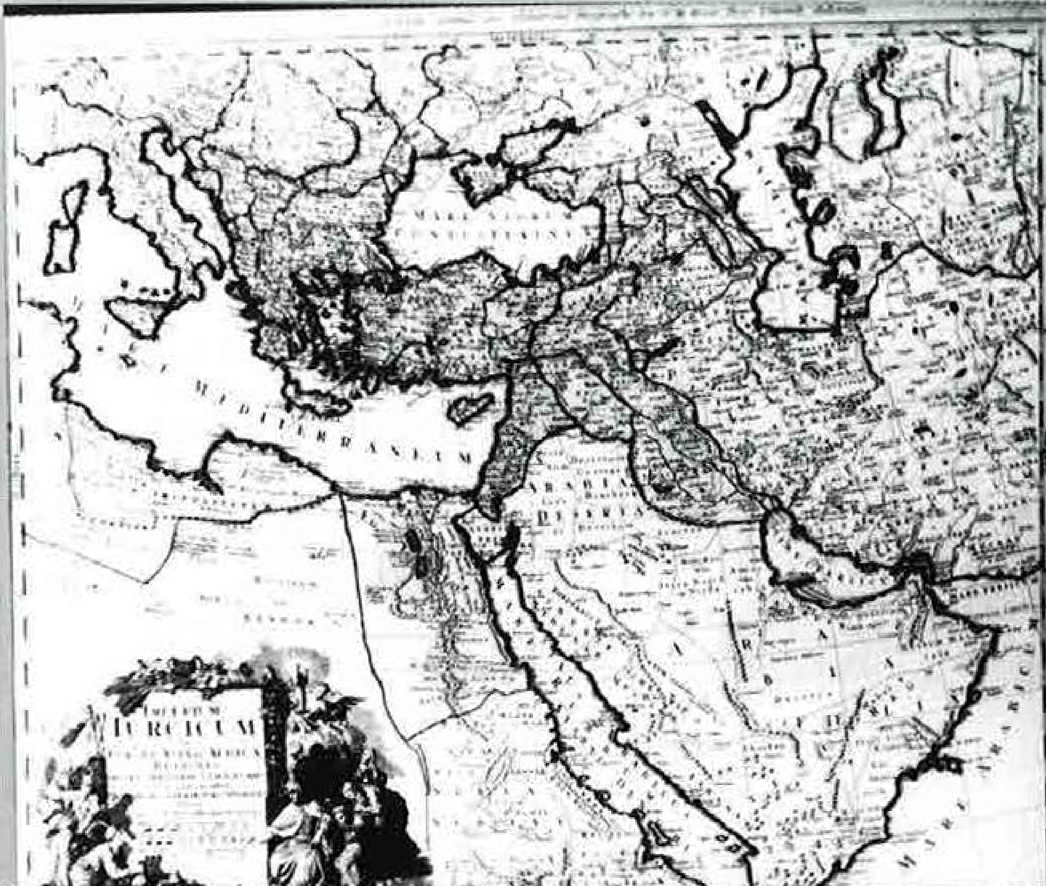
(No. 165, Turquie No. 41)

هذه الخريطة من وضع عالم الخرائط الألماني جان باتست هومان رسمها بناء على تقارير جغرافية لعالم الخرائط الفرنسي دي ليل ومؤدي عنوان هذه الخريطة هو الآتي : «خريطة الامبراطورية التركية في أوربا وآسيا وافريقيا التى تظهر فيها الأقاليم التى ترجع الى الامبراطورية التركية ذاتها وكذلك الأقاليم التى تدفع الجزية للامبراطورية والأقاليم الموالية لها وجميع الأقاليم التى ترجع ادارتها الى الامبراطورية التركية» .

مساحة هذه الخريطة هي : ٥٧,٧ سم عرضا و٤٨,٥ سم طولا وهي تشمل المنطقة بين خطي العرض ١٥ جنوبا و٤٥ شمالا وبين خطي الطول ٢٥ غربا و٨٥ شرقا .

ان نقطة البداية لخطوط الطول هنا ـ أي خط الطول صفر ـ هي خط طول مدينة باريس .

في هذه الخريطة يوضح هومان مقياس الرسم الذى اختاره بمقارنته بمقاييس رسم أخرى فهو لذلك يذكر أنه بمقارنة وحدة القياس اختارها بالميل



هومان ، الامبراطورية التركية و آسيا و افريقيا التى تظهر فيها الأقاليم الموالية لها .



هومان ،
تفصيل
للخليج .

الألماني (٧٫٤٠٧٤٠٧ كم) يتضح أن كل ١٥ ميلا تعادل درجة واحدة ، أما بالنسبة للميل التركي فإن كل ٤٠ ميلا تعادل درجة واحدة ، وأما الميل الايطالي ـ وهو يساوي الميل البحري التركي ـ فإن كل ٦٠ ميلا تعادل درجة واحدة .

وفيما يتعلق بالجزء الخاص بالخليج العربي في هذه الخريطة فإنه يمكن أن نشير الى الملاحظات الآتية :

أولا : بخصوص الساحل العربي من الخليج فإن عدد المدن التى يذكر هومان أسماءها محدود . ومن بين المدن السبع المذكورة هنا يمكننا التعرف على الأربع التالية :

جلفار (Julphar) ، الشارقة (Cataragda) ، القطيف (Elcatif) ، البحرين (I. Bahrien) .

هذا دليل على أن هذه الخريطة التى ترجع الى القرنالثامن عشر على درجة معقولة من الدقة بالمقارنة مع خرائط القرن السابع عشر التى تناولناها حتى الآن بالرغم من أن عدد المدن المذكورة محدود جدا .

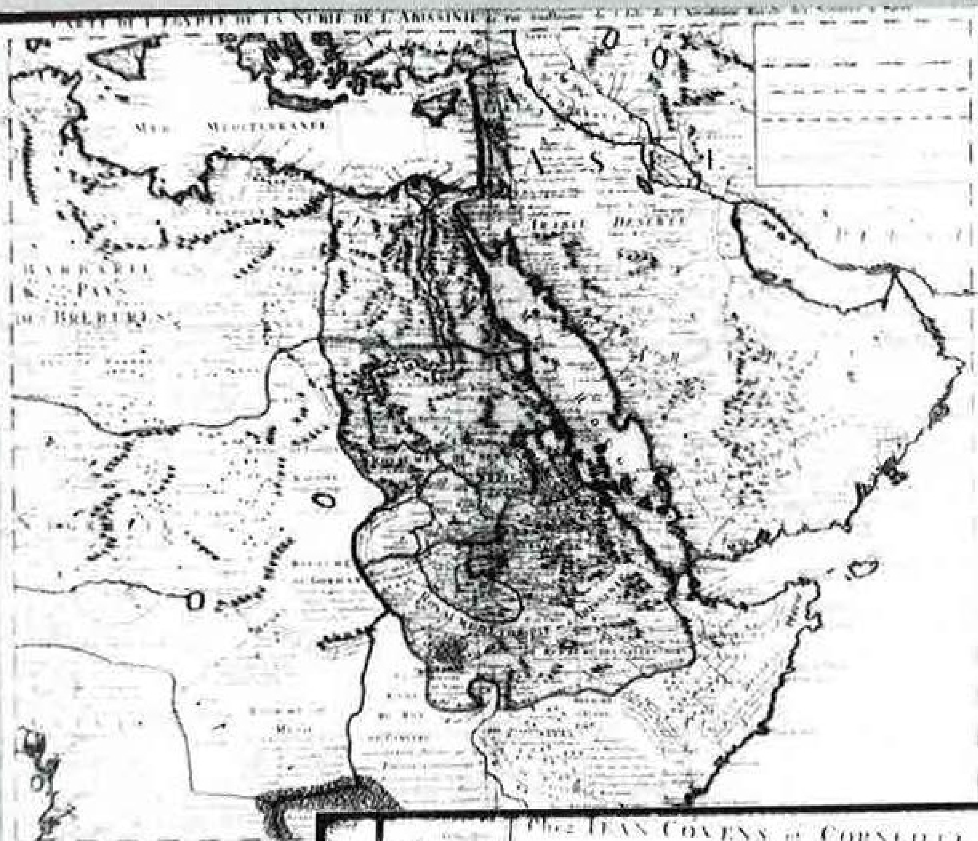
ثانيا : من الجدير بالذكر ان المكتبة الملكية ببروكسل تملك نسخة أخرى من هذه الخريطة (P. E. Turquie 46) وهي ملونة تلوينا مختلفا عن النسخة الثانية التى ننشرها هنا وهي مع ذلك أكثر وضوحا من هذه النسخة فهذا دليل على أن النسخة أحدث من نسختنا هذه ، وذلك لأن نقش الخريطة على اللوحة النحاسية ـ استعدادا لطبعها ـ كان قد تسبب في بهوت لونها قليلا وذلك من كثرة الاستعمال نتيجة طبع نسخ متتالية منها .

***

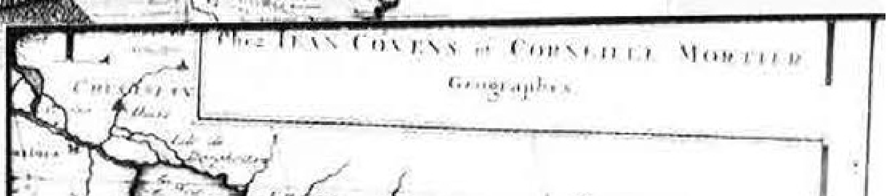
(II 47595 D, Carte & Plans)

هذه الخريطة من وضع عالم الخرائط الفرنسي جيوم دي ليل قام بنشرها سنة ١٧٢٣ في أطلسه الذى ظهر في أمستردام والذى يحمل العنوان الآتي : أطلس جديد ، يحتوى على جميع أجزاء العالم يذكر بدقة الامبراطوريات والممالك والدول والجمهوريات» .

عنوان الخريطة التى نحن بصدد دراستها هو الآتي : «خريطة مصر والنوبة والحبشة من عمل جيوم دي ليل عضو الاكاديمية الملكية للعلوم بباريس» . مقياس الخريطة هو ٥٨ سم عرضا و٥٤ سم طولا . والمساحة التى تغطيها تقع بين خطي عرض ٥ جنوبا و٣٥ شمالا وبين خطي طول ٣٠ غربا و٧٠ شرقا .



دي ليل ،
مصر
والنوبة
والحبشة .



دي ليل ، تفصيل للخليج .

أما فيما يتعلق بمقياس رسم الخريطة فإن جيوم دي ليل يعطي المقاييس الآتية :

١ ـ لكل ٢٠ ميلا بحريا (٥,٥٥٥ كم) ما يقابل درجة واحدة .

٢ ـ لكل ٢٥ ميلا فرنسيا عاديا (٤,٤٤٤ كم) ما يقابل درجة واحدة .

مدن الساحل العربي للخليج والتى يذكرها جيوم دي ليل في هذه الخريطة هي الآتية :

مسقط (Mascate´) ، عُمان (Oman) صحار (Isle de Sohar) ، اطلال صحار (Ruines de Sohar) ، جلفار (Julphar au Gidffar) ، تاروت (Tarout) ، القطيف (El- Catif) ، البحرين (I. de Bahrein) ، شط العرب (Le Schatel Arab R.) ، البصرة .

هناك ثلاث ملاحظات حول هذه الخريطة .

أولا : قد كتب جيوم دي ليل على سطح الخليج في مواجهة الساحل العربي العبارة التالية «صيد اللؤلؤ» وهذا لشهرة المنطقة ونشاطها كمصدر أساسي من مصادر الحصول على اللؤلؤ .

ثانيا : كتب كذلك على الساحل الفارسي للخليج العبارة الآتية : «ساحل مسكون بالعرب» .

ثالثا : ان خريطة جيوم دي ليل هذه لتعتبر من أكثر الخرائط التى تعرضنا لتحليلها حتى الآن دقة ورغم قلة عدد المدن التى يذكرها في الساحل العربي للخليج نجد أن كل الأسماء تقريبا صحيحة ومطابقة للواقع .

***

(Turquie, Empire, Turquie en general 33)

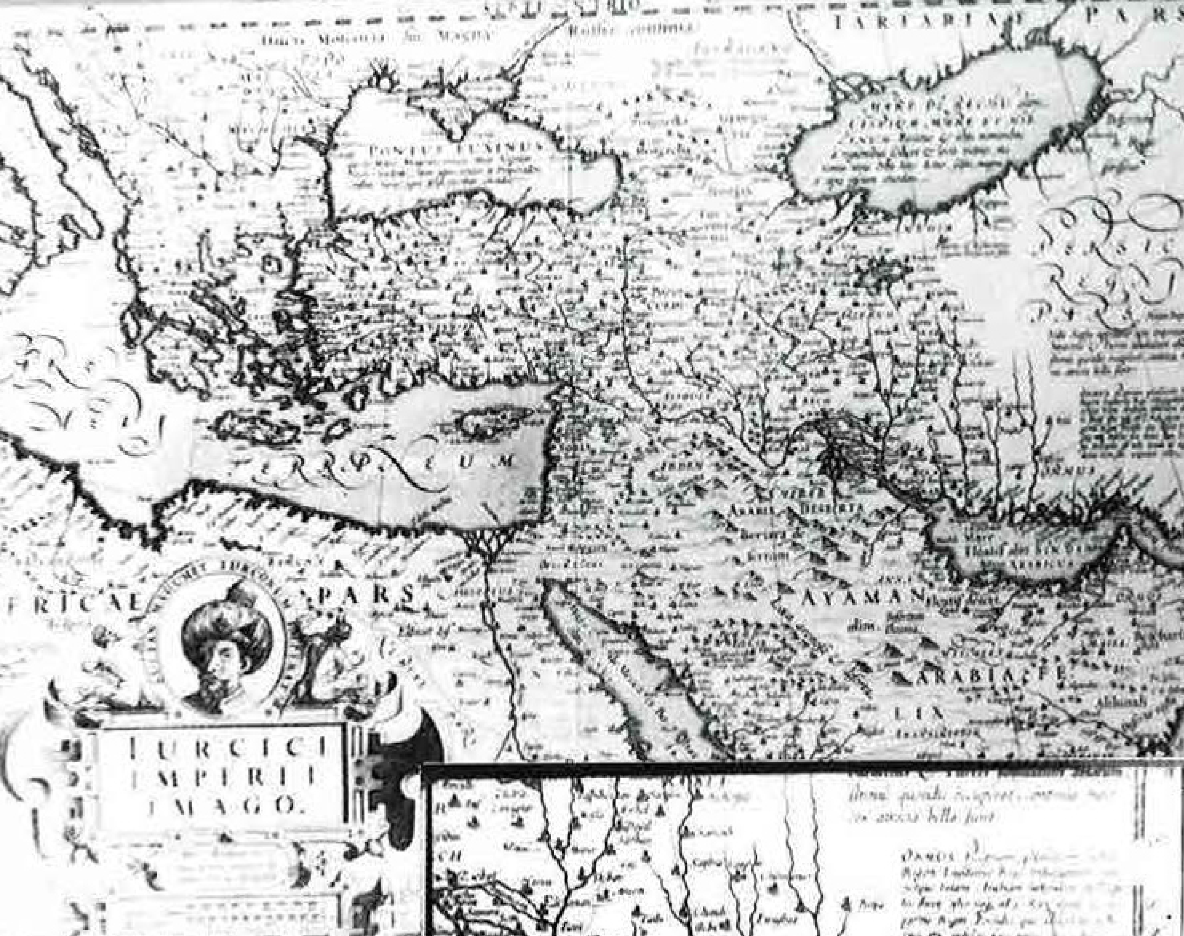
واضع هذه الخريطة غير معروف فهي لا تحمل أي اسم لعالم خرائط ، وهي لا تحمل كذلك تاريخ وضعها . لذلك فمن المهم دراستها لعلنا نستطيع أن نحدد ـ ولو بالتقريب ـ تاريخ وضعها ، وهذا ما سنحاول أن نقوم به هنا .

مساحة الخريطة : ٤٦,٣ سم عرضا و٣٤,٥ سم طولا . وهي محصورة بين خطي العرض ١٠ جنوبا و٥٠ شمالا وبين خطي الطول ٤٠ غربا و١٠٠ شرقا .

فيما يتعلق بمقياس الرسم فإن واضعها يعطينا المعلومات الآتية :

كل ٩٠ ميلا ألمانياً (٧,٤٠٧٤٠٧ كم) ممثلة على الخريطة بدرجة واحدة ، وكل ٣٦٠ ميلاً ايطالياً ممثلة كذلك بدرجة واحدة .

فوق مقياس الرسم نجد صورة للسلطان العثماني محمود ، والنص



مجهول ،
الامبراطورية التركية .



مجهول ، الامبراطورية التركية تفصيل للخليج .

المصاحب للصورة لا يمكننا من معرفة السلطان المعنى بالأمر لأن اسم «محمود» حمله سلطانان عثمانيان ، فهل هو السلطان محمود الأول (١٦٩٦ ـ ١٧٥٤) أم السلطان محمود الثاني (١٧٨٤ ـ ١٨٣٩) ؟ الا أن هناك دليلا في هذه الخريطة يسمح لنا بأن نحدد أيا من السلطانين كان في الحكم وقتئذ .

وذلك أن الجزء الخاص باليونان يعطي الانطباع أنه في وقت وضع هذه الخريطة كانت اليونان قد حصلت على استقلالها من الدولة العثمانية .

فإذا علمنا أن استقلال اليونان عن الامبراطورية العثمانية تم عام ١٨٢٩ استنتجنا أن السلطان محمود الذى نرى صورته هنا هو السلطان محمود الثاني ، أي أن تاريخ هذه الخريطة يرجع الى ما بين عام ١٨٢٩ وعام ١٨٣٩ ، أي الى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

مثل هذا التطبيق للمنهج العلمي المستعمل في علم الخرائط يعد محاولة لتحديد تاريخ الخرائط التى أغفل واضعوها ذكر تاريخ نشرها .

يشير عنوان هذه الخريطة الى انها تتعلق بجزء من مملكة فارس ويشير كذلك الى دور ملك هرمز في الخليج كممثل لملك البرتغال .

هناك بعض الملاحظات التى يمكن الاشارة اليها :

أولا : إن طول الخليج من الجهة الغربية مبالغ فيه ، فهو طبقا لهذه الخريطة يتوغل في الأراضي العراقية أكثر مما هو عليه في الواقع بكثير .

ثانيا : كتب اسم البحرين في هذه الخريطة على جزيرة البحرين فقط وليس على كل من الجزيرة والساحل المقابل لها ـ كما هو الحال في معظم الخرائط التى درسناها هنا .

ثالثا : اسم الخليج على هذه الخريطة هو الآتي «بحر القطيف أو الخليج العربي» .

رابعا : من الواضح أن هذه الخريطة هي نسخة لخريطة أخرى أقدم منها ربما ترجع الى القرن السابع عشر أو حتى أقدم من ذلك . سبب ذلك أن الخريطة التى أمامنا لها نفس الهيئة العامة للخرائط التى ظهرت قبل القرن التاسع عشر وخصوصا خرائط القرن السابع عشر وما سبقه .

سبب أخر يدفعنا الى هذا الفرض وهو أن مدن الخليج المذكورة على هذه الخريطة تطابق من حيث العدد والاسم معظم خرائط القرن السابع عشر وما قبله ، فهي في ذلك مختلفة في عدد وأسماء مدن الخليج التى ظهرت في خرائط القرن التاسع عشر والتى تتميز عند مقارنتها بما سبقتها بالدقة والمطابقة للواقع .

***

(Orient, A.F., 1802, Turquie Europe).

هذه الخريطة من وضع عالم الخرائط الألماني فرانز لودفج جوسيفيلد .
مساحتها ٥٤ سم عرضا و٤٤,٤ سم طولا وهي محصورة بين خطي العرض ١٥ جنوبا و٤٥ شمالا وبين خطي الطول ٢٥ غربا و٨٥ شرقا .

عنوان الخريطة هو : «خريطة الامبراطورية العثمانية في أوربا وآسيا وافريقيا» .

أما بخصوص مقياس الرسم في هذه الخريطة فإن جوسيفيلد يذكر الآتي :

إن كل ٨٠,١٥ ميلاً ألمانياً تمثل بدرجة واحدة على الخريطة ، كذلك كل ٢٠٠,٦٦ ميلاً تركياً بدرجة واحدة وكذلك الحال لكل ١٠٠ ميل أرمني وكل ٢٥ فرسخا وكل ٢٠٠,٥٦ ميل عربي . وقد مثل كذلك بدرجة واحدة ما يعادل مسافة عشرة أيام ، كما تقطعها قوافل الجمال ، وهي ما يعادل ٤٪ ميل .

إن أول خطوط الطول التى استعملها جوسيفيلد في هذه الخريطة يقع على بُعد ٢٠ درجة شرق مدينة باريس .

أما فيما يتعلق بمدن الساحل العربي للخليج ، فنجد أن العدد الذى يذكره جوسيفيلد في هذه الخريطة محدود إذا قارناه بالخرائط السابقة لها والتى عرضناها في غضون هذا البحث ، وهذه المدن هي :

مسقط (Maskat) ، سيب (Sib) ، بركة (Barka) ، السويق (Suweik) ، سحم (Saham) ، صحار (Sohar) ، ليوه (Luwa) ، شناص (Schinas) ، المحرق (Maharac) ، خورفكان (Kharfakan) ، دبا (Dibbah) ، موسندم (Mussendam) ، دبي (Debai) ، رأس مشعاب (Ras Matscherib) ، خور العديد (Khor Alladeid) ، رأس المطبخ (Ras Mutbutsch) ، البحرين (I. Bahrein) ، القطيف (El Katif) ، رأس تنوره (Ras Tanurah) ، الكويت (El Koweit) ، بوبيان (I. Babia) ، الدوحة (Dorah) ، البصرة (Basra) .

هناك بعض الملاحظات يمكننا ذكرها في هذا الصدد :

أولا : قد كتب على جزء من الشاطىء العربي للخليج «ساحل غير معروف» .

ثانيا : كُتب على جزء أخر من الساحل «شاطىء اللؤلؤ» .

يتضح مما ذكرناه بخصوص خريطة جوسيفيلد المعروضة هنا أن هذه الخريطة على درجة كبيرة من الدقة والعناية وان الساحل العربي للخليج ليس مليئا بأسماء مدن وأماكن ليس لها مقابل في الواقع ، وإن كان عدد المدن والقرى والجزر محدوداً للغاية إلا أن كلا منها يحمل إسما واقعيا حقيقيا ، وذلك بالعكس من معظم الخرائط السابقة .

أما بخصوص المنطقة التى لم يعرف عنها جوسيفيلد الكافي من المعلومات فإن أمانته العلمية أملت عليه أن يكتب على هذه المنطقة «ساحل غير معروف»



جوسيفيلد ، الامبراطورية العثمانية في أوربا وآسيا وافريقيا .

جوسيفيلد ، الامبراطورية العثمانية في أوربا واسيا وافريقيا ، تفصيل للخليج .

بدلا من أن يكتفي بنقل أسماء تقريبية أو محرفة أو شبه صحيحة ـ كما هو الحال في معظم خرائط القرنين السابع عشر والثامن عشر .

(Vandermaelen, Ph. , Atlas Universel, vol. II, Bruexelles, 1827).

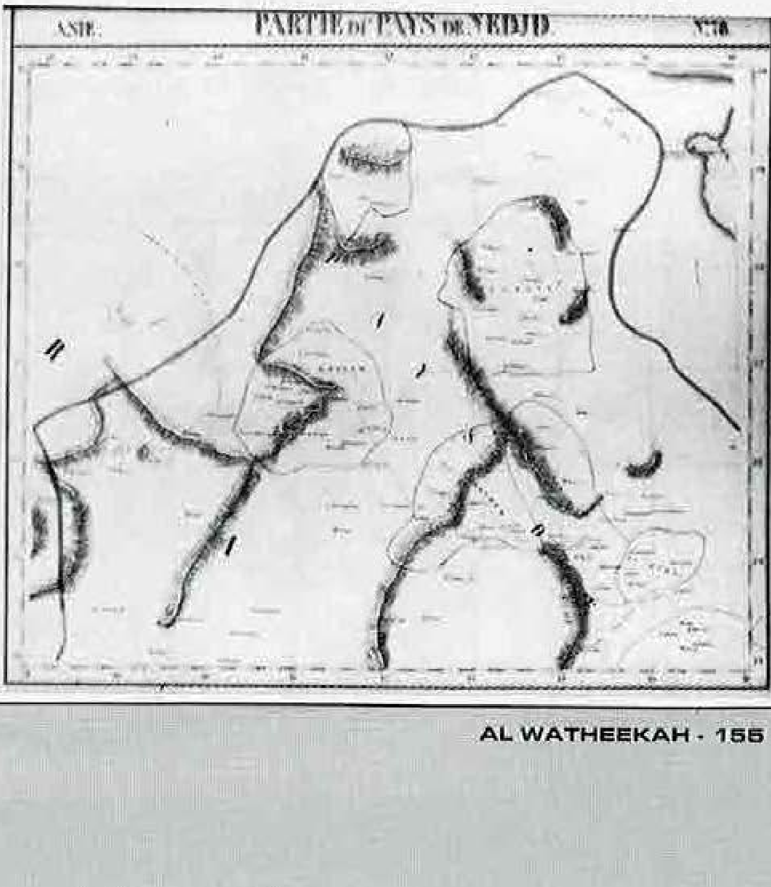
هذه الخريطة من وضع عالم الخرائط البلجيكي فيليب ڤاندر مالين نشرها في المجلد الثاني من «الأطلس الجامع» الذى نشره في ستة مجلدات وذلك من عام ١٨٢٥ الى عام ١٨٢٧ .

يحتل الساحل العربي للخليج ثلاث خرائط في هذا الأطلس هي : الخريطة رقم ٧٨ والتى عنوانها (جزء من بلاد نجد) ، والخريطة رقم ٧٩ وعنوانها (الخليج الفارسي) ، ثم الخريطة رقم ٨٠ وعنوانها (بيلوشستان) .

الخريطة رقم ٨٠ تحتوي على المدخل الشرقي للخليج وكذلك على جزء من خليج عُمان الى جانب بعض الجزر غير البعيدة من مدخل الخليج من ناحية الساحل العربي . كما نلاحظ عدم وجود أي اسم من أسماء المدن أو الجزر ، وقد لُونَّ كل من الساحل العربي وجزره باللون الأخضر .

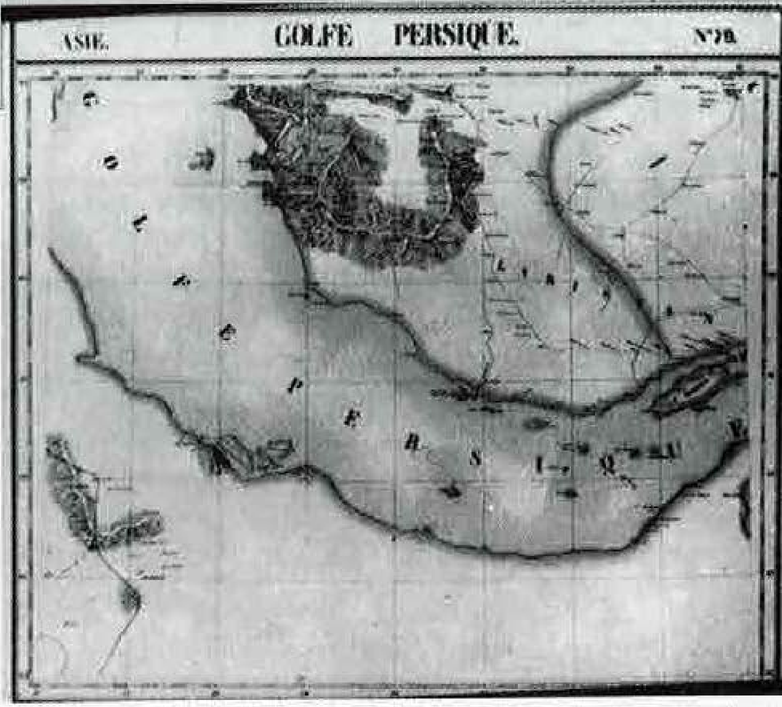
في الخريطة رقم ٧٩ يعطي فيليب ڤاندر مالين الجزء الأكبر من الخليج مع أسماء البعض من مدنه :

دبا (Deba Baic) ، الرمس (Rumss) ، رأس الخيمة (Khyma) ، عجمان (Aymaun)الشارقة (Shurga) ، البحرين (I. Bahreyn) ، القطيف (El Qatif) ، تاروت (I. Taraut) ، سيهات (Syahale) .



ڤاندر مالين
الأطلس الجامع

، خريطة
رقم ٧٨ .



ڤاندر مالين

الأطلس الجامع

خريطة
رقم ٧٩ .

في الخريطة رقم ٧٨ يعطي ڤاندر مالين الطرف الغربي من الخليج ويذكر اسمين من مدنه : الفونيطيس (Felandj. I.) والكويت (El Koueyt) .

وقد أرفق فيليب ڤاندر مالين مع هذه الخرائط الثلاث للخليج نصا جغرافيا من وضع ديلاڤو يذكر فيه الصفات الجغرافية والنشاط التجاري وثروة اللؤلؤ بالخليج .



ڤاندر مالين

الأطلس الجامع

خريطة
رقم ٨٠ .

هذه الخرائط الثلاث تمتاز بالدقة المتناهية من جهتين :
أولا : من جهة رسم الساحل والجزر .
ثانيا : من جهة العناية في نقل أسماء المدن والأماكن عناية كبيرة .

***

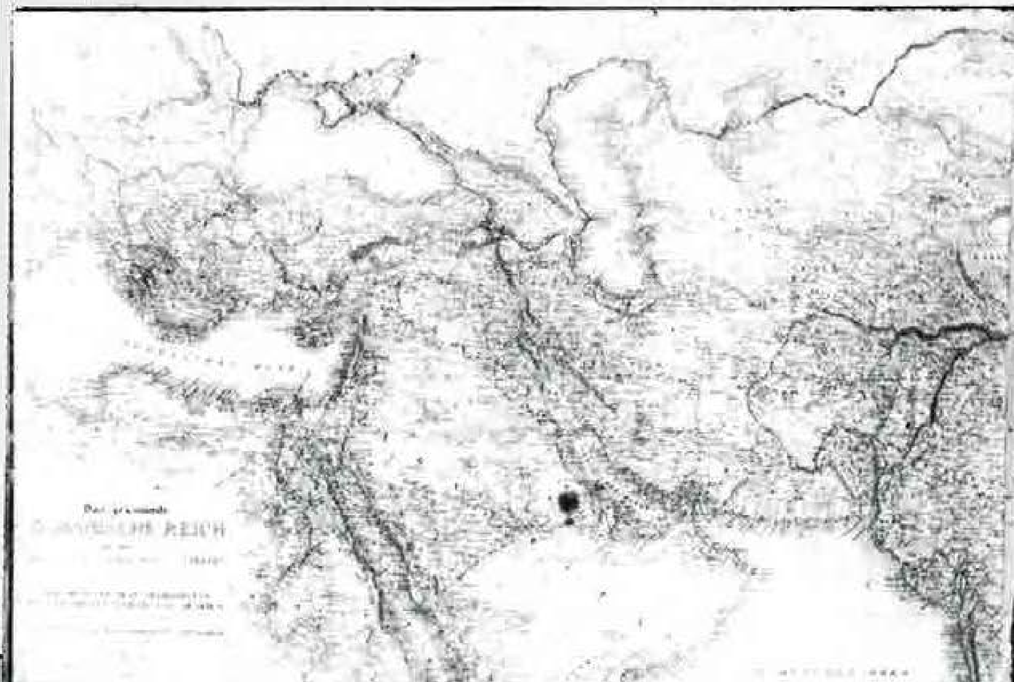
(Turquie 1859)

هذه الخريطة لعالم الخرائط والجغرافي الألماني كارل فرديناند ڤايلاند (١٧٨٢ - ١٨٤٧) مساحتها ٥٨,٢ سم عرضا و٤٦,٩ سم طولا وهي محدودة بخطى العرض ١٠ جنوبا ٥٠ شمالا وخطي الطول ١٥ غربا و٧٠ شرقا .

عنوان الخريطة كالآتي : «الامبراطورية العثمانية : وكذلك ممتلكات باشا مصر ، في أوربا وأسيا وشبه جزيرة العرب ، تشتمل على جزء من النمسا وروسيا وما قبل الهند» .

قد نشرت هذه الخريطة في ڤيمار عام ١٨٣٩ وقد قام بنشرها المعهد الجغرافي هناك .

ڤايلاند ، الامبراطورية العثمانية وممتلكات باشا مصر .



أما فيما يتعلق بمقياس الرسم فإن ڤايلاند يذكر أن :

الميل الألماني يعادل درجة واحدة في كل $\frac{1}{11,200000}$ من درجات الطول ، ونفس المقياس فيما يتعلق بدرجات العرض .

بجانب ذلك يزودنا ڤايلاند بقائمة تتكون من اثنتى عشرة وحدة سياسية كل منها ممثل على الخريطة بلون خاص . وتبدأ هذه القائمة بممتلكات الدولة العثمانية في أوربا وآسيا ثم بمصر والممتلكات التابعة لباشا مصر وتنتهي القائمة بالمقاطعات النمساوية .

يذكر كارل فرديناند ڤايلاند ، من مدن الساحل العربي للخليج ، المدن الآتية :

مسقط (Maskat) ، سيب (Sib) ، بركة (Barka) ، السويق (Suweik) ، سحم (Saham) ، صحار (Sohar) ، لواء (Luwa) ، شناص (Schinas) ، المحرق (Maharac) ، خورفكان (Kharfakan) ، دبا (Dibbah) ، موسندم (Mussendam) ، دبي (Debai) ، رأس الشعاب (Ras Matscherib) ، خور العوديد (Khor Alladeid) ، رأس المطبخ (Ras Mutbutsch) ، البحرين (I. Bahrein) ، القطيف (El Katif) ، راس تنوره (Ras Tanurah) ، الكويت (El Koweit) ، بوبيان (I. Babia) ، الدوحة (Dorah) ، البصرة (Basra) .

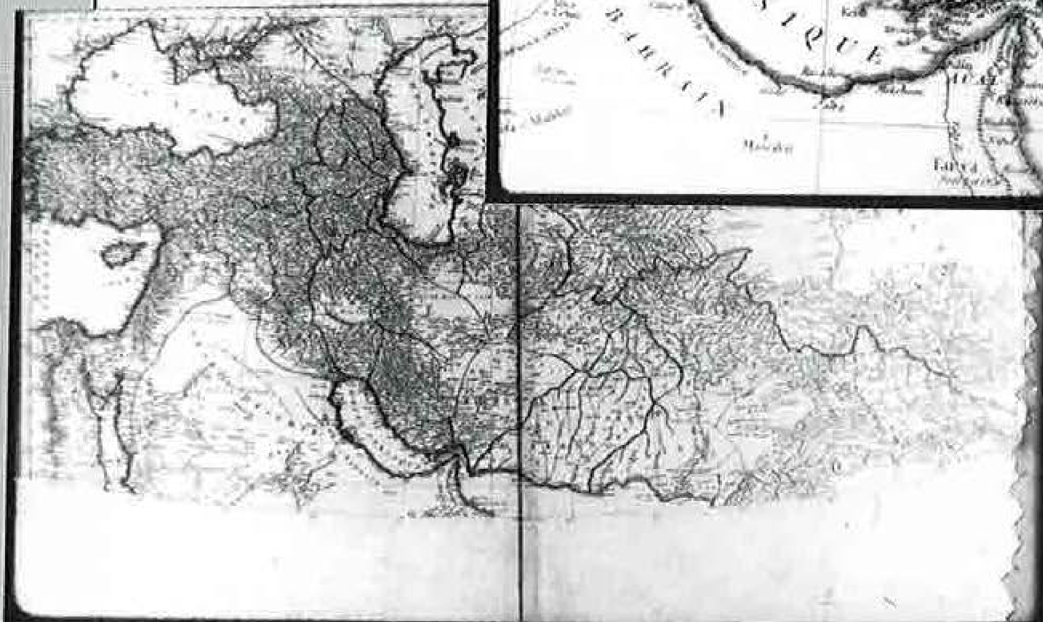
من الواضح أن هذه الخريطة على درجة عالية من الدقة والدليل على ذلك أن أسماء المدن والجزر التى يذكرها ڤايلاند تطابق في الغالبية العظمى منها الأسماء الحقيقة لتلك الأماكن . كما انه من البين ان عالم الخرائط قد اعتمد على مصادر يمكن التعويل عليها فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة بالخليج وهي مصادر تتفق تماما مع متطلبات المنهج العلمي الحديث .

***

ان نتيجة هذه الدراسة التى قمنا بها هنا والتى شملت مدة مائتي عام من تاريخ علم الخرائط في أوربا لتطلعنا على تطور واضح لا شك فيه ، ففي القرن السابع عشر كانت الخرائط في أغلبها غير دقيقة وكان الشاغل الأساسي لعالم الخرائط في ذلك العصر هو تقديم أكبر قدر ممكن من المعلومات بدون أن تتاح له الفرصة كي يمتحن مصادر هذه المعلومات ، تلك المصادر التى كانت في أغلب الأحيان غير دقيقة . فقد كان عالم الخرائط في ذلك العصر يذكر أكبر عدد ممكن من أسماء المدن والجزر والأماكن بدون تحر . والعدد القليل من المدن الشهيرة سلم من التصحيف مثل : مسقط ودبا والقطيف والبصرة . أما



دانڤيل ، تفصيل للخليج



دانڤيل ، آسيا ، مثال لخريطة من القرن الثامن عشر مكتوب على الساحل «معروف قليلا»

الباقي منها فهي أسماء محرفة أو مخترعة .

ولم يظهر النقد العلمي للمصادر الا في القرن الثامن عشر عندما أصبح عالم الخرائط يترك أماكن خالية من الأسماء على الخرائط معترفا بذلك ان هناك مناطق ما زالت غير معروفة له أو مجهولة تماما بالنسبة له .

هذا الموقف الايجابي من جانب عالم الخرائط في القرن الثامن عشر قد سمح ، بدون شك ، لعلم الخرائط أن يتقدم تقدما مطردا حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما بدأت تظهر على الخرائط معلومات صحيحة دقيقة وموثوق منها .

من الواضح ضرورة دراسة الخرائط الأوربية القديمة كوسيلة علمية دقيقة لمعرفة مكانة العالم العربي عامة والخليج خاصة في تاريخ العلوم في أوربا .

الأستاذ الدكتور حسام الخادم
أستاذ تاريخ العلوم بجامعة بروكسل

تاريخ ظهور الإسلام

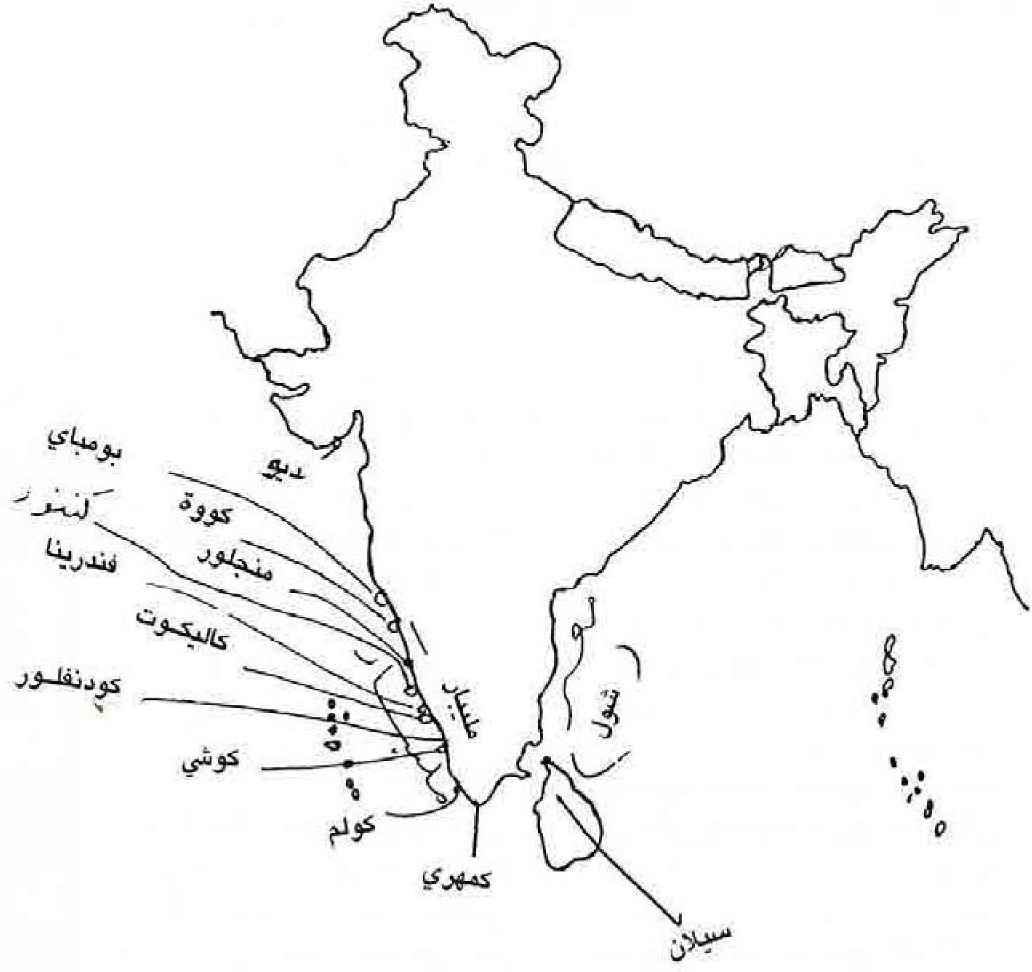
في ساحل مليبار

من خلال مخطوط

تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين

اعداد : البروفيسور : عبدالعزيز المنقادى

هذا الكتاب يعد مصدرا هاما ان لم يكن وحيداً لظهور الاسلام في ساحل مليبار ولطوري المد والجزر اللذين مر بهما الاسلام هناك عبر القرون وللوقائع التي جرت بين المسلمين والبرتغاليين مدة ٨٥ عاما بين سنة ٩٠٤هـ الموافق ١٤٩٨م و٩٩٢هـ ١٥٨٣م في مليبار الساحل الغربي الجنوبي للهند وهي واقعة الان في ولاية كيرالا احدى ولايات جمهورية الهند .



خريطة ساحل مليبار

ومليبار هذه معروفة للبحارة العرب ومؤرخيهم فقد زارها أو كتب عنها عدد غير قليل منهم مثل سليمان التاجر ٨٥١م والبيروني ١٠٥١م والادريسي ١١٥٣م والقزويني ١٢٧٥م وأبو الفداء ١٣٧٥م ورشيد الدين ١٣٣٠م وعبدالرزاق ١٤٤٢م ، والرحالة المشهور المغربي ابن بطوطة قام برحلة واسعة لأرجاء كيرالا أثناء سفارته الى الصين من قبل السلطان محمد بن تغلت وسلط الضوء على حياة أبنائها الدينية والاجتماعية والاقتصادية ووصفها ، ببلاد الفلفل .

وقد جاء ذكر كاليكوت قصبة مليبار في قصيدة « الحاوية » لأحمد بن ماجد شيخ المعالمة وأمير البحر في القرن التاسع الهجري .

وكانت مليبار تنتج أنواعا كثيرة من التوابل والبضائع النادرة مثل الفلفل

الأسود والزنجبيل والقرنفل والصندل والساج والأخشاب لصناعة السفن والتجار من الصين وجزيرة العرب وايران وفينيقيا ، كانوا يرتادون شواطىء مليبار لشراء هذه السلع .

وأما العرب فقد لعبوا دورا رئيسيا منذ اقدم العصور في تبادل هذه البضائع الى الشرق والغرب .

والأدب العربي مرآة صادقة تتراءى فيها آثار هذه العلاقة التجارية المزدهرة فالفلفل الذي جاء في بيت من معلقة امرؤ القيس :

« ترى بحر الارآم في عرصاتها
وقيعانها كأنه حب فلفل »

ان لم يكن يدل على عالمية الأدب العربي فإنه يشير الى هذه العلاقة التجارية الكثيفة وما المهند والخطى اللتين يتغنى بهما القدامى من الشعراء الاسلاحين فتاكين هنديي الانتاج وخلف هذا ، التبادل التجاري آثارا ، خالدة في لغات الهند منها ، اللغة المليبارية أو مليالم واللغة العربية . وتسربت كثير من كلمات هذه اللغة الى اللغة العربية وعلى العكس أيضا ، فالفلفل والزنجبيل والصندل والقرنفل والكافور بعض الكلمات المليبارية الأصيلة المقتبسة الى اللغة العربية . وأما الكلمات العربية الدخيلة الى لغة مليالم فقد أحصي عددها عشرات مثل خط ، قرار ، دلال ، ضامن ، أفه ، مصيبة ، باقي .

وقد كان ظهور الاسلام نقطة تحول لهذه العلاقة التجارية القديمة ، فقد أثر الاسلام تأثيرا عميقا في مجتمع الساحل المليباري وغير مجرى تاريخه فقد كان هذا التغيير جذريا وثوريا .

والتجار العرب المسلمون من حضرموت وعمان والخليج العربي أسسوا مستعمرات عديدة في مختلف مرافىء مليبار مثل كولم وكودنغلور وكاليكوت وكننور وهيلى وهندرينا .

وقد لعبت هذه المستعمرات دورا خطيرا في امتداد الزحف الاسلامي لافي مليبار فقط بل في شرق آسيا كافة مثل ملايو وأندونيسيا وجريرة سيلان دخل الناس في دين الله أفواجا وتفاصيل هذه الأخبار نستعرضها حين يصل البحث الى ظهور الاسلام في مليبار .

ولم تزل نشاطات العرب والمسلمين الدينية والاجتماعية والاقتصادية في تقدم وازدهار حتى وصلتهم حملة البرتغاليين عام ١٤٩٨ في اليوم الثامن عشر من شهر مايو تحت قيادة فاسكو دي غاما وكانت مدينة كاليكوت عاصمة مليبار اذ ذاك أرسيت فيها ثلاث سماويات له ولسنا بصدد الفحص عن آراء المؤرخين حول من دل من المعالمة غاما على الطريق الى الهند أهو أحمد بن ماجد أم هو رجل

هندي من كجرات ؟ وبالجملة ابتلى المسلمون ابتلاء عظيما بأيدي البرتغاليين وكانوا في الحقيقة سياط عذاب للمسلمين فأذاقوهم أنواع العذاب من قتل وتدمير وتشريد كما عبر عنها محمد بن عبدالعزيز الكاليكوتي الذي عاش في القرن الحادي عشر الهجري في أرجوزته المشهورة .

فتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين

كم مسلم في حبسهم مقيدون
وأي محنة بها يعذبون
كم أيتموا بقتلهم ولدانا
كم أرملوا الاماء والنسوانا
كم من مراكب بنار أحرقوا
كم من سفائن بحر أغرقوا
كم صيروا من مسلم نصارى
حتى من السادات كالأسارى
ومنعوا المسلمين الطرقا
برا وبحرا لم يزالو فرقا
وهتكوا لحرمة النسوان
بين محارم وزوج عاني
وبقتل المسلم بالمنشار
وبعضهم بكلب ونار

واشتدت قبضة البرتغاليين على بحر العرب فشددوا الخناق على المسلمين والعرب ، منعوا من تسفير سفنهم الى موانىء جزيرة العرب مثل هرمز وجلفار وظفار وشحر وعدن وجدة وتعرضوا لحجاج بيت الله فلم يسمحوا لهم بالسفر الى مكة - أنظر تحفة المجاهدين للتفاصيل .

وقد أنجبت مليبار صفوة من العلماء البارزين وضعوا كتبا في العلوم الدينية واللسانية والتصوف والطب ولم يكن حظ مليبار من الشعر العربي أقل من هذه العلوم فقد نبغ منهم عدد من الشعراء المجيدين لا يشق لهم غبار في التعبير عن أغراضهم في القريض .

ومليبار وولاية كيرالا اليوم زاهرة بهذا التراث الثمين كتب عربية تعد بالمئات من كبير وصغير الحجم .

وقد أثرت المكتبة العربية العالمية وكثير منها مطبوع في الهند ولكنها اليوم في حالة غير محسودة يوشك أن تكون على حافة الانقراض ، واني أوجه انتباه الباحثين الى هذه الكنوز النادرة عسى أن تجد لها وليا ونصيرا .

مؤلف تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين :

وممن أنجبت مليبار من العلماء البارزين الشيخ زين الدين بن أحمد بن زين الدين بن علي بن المعبري المليباري المتوفي سنة ٩٩١هـ سنة ١٥٨٣م وينتمي الشيخ إلى أسرة عريقة في العلم والمجد فقد كان جده زين الدين الأول عالما كبيرا وصاحب عدة مؤلفات في مختلف العلوم مع علو كعبه في الشعر أيضا ومن أبرز مؤلفاته

مرشد الطلاب وهداية الأذكياء . وكانت له مكاتبات مع سلاطين المسلمين خارج الهند وداخلها يوجه فيها نظرهم الى الخطر البرتغالي في البحر العربي .

واما صاحبنا زين الدين الثاني فقد سافر الى مكة في طلب العلم وجاور بيت الله تقريبا عشر سنين وتتلمذ خلالها على كبار المشايخ في مكة المكرمة مثل ابن حجر الهيثمي وزكريا الأنصاري وغيرهما واشتغل بالتدريس والتأليف بعد رجوعه الى مليبار فألف فتح المعين في شرح قرة العيون . ويعد هذا الكتاب من أمهات الكتب في الفقه الشافعي وقد لقى من العلماء اعتناء عظيما فقد قام بشرحه والتعليق عليه غير واحد من الفقهاء في مصر فقد كتب له حاشية باسم اعانة الطالبين فقية مصري وهو مطبوع ببولاق وقد جاء في تقريظة لبعض العلماء .

« فتح المعين كتاب شأنه عجب
حوى من الفقه مالم يحوه كتب »

وكتابه الثاني تحفة المجاهدين في بعض اخبار البرتغاليين الذي نحن بصدده هو أجل مصنفاته الذي رفعه الى سماط المؤرخين البارزين لم يحظ مؤرخ هندي عاش في القرون الوسطى بما حظى به من الاهتمام من الباحثين المحدثين شرقا وغربا .

فنرى فيه مؤرخا نابغا ومحللا للوقائع التاريخية متحريا مقاييس النقد العلمي والحياد الكامل قلما يتحلى بهما الكتاب في تلك العصور وأما مقدرته اللغوية فيدل عليها أسلوبه السلس الخالي من السجع والمحسنات اللفظية التي كانت شائعة حينئذ .

ونسبته الى معبر فهي أن أسرته نزحت الى مليبار من شاطىء معبر وهو عند الجغرافيين Coromandal Coast نفس الساحل الذي يصفه احمد بن ماجد شيخ المعالمة بساحل شول في كتابه الحاوية بقوله :

« وكم رأيت في قطوط الشول
ونظمة والنثر والفصول »

(محاضرة الاستاذ ابراهيم خوري - الموسم الثقافي ١٩٨٨ - ١٩٨٩ بجامعة الامارات العربية المتحدة)

وأما رأي بعض الباحثين أن المعبر في اليمن فلا مسوغ له لاننا لانعرف بقعة بهذا الاسم في اليمن فنترك هذا الأمر الى اخواننا مؤرخي العرب لأن أهل مكة أعلم بشعابها .

ويسجل الشيخ زين الدين في هذا الكتاب سلسلة الاشتباكات والحروب التي جرت في القرن العاشر الهجري بين المسلمين والبرتغاليين في جدة وعدن وهرمز في بر العرب وكذلك سورت وكجرات ، وديور وكورفا في الساحل الغربي الشمالي للهند ومالاقا .

ولم يكتف الشيخ بدوره مؤرخا بل كان جنديا اذ باشر القتال ضد العدو في بعض هذه الوقائع مثل سنة العلماء في تلك الأيام وفي تلك الديار فقد شارك الشيخ عبدالعزيز بن علي المجرى وعدد من المشايخ مع ملك كاليكوت السامري . في فتح قلعة البرتغاليين في شاليات قرب كاليكوت كما يشير اليه محمد بن عبدالعزيز الكاليكوتي الذي عاش في القرن الحادي عشر الهجري في ارجوزته فتح المبين :

ومعهم المخدوم ذو الانفاق
عبدالعزيز المعبري الفناقي
وهكذا قاضي قضاة المسلمين
عبدالعزيز الكاليكوتي كالمعين

وأما الوقائع في بر العرب وجزر ملايو فلا ندري كيف وقف عليها المؤلف وما هي المصادر التي اعتمد عليها في تأريخها وتدوينها لأننا لانكاد نجد مصادر عربية ولاهندية موثوقة تشير الى هذه الحوادث فهذا يدل على أن الشيخ اخذ الاخبار عن هذه الوقائع من المجاهدين الملاحين والمعالمة الذين عاصرهم وشاهدهم أثناء رحلته في طلب العلم الى مكة وكذلك عند زيارتهم بنادر مليبار مثل كاليكوت وكنور اللتين يرتادونهما في المواسم وكذلك اتصاله الوثيق مع السامري الملك الهندوكي في كاليكوت وسلاطين كجرات وبيجابور الذين تقع اماراتهم في الساحل الغربي الهندي ربما ساعده للوقوف على الوثائق لهذه الحوادث . وقد أشاد المؤرخون في الغرب والهند بمصداقية الشيخ زين الدين المؤرخ وعمق نظره وقدرة تحليله للحوادث التاريخية وهم يعدونه المصدر الوحيد لكثير من الحوادث التاريخية التي جرت في البحر العربي في تلك الحقبة .

مكانة تحفة المجاهدين :

وقد اهتم المؤرخون كما قدمنا بهذا الكتاب اهتماما بالغا فقد ترجم الى كثير من اللغات الأوروبية مثل الانجليزية واللاتينية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية والتشيكية فضلا عن اللغات الهندية العديدة مثل الهندية ومليالم واردو وكارناتاكا وتاميل ولم يلق مؤلف لمسلم هندي قديم من اهتمام الباحثين مثلما لاقى هذا الكتاب من نقد وشرح .

ولكن المؤرخين العرب شأنهم مع هذا الكتاب شأن غريب فهو مع كونه مكتوبا باللغة العربية لا نكاد نجد احدا منهم يعرفه (*) ولانجد مصدرا

(*) هذا المخطوط طبع بالعربية عدة طبعات وقد اشارت (الوثيقة) في اعدادها السابقة الى اقتباسات اقتبسها كتاب كتبوا ونشروا في (الوثيقة) عن نفس المخطوط (انظر الوثيقة العدد ١٢ من ٩٢ والعدد ١٤ من ٢٠٣)

الوثيقة

عربيا يشير اليه ولا الى مؤلفه اللهم الا بضع كلمات جاءت فى معجم المنجد فى قسم الاعلام عن الكتاب ومؤلفه فى عنوان مليبارى وهي لا تسمن ولا تغني من جوع . فى حين أن أكثر من خمس مائة مؤلف تاريخى أجنبى نقل من كتابنا هذا وكذلك لانجد مكتبة عربية ولا خزانة لوثائق غربية حوت هذا الكتاب رغم تكاثرها وتضخمها فى الاقطار العربية شرقا وغربا وانى ما أردت بمشاركتى بهذا البحث الا توجيه عناية الأفاضل المؤرخين العرب الى هذا الكتاب ، فهو مطبوع فى الهند فى ١٣٥٨ هـ ولكن ليس كتابا مستقلا بل متضمنا فى مجموعة من النصوص الادبية والتاريخية والدينية الاخرى وعنوان هذه المجموعة « جواهر الاشعار وغرائب الحكايات والاخبار » للمولوى عبد القادر الغضفرى مطبوعة ١٣٥٨ هـ وفرغ الشيخ زين الدين بن أحمد من اتمام الكتاب فى ٩٩٠ هـ نفس السنة التى انتقل فيها الى رحمته تعالى وجعلها تحفة لسلطان بيجابور على عادل شاه لأنه كان فى مقدمة حكام الهند الذين قاتلوا البرتغاليين .

خطة الكتاب :

لكتاب « تحفة المجاهدين فى بعض أخبار البرتغاليين » مقدمة وأربعة أقسام :

القسم الاول فى بعض أحكام الجهاد وثوابه والتحريض عليه .

القسم الثانى فى بدء ظهور الاسلام فى ديار مليبار .

القسم الثالث نبذة يسيرة عن عادات كفرة مليبار الغريبة .

القسم الرابع فى وصول الافرنج الى بلاد مليبار وبعض أفعالهم القبيحة .

وقد خصص المؤلف ثلثى الكتاب للقسم الرابع لأن غايته المنشودة بتأليفه سرد الفظائع للبرتغاليين وتحريض المسلمين للدفاع عن الدين والوطن ثم توجيه عناية سلاطين الممالك الاسلامية الى جرائم البرتغاليين والاستعانة بهم .

وهذا القسم موزع الى أربعة عشر فصلا :

١ ـ ابتداء وصولهم الى مليبار ثم حصول المخالفة بينهم وبين المسلمين والسامرى ومصالحتهم راعي كوشى وكنور وبناء قلعتهم فيها وفي كولم وأخذهم بندركووة .

٢ – في ذكر شيء من قبائح أفعالهم .

٣ – مصالحة السامري راعي كاليكوت اياهم وبناؤهم قلعتهم في كاليكوت .

٤ – في وقوع الخلاف بينهم وبين السامري وفتح قلعتهم .

٥ –في وقوع الصلح بينهم وبين السامري مرة ثانية وبناء قلعتهم في شاليات .

٦ – في صلح السامري مع الافرنج مرة ثالثة .

٧ – فيما فعل السلطان بهادر شاه بن مظفر الكجراتي مع اعطاء جملة من البنادرة الكبار لهم .
٨ – في وصول سليمان باشا وزير السلطان الأعظم سليمان شاه « العثماني » « الرومي » بن سليم شاه .
٩ – وقوع الصلح بين السامري والافرنج مرة رابعة .
١٠ – وقوع المخالفة بين السامري والافرنج .
١١ – مصالحة السامري والافرنج مرة خامسة .
١٢ – بسبب الاختلاف بين السامري والافرنج وخروج الاغربة لمحاربتهم .
١٣ – في فتح قلعة الشاليات .
١٤ – في بعض أحوالهم بعد فتحها وفي قصدهم الأعظم لتغيير دين الاسلام واذلال المسلمين .

ظهور الاسلام في مليبار :

الفتوحات الاسلامية في السند وشمال الهند بدأت في القرن الثاني الهجري بيد محمد بن القاسم الثقفي في ايام الوليد بن عبدالملك الأموي ، وكان السند ثغرا من ثغور الاسلام ثم تتابعت هذه الفتوحات وتوسعت المملكة عبر القرون وكان العرب والفرس والاتراك والافغان والمغول هم الذين حملوا لواء هذه الحملات الى الشمال وانتشر الدين الاسلامي هناك ونما بامتداد رقعات المملكة الاسلامية على يد الفاتحين .

أما في الساحل الميباري فقد دخله الاسلام سلما بفضل جهود العرب من سواحل عمان وحضرموت والخليج العربي ، وكان هؤلاء العرب تجارا يرتادون سواحل مليبار لشراء التوابل والأخشاب وغيرها من المنتجات كما بينا سبقا .

فقد دخل الاسلام المليبار سلما ثم بفضله وبفضل حامليه الذين كانوا مثالا حيا لآدابه السامية تصاعد هذا المد الاسلامي ونشأت عدة مراكز للعرب في سواحل مليبار واختلطوا بأبناء البلاد وتزوجوا من نسائهم ونشأ من هذه الزيجات جيل من المسلمين معروفين باسم « مابلا » واذا اصطبغ المسلمون في شمال الهند بالصبغة الفارسية فان مسلمي مليبار مصطبغون بالصبغة العربية في عاداتهم وأزيائهم وفنونهم ولغتهم . ومن الجدير بالذكر أن حكام مليبار كانوا متسامحين نحو المسلمين وكانوا يحبونهم ويجلونهم ويقطعون لهم البساتين والعقارات .

وقد اختلف الباحثون حول العصر الذي دخل الاسلام فيه مليبار فمنهم من يقول أنه في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهم من يقول أنه القرنين الهجريين الاولين .

والمؤلف يتجه المنحى الثاني

ولايجد المذهب الأول مقبولا أما في مليبار أو كيرالا فلكل من المذهبين أنصار بين المؤرخين ولكل حجج يجادلون بها .

ويليق بنا الاشارة اننا لانرى أي مصدر عربي أقدم من هذا الكتاب يلقي الضوء على دخول الاسلام الى مليبار ولكن كتابان قديمان في لغة مليالم باسم « كيرلول بات » « نشوء كيرالا » و « كيرالا بازاما » (قدم كيرالا) يحدثان عن اعتناق أكبر ملك لهم باسم شجرمان فيرمال - سامري - الاسلام في قديم الزمان .

الرعيل الأول من الدعاة الاسلاميين :

ويحدثنا المؤلف عن تاريخ ظهور الاسلام هكذا في مليبار :

القسم الثاني في بدء ظهور الاسلام في مليبار وذلك ان جمعا من اليهود والنصارى دخلوا بلدة من بلاد يقال لها كدنكلور وهي مسكن ملكها في مركب كبير بعيالهم وأطفالهم وطلبوا منهم الأراضي والبساتين والبيوت وتوطنوا فيها وبعد ذلك بسنتين وصل اليها جماعة من فقراء المسلمين معهم شيخ قاصدين زيارة قدم أبينا آدم عليه السلام بسيلان فلما سمع الملك بوصولهم طلبهم واضافهم وسألهم عن الأخبار فأخبره شيخهم بأمر نبينا محمد ﷺ وبدين الاسلام وبمعجزة انشقاق القمر فادخل الله سبحانه وتعالى حب الاسلام في قلبه ، صدق النبي ﷺ فآمن به ودخل في قلبه حب النبي ﷺ وأمر الشيخ أن يرجع هو وأصحابه اليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام ليخرج هو معهم ومنعه أن يحدث بهذا السر المليباريين ثم انهم سافروا الى سيلان ورجعوا اليه فامر الملك الشيخ بأن يهيىء مركب السفرة من غير أن يعلم به أحد وكان في البندر المذكور مراكب كثيرة للتجار الغرباء فقال الشيخ لصاحب مركب «أنا وجماعة من الفقراء يتوقعون أن يركبوا في مركبك» فرضي بذلك صاحب المركب ولما قرب وقت السفر نهى الملك أهل بيته ووزراءه أن يدخل أحد منهم عليه مدة سبعة أيام وعين في كل بلدة من بلدانه شخصا وكتب لكل كتابا مفصلا بتعيين الحدود حتى لا يتجاوز أحد عن حده الذي عينه والحكاية في ذلك مشهورة عند كفرة مليبار أيضا وكان ملكا متواليا في جميع مليبار وحده من الجنوب كمهري ومن الشمال كانجركوت ثم أن الملك ركب مع الشيخ والفقراء في المركب ليلا وسار المركب حتى وصل الى فندرينة فنزل فيها ولبث يوما وليلة ومنها سار المركب الى درمفتن ونزل فيها ولبث ثلاثة أيام ومنها سار المركب حتى وصل الى شجر ونزل فيها هو ومن معه وبعد مدة طويلة رافقه جماعة في

السفر الى مليبار لعمارة المساجد واظهار دين الاسلام فيها ثم ان الملك مرض واشتد مرضه فوصى اصحابه الذين رافقوه وهم شرف بن مالك واخوه من الأم مالك بن دينار وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك وغيرهم بأن لا يبطلوا سفر الهند بعد موته فقالوا لا نعرف موضعك ولا حد ولايتك وانما اردنا السفر صحبتك فتفكر الملك ساعة وكتب لهم ورقة بخط مليبار عين فيها مكانه وأقرباءه وأسماء ملوكها وأمرهم أن ينزلوا في كبد نكلور ودرمفتن أو فندرينه او كولم وقال لهم لا تخبروا شدة مرضي ولا بموتي ان مت احدا من المليباريين ثم انه توفي رحمه الله رحمة واسعة وبعد ذلك بسنين سافر شرف بن مالك ومالك بن دينار ومالك بن حبيب وزوجته قمرية وغيرهم مع الاولاد والاتباع الى مليبار في مركب فوصل الى كدنكلور ونزلوا فيها واعطوا ورقة الملك المتوفي الى الملك الذي فيها واخفوا خبر موته فلما قرأها وعلم مضمونها أعطاهم الأراضي والبساتين على مقتضى ما كتبه فاقاموا فيها وعمروا فيها مسجدا توطن فيها مالك بن دينار وأقام ابن اخيه مالك بن حبيب مقامه لبنائه المساجد في مليبار فخرج مالك بن حبيب الى كولم بما له وزوجته وبعض أولاده وعمر بها مسجدا ثم خرج منها بعدما خلى زوجته فيها الى «هيلي ماراوي» وعمر بها مسجدا ثم الى «پاكنور» وعمر بها مسجدا ثم رجع منها الى «منجلور» وعمر بها مسجدا وخرج الى كانجركوت وعمر بها مسجدا وخرج منها الى «هيلي ماراوي» وأقام بها ثلاثة أشهر ومنها الى جرفتن وعمر بها مسجدا ومنها الى «شاليات» وعمر بها مسجدا وقام بها مدة خمسة أشهر ومنها الى كدنكلور عند عمه مالك بن دينار ثم سافر منها الى المساجد المذكورة وصلى في كل مسجد منها ورجع الى كدنكلور شاكراً الله وحامداً له بظهور دين الاسلام في أرض ممتلئة كفرا ثم خرج مالك بن دينار وبعض اصحابه فانهم سافروا الى شحر وزاروا قبر الملك المتوفى فيها ثم سافر مالك الى خراسان وتوفي فيها هو وزوجته هذا خبر أول ظهور الاسلام في ديار مليبار واما تاريخه فلم يتحقق عندنا وغالب الظن انه كان بعد المائتين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية واما ما اشتهر عند مسلمي مليبار ان اسلام المذكور كان في زمن النبي ﷺ وتشرف بلقائه ورجع الى شحر قاصدا المليبار مع الجماعة المذكورين وتوفي فيها فلا يكاد يصح شيء منها والمشهور الآن بين الناس انه مدفون في ظفار لافي شحر وقبره مشهور هناك يتبرك به أهل الناحية يسمونه السامري وخبر غيبة الملك المذكور مشهور عند جميع أهل

مليبار المسلمين والكفرة إلا أن الكفرة يقولون عرج به الى فوق ويتوقعون نزوله ولذلك كانوا يهيئون في موضع كدنكلور قبقابا وماء ويسرجون فيه في ليلة معروفة عندهم ومشهور عندهم ايضا أنه قسم ولايته قرب سفره على أصحابه الا السامري الذي كان أول رعاة بندر كاليكوت فانه كان غائبا عند القسمة فلما حضر اعطاه سيفا وقال له اضرب بهذا وتملك فعمل بمقتضى قوله فتملك كاليكوت بعد زمان وسكن فيها المسلمون ووصل اليها التجار واصحاب الصنائع من أطراف شتى وكثرت التجارة فيها حتى كبرت وصارت مدينة عظيمة اجتمع فيها صنوف الناس من المسلمين والكفار وظهرت قوة السامري فيما بين رعاة مليبار ورعاتها كلها كفرة «انتهى» .

هذه هي قصة ظهور الاسلام في مليبار وهناك آراء واتجاهات للباحثين حول هوية ملك مليبار الذي اعتنق الاسلام وسافر الى مكة وعصره الذي عاش فيه فمنهم من ذهب مذهب الشيخ زين الدين الذي يحدده في القرن الثاني ومنهم من يدعى ان الملك المذكور عايش زمن النبوة وسافر الى الحجاز وتشرف بالصحبة ويرى ثالث أن دخول الملك سامري الى الاسلام وقع في القرن السادس الهجري وهناك من المتعصبين من ينكرون قصة دخول ملك مليباري من كان هو ومتى كان الى الاسلام البتة ولا حاجة الى الالتفات الى هذا القول لان منشأه المكابرة والاتجاهات السلبية . ومهما كانت هذه الاختلافات حول زمن دخول السامري الاسلام فليس فيه ما ينكر دخول الاسلام مليبار في وقت مبكر . اما في عصر النبوة أو عصر يليه نظرا الى شيوع الاسلام في سواحل جزيرة العرب في حياة نبينا محمد ﷺ واستمرار رحلات العرب الى شاطىء مليبار .

فلا يبعد ان يتلقى بعض الاهالي من هؤلاء العرب المسلمين الجدد مبادىء الدين الحنيف وانما الخلاف مداره حول اعتناق الملك الاسلام وزمنه .

وتجدر بي الاشارة الى ان في كيرالا مراجع أصيلة في اللغة المحلية مثل كيرالا اوليات (نشأة كيرالا) تخبر ان الملك السامري رأى انشقاق القمر وعلم من بعض المنجمين ظهور نبي في بر العرب وتحقق الخبر من بعض تجار العرب ثم سافر الى مكة واليه يشير قاضي محمد بن عبد العزيز الكاليكوتي في فتح المبين الذي يحب السامري الذي اشرنا اليه غير مرة وكان معاصرا للمؤلف ومتأخرا لدى الوفاة . يقول القاضي :

وانما وقف هذا السامري
للحرب معه بين كل كافر

سرد دعـوة النبي المطهـر
لخاله يـوم انشقاق القمـر
لما رأى انشقاقها من بلدته
سـافر خفيـة الى زيـارتـه
حتى أتى الى النبي وآمنا
بـالله والنبي فصـار مؤمنا

والسامري المذكور في القصيدة لقب ملك كاليكوت في العهد القديم وكان مع تثبته بدينه أحب الاسلام والمسلمين وتعاون معهم لطرد الافرنج من مليبار والهند قاطبة ويبين القاضي محمد الكاليكوتي والشيخ زين الدين احمد في مؤلفيهما مع الاسهاب مواقفه الباسلة ضد اعداء الاسلام ومحاسنه العديدة للمسلمين والدوافع السياسية والاقتصادية والامنية التي حملت السامري لاتخاذ هذه السياسة نحو المسلمين .

البروفيسور
عبدالعزيز المنقادي
استاذ زائر سابقا للدراسات الاسلامية
جامعة كاليكوت ـ الهند



علاقات الخليج العربي بشبه القارة الهنديّة في فترة صدر الإسلام

الدكتورة نجدة خماش

إن المعلومات التي لدينا حول علاقات منطقة الخليج العربي بشبه القارة الهندية في فترة صدر الاسلام هي معلومات قليلة متناثرة ، ولكنها تسمح لنا بالوصول الى استنتاجات هامة حول الدور الكبير الذي لعبته القبائل العربية التي كانت قاطنة في شبه الجزيرة العربية وخاصة منطقة الخليج العربي في الفتوح التي وصلت وامتدت في خلافة الوليد بن عبدالملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) الى شبه القارة الهندية ، كما ان هذه المعلومات تساعدنا في الوصول الى استنتاجات لها اهميتها في مجال العلاقات التجارية .

كان العامل الأساسي في هذا الانجاز الضخم الذي حققته القبائل العربية المقيمة في منطقة الخليج ، هو الاسلام الذي كان يهدف في كل مراحل الدعوة وفي كل تعليماته الى تحقيق وحدة القبائل العربية ، وبدت



مظاهر التوحيد في حياة الدعوة في المؤاخاة بين المهاجرين والانصار وفي اهدار الدماء التي كانت في الجاهلية ، وفي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تنفي العصبية وتنكر الدعوة لها . واذا كانت العرب قد ارتدت إما عامة أو خاصة اثر وفاة الرسول الكريم (ﷺ) فإن نجاح ابي بكر خلال عام واحد تقريبا في القضاء على حركة المرتدين كان تثبيتا للاسلام ومدا له الى الأطراف التي بدا وكأنها قد لُقِّنَت الدين كما لقنته المراكز القريبة من مكة والمدينة . كما ان حروب الردة مع ما رافقها من خطر على كيان الدولة الناشئة ، حققت نوعا من الاختلاط بين العرب انفسهم ، فقد مضت جيوش الخلافة الى اليمن والبحرين والى عمان ونجد ، وانتهى الأمر بها الى الظفر ، ولكن هذه الجيوش لم تحقق ظفرا ماديا فحسب وانما حققت ما كان مقدرا لها في طريق الوحدة ، فإذا الجنود لا يعودون جميعهم الى بلادهم أو مجتمعاتهم أو قبائلهم ، وانما يظلون في هذا المجتمع الجديد الذي انشأوه ، يمتزجون به ويختلطون معه ويشاركونه الحياة ،

ولا تحول القبلية بينهم وبين هذه المشاركة ، إذ لم تعد القبلية هي الرباط الأوحد بين هؤلاء الناس وانما اضحت اخوة العقيدة وصلة الدين هي الرباط الأقوى ، هذا ما نفهمه من حديث الطبري ، ان العلاء الحضرمي قائد الجيوش التي خرجت تحارب المرتدين في البحرين اقفل الناس بعد انتصاره إلا من أحب المقام[١] .

ورغم ان خـروج العـرب من جزيرتهم اثناء الفتوح لم يكن قبلي الصورة بشكل دقيق ، لأن الخليفة كـان يبعث الى المدن والقبـائـل يستنصرها ويرغبهـا في الجهاد ، فكانت تتوافد عليه الجموع من هنا وهناك ، فيصرفها في الوجهة التي يرى[٢] ، فإن الباحث يلاحظ ان القبائل كانت تفصح في بعض الأحيان عن ايثارها منطقة دون أخرى ، وقتال قوم من المشركين دون آخرين ، ووراء هذا الاختيار تكمن نزعات قبلية وعوامل اخرى تتصل بالبيئة والجوار والعادات المألوفة وغير ذلك ، فعندما سأل عمر بن الخطاب سروات بجيلة ووفده : «أي الوجوه أحب اليكم ، قالوا الشام ، فإن اسلافنا بها»[٣] . وحين اراد عمر بن الخطاب ندب الناس مع سعد بن أبي وقاص ، اراد أهل اليمن من النخع التوجه الى الشام وكرهوا المسير الى العراق لأن وجه فارس كان من أكره الوجوه الى العرب وأثقلهـا عليهم ، لشدة سلطـانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم[٤] ، فاضطر عمر ازاء اصرارهم الى توجيه نصفهم الى العراق والنصف الآخر الى الشام[٥] . ولوحظ بصورة عامة ان أهل اليمن كانوا ينزعون الى الشام ومضر تنزع الى العراق[٦] ، ونظرا لنزول القبائل العربية منذ العصر الجاهلي على حدود فارس ، ولما كان لها من تجارب سابقة في قتال الفرس ، لم يكن اجرأ على فارس من ربيعة[٧] ومن ثم كانت طلائع جيوش العرب في قتال أهل فارس كلها من هذه القبائل[٨] . وعندما توجه سعد بن ابي وقاص الى العراق لحرب فارس ، كان المثنى بن حارثة الشيباني في ثمانية آلاف من ربيعة ، وستة آلاف من بكر بن وائل والفين من سائر ربيعة[٩] . وفي سنة ١٤ هـ اختط عتبة بن غزوان البصرة بالقرب من الابلّة[١٠] التي كانت مرفأ السفن من الصين وما دونها ، وكان فرج الهند أي الابلة كما يذكر المغيرة بن عتيبة قاضي الكوفة اعظم فروج فارس شأنا وأشدها شوكة ، وكان صاحبه يحارب العرب في البر والهند في البحر[١١] . وقد بدأت البصرة بداية متواضعة ، حيث لم يزد عدد سكانها على ٨٠٠ مقاتل ، ولكنها لم تلبث ان ازدادت اهميتها حين صارت قاعدة للفتوح في بلاد فارس نفسها ، وترتب على ذلك تدفق القبائل العربية

اليها ، فأمر عمر بن الخطاب ، ابا موسى الأشعري(١٧هـ - ٢٥هـ) بالخروج اليها وتوزيع الخطط عليهم[١٢] وتمكنت الجيوش الاسلامية المعسكرة في البصرة في امارة ابي موسى الأشعري من توطيد سلطانها على كور دجلة وفتح اصفهان وقم وقاشان[١٣] ، كما اشتركت مع أهل البحرين وعمان في بعض فتوح فارس ، إذ انه عندما ولى عمر بن الخطاب ، عثمان بن ابي العاص الثقفي البحرين وعمان ، وجه أخاه الحكم بن أبي العاص في البحر إلى فارس في جيش عظيم من عبدالقيس والازد وتميم وبني ناجية وغيرهم ففتح جزيرة أبركاوان ، ثم صار الى توج ، وفي رواية ابي مخنف ان عثمان بن أبي العاص نفسه قطع البحر الى فارس فنزل توج ففتحها وبنى المساجد فيها وجعلها دارا للمسلمين وأسكنها عبدالقيس وغيرهم[١٤] ، وفي امارة عبدالله بن عامر على البصرة (٢٥ - ٣٦هـ) اتسعت جبهة القتال التي كان يقوم بها البصريون وأصبحت قواتهم مسؤولة عن الفتوح في كافة المقاطعات الواقعة شرقي الخليج العربي . فإذا أردنا التعرف على القبائل التي أقامت في البصرة ، وكان لها هذا الدور في الفتوح ، فإننا نجد عند الطبري في معرض حديثه عن استنجاد اشراف أهل الكوفة بمصعب بن الزبير والي البصرة سنة ٦٧هـ ، ذكرا للأخماس التي قسمت اليها البصرة في عهد زياد بن ابيه (٤٥ - ٥٣هـ) إذ ولى مصعب ، مالك بن مسمع على خمس بكر بن وائل ، ومالك بن المنذر على خمس عبدالقيس ، والأحنف بن قيس على خمس تميم ، وزياد بن عمرو الأزدي على خمس الازد ، وقيس بن الهيثم على خمس اهل العالية[١٥] . وهذه القبائل كلها ما عدا أهل العالية كانت تقطن في المناطق المحيطة بخليج العرب ، فقد كانت منازل بكر بن وائل تمتد من اليمامة الى البحرين الى سيف كاظمة الى البحر فأطراف سواد العراق فالابلة فهيت[١٦] ، أما قبيلة تميم المضرية فكانت ديارها بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة واليمامة حتى يتصلوا بالبحرين[١٧] ، ووجد في أرض البحرين خلق كثير من العرب من عبدالقيس وبكر بن وائل وتميم[١٨] ، وكانت مواطن عبدالقيس في تهامة ثم خرجوا الى البحرين فزاحموا بكر بن وائل وتميم وقاسموهم في المواطن[١٩] . أما أزد البصرة فهم من أزد عمان ، وقد كان الأزد هم أغلبية سكان عمان ومما يثبت ذلك ان عبدالله بن الزبير عندما كتب الى المهلب بن أبي صفرة أن يستخلف على خراسان ويتوجه الى البصرة لمقاتلة الخوارج الأزارقة ، أمر

بديوان الجند فأحضر وانتخب من ابطال البصرة عشرين ألف رجل فيهم من الأزد ثمانية آلاف رجل، وبقيتهم من العرب[٢٠]. وعندما هرب يزيد بن المهلب من سجن عمر بن عبدالعزيز سنة ١٠١هـ، توجه الى البصرة موطن اسرته من المهالبة ومستقر قبيلته ازد عمان[٢١]. وبما اننا نعلم انه بتخطيط البصرة والكوفة انقسم العراق الى ولايتين، كل واحدة مستقلة عن الأخرى في تشكيلاتها ومصادر فيئها وساحات حربها، فإننا نستنتج ان هذه القبائل التي قطنت البصرة كان لها دورها في فتوح فارس وخراسان، وسجستان واصبهان والأهواز[٢٢]. وفي خلافة معاوية بن ابي سفيان، أصبحت منطقة البحرين وعمان تابعة اداريا الى والي العراق، وبقيت تابعة طيلة خلافة الأمويين ما عدا خلافة عمر بن عبدالعزيز[٢٣]، مما أدى الى ازدياد في الهجرة من هاتين المنطقتين الى البصرة ومن ثم الى خراسان، إذ تذكر المصادر ان عدد مقاتلة البصرة في خراسان سنة ٩٦هـ مع قتيبة بن مسلم الباهلي كانوا اربعين الفا، من العالية تسعة آلاف، وبكر سبعة آلاف، تميم عشرة آلاف وعبدالقيس اربعة آلاف، والأزد عشرة آلاف[٢٤]. وكان هؤلاء المقاتلة مقيمين نتيجة للاجراء الذي اتخذه زياد بن ابيه سنة ٥١هـ عندما ولى الربيع بن زياد الحارثي خراسان، وحول معه من أهل المصرين زهاء خمسين الفا مع عيالاتهم[٢٥] وبما ان مقاتلة الكوفة كانوا سبعة آلاف فقط في خراسان سنة ٩٦هـ فإنه يمكننا أن نستنتج ان زياد بن ابيه نقل ما يزيد على اربعين الفا من مقاتلة البصرة الى خراسان، ومع ذلك نجد ان عدد مقاتلة البصرة في ولاية عبيدالله بن زياد (٥٥ ـ ٦٤هـ) اصبح ثمانين الفا بعد ان كان اربعين الفا، إذ يقول: «لقد وليتكم وما احصى في ديوان مقاتلتكم الا أربعين ألفا ولا في ديوان عيالاتكم الا سبعين ألفا ولقد أحصى اليوم في ديوان مقاتلتكم ثمانون الفا وفي ديوان عيالاتكم مائة وعشرون الفا[٢٦] وهذا يعني استمرار الهجرة من مناطق الخليج العربي الى البصرة، وان الفتوح في الشرق قامت الى حد كبير بجهود مقاتلة هذه القبائل بما في ذلك الفتوح في منطقة السند والهند، سواء تلك التي انطلقت من مكران ثغر السند الذي تم فتحه في ولاية زياد بن ابيه[٢٧] أو تلك التي كانت تنطلق من سجستان التي كانت كذلك ثغرا تنطلق منه جيوش المسلمين نحو الهند وبلاد الترك[٢٨]. وكان ولاة سجستان يعينون من قبل الخليفة احيانا أو من قبل ولاة العراق احيانا اخرى[٢٩] وقد تجمع ولاية سجستان

وخراسان لوال واحد ، فقد استعمل عبدالملك بن مروان ، أمية بن عبدالله بن خالد بن اسيد على خراسان وسجستان وجمعهما الحجاج بن يوسف الثقفي لقتيبة بن مسلم الباهلي[٣٠] .

بدأت صلات العرب مع مشارف الهند في عهد الخلفاء الراشدين ، لأنه عندما استولى العرب في ولاية عبدالله بن عامر على منطقة هراة ، استولوا على ذلك الربع من خراسان المعروف اليوم بأفغانستان[٣١] ، كما وصل الأحنف بن قيس الذي اصبح سيد تميم في البصرة الى بلخ ، مدينة طخارستان والتي كانت تدعى أم المدن ، وهي اليوم من مدن افغانستان الهامة المشهورة بمزارها المعروف بالمزار الشريف[٣٢] .

والمعروف ان منطقة افغانستان هي منطقة عبور من الصين الى ايران ، أو من ايران الى الهند ، ولذلك فإن غزوات المسلمين نحو الهند كانت تتم عبر جبهتين ، جبهة خراسان وسجستان ، وجبهة مكران ، إلا ان فتوح السند تمت عن طريق مكران بقيادة محمد بن القاسم الثقفي الذى استطاع فتح الديبل (كراتشي) بقواته البرية والبحرية التى أمده بها الحجاج بن يوسف الثقفي والتي ساهم فيها مقاتلة البصرة ، كما ساهم فيها ٦٠٠٠ من مقاتلة الشام ، وقد اختط محمد بن القاسم اثر استيلائه على الديبل مسجدا للمسلمين ، وانزلها اربعة آلاف من المقاتلة . وبعد مقتل الملك داهر غلب محمد بن القاسم على بلاد السند ، وأصبحت الحملات توجه منها الى الهند[٣٣] .

وباستيلاء العرب على الديبل سيطر العرب على جميع الموانىء الهامة في طريق الملاحة بين الهند والغرب ، وأصبح الخليج العربي لأول مرة تحت سيطرة عربية اسلامية كاملة بعد ان كانت البحرين[٣٤] والساحل الشرقي والشمالي تحت سيطرة الفرس الذين كثيرا ما أساءوا معاملة العرب . وكان من نتيجة وقوع بلاد فارس والعراق والشام ومصر تحت سلطان العرب المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم امتداد هذه الدولة من السند حتى الاندلس في خلافة بني أمية ، ان انعكس ذلك على النشاط الاقتصادي بين الشرق والغرب ، فمن المعروف ان التجارة بين الشرق والغرب كانت تتبع منذ القديم طريقين رئيسيين ، طريق البحر الأحمر ومصر ، وطريق الخليج العربي والشام[٣٥] وعندما تسيطر دولة واحدة على ايران والعراق والشام ومصر كان الطريق البحري المار من خليج العرب يزدهر عادة على حساب البحر الأحمر ومصر ، لأن الخليج

العربي يكمله الفرات ودجلة وهما ممران طبيعيان للملاحة بين حوض البحر المتوسط وشرقي آسيا ، كما انه طريق أقصر وأمن من البحر الأحمر ، لأن النصف الشمالي من البحر الأحمر الذي يمتد حوالي ١٢٠٠ ميل ينطوي على عقبات كأداء أهمها الشعاب المرجانية التي تحف بكلا الساحلين وتمتد هذه الشعاب في بعض المواضع بعيدا في البحر فتعرقل الملاحة وتعين على القرصنة ، كما ان البحر يكاد يكون خلوا من الموانىء الصالحة التي يمكن أن يلجأ اليها البحارة حين هبوب العواصف أو تعرضهم للقرصنة ، وكانت الملاحة شمالا صعبة على الملاحين الاوائل لأن الرياح الشمالية تهب جنوبا على هذا الجانب من البحر طوال العام[٣٦] . ولذلك أقام العرب طرقا للقوافل على طول الساحل الغربي من جزيرتهم ، أما وقد توحدت هذه المناطق تحت سلطة العرب بما في ذلك جزيرة العرب فقد ازدهر الطريق البحري المار من الخليج العربي ونشطت العلاقات التجارية بين الخليج والهند والشرق الأقصى ، بعد ان تناقصت الى حد ما في العهود الساسانية نظرا لتشجيع الرومان ثم البيزنطيين الذين سيطروا على الشام ومصر ، التجارة عن طريق البحر الأحمر ، والذي كان رغم بعده ورغم العقبات أسلم وأبعد عن سيطرة الساسانيين ، ولذلك اصبحت التجارة المارة بالخليج مقتصرة بالدرجة الأولى على ما تستهلكه الامبراطورية الساسانية ، ويرى بعض الباحثين أن هذه التجارة قاست كثيرا لسقوط الامبراطورية الساسانية حيث تحطمت على إثر ذلك ارستقراطيتها التي كانت أهم مستهلك لسلعها وللكماليات التي تستورد من الهند ، ولأن العرب الذين حلوا محلهم كانوا يفضلون المنتجات المحلية الرخيصة[٣٧] . واذا كان هذا الرأي ينطبق على السنوات الأولى من الفتوح واضطراب الوضع في العراق قبل توطيد سلطان العرب على العراق والشام ومصر والذي لم يتجاوز السنوات العشر ، فإنه لا ينطبق على الواقع ككل ذلك ان العرب تركوا للتجار والصناع والفلاحين حرية مزاولتهم لأعمالهم وأوجدوا الشروط التي تساعدهم على مزاولتها ، وحينما سيطر العرب على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني والبيزنطي ، ولم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدولتين من أهمية ، ساعد ذلك التاجر على التحرك والتجول في الأراضي الاسلامية كلها .

واذا كان العرب قد قضوا على الساسانيين وعلى ارستقراطيتهم ، فإنهم لم ينجحوا في القضاء على الامبراطورية البيزنطية التي خسرت

الشام ومصر اولا ثم الشمال الافريقي ، ولم يكن باستطاعة الامبراطورية البيزنطية الاستغناء عن بضائع الشرق ، ولذلك نجد انه رغم الحملات وغزوات الصوائف والشواتي التي كان يوجهها الخلفاء ضد البيزنطيين ، فإن حالة الحرب لم تكن تستدعي بالضرورة توقف جميع العلاقات ، لأننا لا نستطيع ان نسبغ على حياة القرون الوسطى ظواهر هي من طبيعة العلاقات السياسية الحديثة ، فابن جبير مثلا في رحلته يتحدث عن اتصال تجاري مزدهر كان يقوم بين المدن الاسلامية في الشام وميناء الصليبيين في عكا خلال الحروب الصليبية[٣٨] وهو اتصال لم يكن يتأثر اطلاقا بالأعمال العسكرية الناشبة حينئذ بين الأمراء المتنازعين وجيوشهم ، وكذلك الأمر بين العرب والبيزنطيين ، فإن فتح الشام ومصر لم يؤد الى تغييرات اقتصادية حاسمة ولم تتوقف العلاقات التجارية بينهما ، ولعل رواية ابي عبيد في كتابه الأموال تشير الى هذا الاستمرار في التبادل التجاري ، فهو حين يتطرق الى موضوع الضريبة المفروضة على تجار الثغور أو أهل الحرب ، يذكر «انه كان من مذهب عمر بن الخطاب فيما وضع من ذلك ، انه كان يأخذ من التجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ومن أهل الذمة نصف العشر (أي خمسة دراهم عن كل مائة درهم) ويأخذ العشر على تجارة اهل الحرب ، وانه انما فرض عليهم العشر لأنهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله اذا قدموا بلادهم» . وبعد هذا ببضعة سطور يحدد من هم اهل الحرب على نحو لا يقبل اللبس فيقول : «الروم كانوا يقدمون الى الشام[٣٩] . كما يذكر البلاذري وابن قتيبة ان القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض العرب وتأتي من قبلهم الدنانير[٤٠] وتشير الأدلة المختلفة ان حكام القسطنطينية في هذه الفترة لم يمنعوا التجارة مع الشام ومصر إلا فيما يتعلق بالخشب المستخدم في بناء السفن لأن المنع يعني الاعتراف بخسرانهم لهاتين الولايتين نهائيا ، ويبدو ان الحكام البيزنطيين حتى سنة ٦٩٢م/٧٣هـ كانوا يرفضون الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجة عن نطاق الامبراطورية ، ذلك ان العرب تركوا ممارسة التجارة البحرية في الشام ومصر لمن كانوا يمارسونها سابقا من سكان الاسكندرية أو سكان مدن السواحل الشامية ، وبقيت اللغة اليونانية لغة دواوين الخراج ، واحتفظت اوراق البردى التي كان يصنعها الأقباط في مصر بالشارات والتعابير المسيحية التي كانت مستخدمة في العهد البيزنطي ، واستمرت دور الضرب

البيزنطية في سك العملة الذهبية التي بقيت حتى عام ٧٣هـ النقد الأساسي المتداول في مصر والشام[٤١] وبقي النقد الذهبي البيزنطي النقد العالمي المستخدم في المعاملات التجارية في عالم البحر المتوسط[٤٢] و في التجارة مع الهند[٤٣] . ولذلك لم يطبق حكام القسطنطينية قوانين الملاحة الصارمة التي كانت مطبقة سابقا في عهد جستنيان الأول واصبح التجار احرارا لا رقابة من الدولة عليهم [٤٤] وظهر قانون الملاحة الروماني الذي اصبح بموجبه ربابنة السفن احرارا في أن يتوجهوا الى المكان الذي يريدونه من أجل أخذ حمولتهم[٤٥] ، ومن ثم فإنه يمكن اعتبار القرن الأول الهجري ، السابع الميلادي عهد التجارة الحرة غير المقيدة في البحر المتوسط ، كما ان كلا من الشام ومصر ازدهرتا اقتصاديا ، فعلاقات مصر التجارية مع الجنوب والشرق قد ازدادت ، لأن الساسانيين الذين هددوا في نهاية القرن السادس توسع التجارة المصرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، تحطمت قوتهم على أيدي العرب ، فعادت لهذا الطريق كذلك اهميته ، كما ان ازالة الحواجز التجارية القديمة بين الشام والعراق ساعدت على ازدهار التجارة مع الشرق ، ولدينا أدلة على استمرار التجارة الاوربية مع الشرق ، فقد كانت فرنسا المركز التجاري الأساسي للتجار السوريين ، وحتى سنة ٧١٦م/٩٨هـ كان جنوب فرنسا يستورد التوابل الشرقية ، واوراق البردى ، ومنتجات اخرى ، ونجد دليلا على ذلك كما يقول بيرين Pirenne في الامتياز الذي منحه الملك الميروفنجي في تلك السنة لدير كوربي Corbie باستيراد البضائع الشرقية دون دفع ضريبة في ميناء فوس[٤٦] وهذا الامتياز يؤكد ما كان قد منح من امتيازات في القرن السابع الميلادي .

ولكن لما لم يعد الخليج والبحر الأحمر طريقين متنافسين في باديء الأمر ، فإن الوضع اختلف نتيجة لاختلاف طبيعة النزاع بين الأمويين والبيزنطيين ما بين ٧٣ ـ ١٣٥هـ/٦٩٢ ـ ٧٥٢م . إذ ان الاسلوب الذي اتبعه العرب في محاولاتهم الاستيلاء على القسطنطينية كان عسكريا بحتا في البدء ، أما في محاولتهم الثالثة للقضاء عليها فإننا نرى تداخل العامل الاقتصادي ، فبالاضافة الى العداء العسكري البري والبحري اضيفت الحرب الاقتصادية . بدأت هذه الحرب الاقتصادية عندما ضرب عبدالملك الدنانير الذهبية المعربة[٤٧] ، وحينما امر ان تزال الشارات والعبارات المسيحية من اوراق البردى ، وان تعرب دواوين

الخراج[٤٨] ، مما يشير الى ان الأمور التي حاكى فيها الخلفاء الأمويون الادارة البيزنطية ، أو نقلوها بعد التعديل انما هي محاولة عامدة منهم غايتها دراسة الحيثيات واعداد انفسهم للسيطرة على مقدرات دولتهم ، وان عبدالملك اراد ان يحرر الدولة الاسلامية من السيطرة البيزنطية اقتصاديا ، وان يقيم وحدة اقتصادية مستقلة ، وربما اراد بعمله هذا أن يحقق نوعا من الضغط الاقتصادي ، لاسيما وان رواية المدائني تشير الى ان خالد بن يزيد اشار على عبدالملك بتحريم دنانير الروم ، ومنع التعامل بها ومنع دخول شيء من القراطيس الى بلاد الروم[٤٩] وكان من نتيجة هذه الاجراءات التى اتخذها عبدالملك أن نقض جستنيان الثانى الصلح [٥٠] واتخذ اجراءات اقتصادية طبقها هو وخلفاؤه من بعده ، وإذا كان من الصعب اعطاء صورة متكاملة للنظام الذي طبق ، فإنه يمكن رسم الخطوط العريضة له ، في العودة الى النظام التجاري المقيد الذي كان متبعا في عهد جستنيان الأول ، وخلفائه ضد الامبراطورية الساسانية ، حيث كانت طرق التجارة والبضائع المستوردة كلها موجهة بدقة لمصلحة الامبراطورية والدفاع عن مصالحها ، كما ان بيزنطة استخدمت اسطولها لدعم ذلك النظام ، وهنالك من الاسباب ما يدفع الى الاعتقاد بأن بيزنطة طبقت في حوالي سنة ٧١٥ و٩٧/٧١٦ و٩٨هـ الحرب الاقتصادية المدعومة بالقوى البحرية ضد الشام ومصر ، والافتراض كما يقول هايد Heyd بأن هذا النظام قد طبق ، يقوى حينما نعلم ان آخر حمولة ضخمة من البضائع الشرقية تسجل في ميناء فوس Fos كانت سنة ٩٨ هـ/٧١٦ م ، كما ان مملكة لمبارديا اوقفت استخدامها لأوراق البردى[٥١] . أي أن البيزنطيين أغلقوا البحر المتوسط في وجه الملاحة المنطلقة من الأراضي العربية إلا اذا اتبعت هذه السفن الطرق والتنظيمات المفروضة من قبل بيزنطة ، وقد يفسر هذا توجه اسطول اسلامي ضخم في اواخر سنة ٩٩هـ نحو القسطنطينية[٥٢] إذ أن الحصار البيزنطي كان يعني تهديدا للحياة الاقتصادية والتجارة الخارجية في الشام ومصر ، إلا انه لم يكن باستطاعة بيزنطة أن تتخلى عن منتجات العالم العربي الاسلامي ، كما ان التوابل وبضائع الشرق التي كان يتاجر بها التجار المسلمون كانت مواد أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية ، ولذلك سمح حكام بيزنطة لمرفأ أو مرفأين مراقبين باستقبال التجار المسلمين ، منهما

مرفأ طرابزون Trebizond الذي كان يسمح بادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة(٥٣) ويعلق لوبيز Lopez انه على الرغم من اننا لا نملك دليلا واقعيا، إلا انه ليس ثمة ما يمنعنا من الافتراض ان هذا الاجراء قد يعود الى ٧١٦م/٩٨هـ أو قبل ذلك، لأن اختيار طرابزون كمركز للتجارة العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لبيزنطة، فطرابزون مرفأ أمين على البحر الأسود غير مهدد، وباتخاذهم طرابزون كمحطة نهائية للتجارة العربية، سحبوا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة اليها من مصر والشام المنافسين البحريين لها الى بلاد العراق، وربما كانت القسطنطينية المرفأ التجاري الثاني الذي كان يسمح للتجار بدخوله والخروج منه، لأننا اذا نظرنا الى التعليمات الواردة في كتاب صادر في القرن التاسع الميلادي والمتعلقة بتجارة العاصمة، نجد ان هذه التعليمات تشير بصراحة الى ان التجار العرب كانوا يشجعون على المجيء الى المدينة من القرن الذهبي حيث كانوا يعطون امتيازات تجارية خاصة(٥٤) وربما كان هذا الوضع مطبقا منذ العام ٧١٨/١٠٠هـ فالجامع الذي يقال ان ليون الايسوري قد بناه في القسطنطينية قد يؤيد هذا الافتراض(٥٥).

نستنتج مما تقدم ان طريق الخليج العربي وطريق البحر الأحمر استمر استخدامهما حتى حوالي سنة ١٠٠هـ حينما أدت الظروف الدولية الى ان يزداد الاعتماد على الطريق البحري المار بالخليج العربي، مما ادى الى ازدهار الموانيء المحيطة بهذا الخليج وبالساحل المؤدي الى الهند، ابتداء من الديبل التي اصبحت مجمع التجار(٥٦)، الى هرمز فرضة كرمان التي ترفأ اليها المراكب، ومنها تنقل امتعة الهند الى كرمان وسجستان(٥٧)، أما سيراف فقد كانت فرضة فارس العظيمة، ويذكر ابن حوقل ان أهل سيراف والسواحل ربما غاب احدهم عامة عمره في البحر، وقد بلغه ان رجلا من سيراف الف البحر حتى ذكر انه لم يخرج من السفينة نحو اربعين سنة، وكان إذا قارب البر اخرج صاحبه فقضى حوائجه في كل مدينة ويتحول من سفينة الى أخرى اذا انكسرت أو احتيج الى اصلاحها، وقد التقى ابن حوقل بأحد تجار سيراف في البصرة وهو ابو بكر عمر السيرافي الذي كانت له مراكب تتجه نحو الهند والصين والزنج(٥٨). ويعلق ابن حوقل «انه لا يعلم في جميع بلاد فارس وغيرها سفنا تجرى في بحر فارس (وهو يقصد بذلك بحر الهند) فتخرج عن حد مملكتها وترجع بجلالتها وصيانتها إلا لفارس(٥٩).

لا شك في ان في قول ابن حوقل الكثير من المغالاة ، لأننا نجد المسعودي يشير الى ارباب المراكب من السيرافيين والعمانيين ومن أهل البصرة[٦٠] ، كما انه حين يتكلم عن العمانيين الذين يركبون بحر الهند ، يقول : (وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد)[٦١] . وقد كانت صحار قصبة عمان أعمر مدينة فيها وأكثرها مالا ، يذكر الاصطخري انه «لا تكاد تعرف على شاطىء بحر فارس بجميع بلاد الاسلام مدينة أكثر عمارة ومالا من صحار[٦٢] ، وكانت صحار على حد تعبير ياقوت الحموي ، دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن[٦٣] .

أما البصرة ، فإنه نظرا لموقعها عند الطرف الشمالي من خليج العرب وعلى اطراف الصحراء فقد كانت تصلها تجارات الولايات الشرقية ، وتجارات الهند ، ثم تقوم بتوزيعها الى سائر الامصار ، وظلت كذلك حتى في العصر العباسي حين انقطع عن أهلها توزيع العطاء وصارت جبايات الولايات ترسل الى بغداد ، ونظرا للنشاط الاقتصادي الكبير فيها فإن الدولة كانت تهتم بتطهير الخليج العربي من القراصنة واتخذت في عبادان قاعدة للقضاء على نشاطهم وكان اول من رابط بعبادان عباد بن الحصين (ت نحو ٨٥هـ/٧٠٥م) ويذكر ابن الكلبي (ت نحو ٢٠٤هـ) ان الربيع بن صبح الفقيه مولى بني سعد جمع مالا من أهل البصرة فحصن به عبادان ورابط فيها[٦٤] . وقد استمرت المرابطة فيها الى عصر الاصطخري الذي يقول «ولها على دوام الأيام مرابطون»[٦٥] .

كان أهم ما يجلب من الهند إذا تركنا جانبا الكماليات كالدر والياقوت والكافور والعنبر والافاوية وجوز الطيب والسنبل والفلفل[٦٦] ، مادة الحديد الذي كانت تصنع منه السيوف في اليمن ، ويزود بها العرب بعدئذ[٦٧] وربما كانت تصنع من الحديد ادوات اخرى لم تشر اليها المصادر ، كما ان السيوف الهندية أو الهندوانية كانت معروفة عند العرب بلينها وحدتها وكذلك الرماح ، وينقل القزويني عن ابي الضلع السندي قوله فيما يجلب من الهند بالاضافة الى ما ذكر سابقا :

سيوف ما لها مثل
قد استغنت عن الصيقل
وأرماح إذا مـــا
هزت اهتز بها الجحفل[٦٨]

والراجح ان السيوف الهندية كانت تصنع في الهند وسيلان ثم تصدر الى البصرة[٦٩] .

أما الرماح والاسنة ، فكان العرب يستوردونها من الخط ، وهي المنطقة التي تضم القطيف والعقير وقطر ،

وهي مواضع كانت تجلب اليها الرماح والقنا من الهند فتقوم أو تثقف فيها وتباع للعرب[٧٠] .

بالاضافة الى الحديد والسيوف والرماح كانت منطقة الخليج تستورد خشب الساج من الهند ويعتبر خشب الساج من أنفس انواع الخشب ، فهو شديد الاحتمال متى تم اعداده لم ينشق ولم يتشقق أو يتقلص أو يتغير شكله ، وهو عظيم النماء في تلال جنوب الهند وفي بورما وسيام واندونيسيا[٧١] وكان خشب الساج يستورد الى الخليج العربي من الهند منذ اقدم الأزمان وقد عثر عليه بين آثار البابليين والاخمينيين والساسانيين ، ومن الجلي ان ثيوفراستس Theophrastus (حوالي ٣٠٠ قبل الميلاد) يشير اليه حين يقول : «يقولون ان في جزيرة تايلوس Tylus (البحرين) تجاه الساحل العربي ، نوعا من الخشب يبنون به سفنهم ، وانه يكاد يمتنع على البلى اذا كان في ماء البحر ، فهو يبقى أكثر من ٢٠٠ سنة إذا ظل في الماء ، فإذا خرج منه كان اسرع الى التلف وان لم يتطرق اليه الا بعد حين» . وبما انه لم يكن في منطقة الخليج مثل هذا الخشب الطويل البقاء فمن المؤكد تقريبا انه ساج مستورد من الهند[٧٢] .

لم يكن خشب الساج هو الخشب الوحيد المستورد من الهند وانما كانوا يستوردون ايضا خشب النارجيل (جوز الهند) وكان العرب والفرس يستوردونه من الهند وجزرها منذ القديم أو يذهبون الى مواطنها نفسها ويبنون سفنهم فيها[٧٣] .

اذا كانت التجارة البحرية الواردة الى الخليج العربي والصادرة عنه مزدهرة في العصر الأموي ، فإن تولي العباسيين الخلافة دفع بها الى الامام ، لانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد وتشجيع الخلفاء العباسيين امتزاج رعاياهم العرب والفرس في وحدة اسلامية لسانها العربية وزاد المتكلمون بالعربية زيادة كبيرة باعتناق الايرانيين الاسلام واصطناعهم اللغة العربية في اغراض الدين والأدب والأعمال الرسمية والتجارة .

د. نجدة خماش
جامعة دمشق

الهوامش

(١) الطبري ، (ابو جعفر محمد بن جرير) (ت٣١٠هـ/٩١٠م) تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ اجزاء تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، ج ٣ ص ٣١٢ .
(٢) الطبري ، ج ٤ ص ١٨٦ .
(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٦٢ .
(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٤٤ .
(٥) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٨٤ .
(٦) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٨٧ .
(٧) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٨٧ .
(٨) البلاذري ، (أحمد بن يحيى بن جابر) (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ص ٢٤٢ .
(٩) الطبري ، ج ٣ ص ٤٨٦ .
(١٠) شيدت الابلة في العهد السلوقي في ملتقى دجلة العوراء بخليج البصرة باسم (ابولو) المعبود اليوناني ، وحرف العرب لفظ ابولو الى الابلة ، وكانت زمن الفتح العربي قد ابتعدت عن البحر قليلا بسبب رواسب الطمي . مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ج ١ ص ٧٥ .
(١١) الطبري ، ٣٤٨ ، و٥٩٤ . ابن الفقيه (ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني) كتاب البلدان ليدن ، ١٣٠٢هـ/ص ١٨٨ . ابن سعد ، (محمد) (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م) كتاب الطبقات الكبير ، ليدن ، ١٣٢٢هـ ، ج ٤ قسم ١ ص ٣ .
(١٢) الدينوري (أحمد بن داود) (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م) الاخبار الطوال ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦٠م ص ١١٨ .
(١٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(١٤) المصدر السابق ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ .
(١٥) الطبري ، ج ٦ ص ٩٥ .
(١٦) الهمداني ، (ابو محمد الحسن بن أحمد) (٣٣٤هـ/٩٤٥م) ط ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ تحقيق محمد الاكوع ، صنعاء ، ٨٤ .
(١٧) عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب ، مؤسسة الرسالة ، ط ١٤٠٥هـ/١٩٨٥ ، ج ١ ص١٢٦ .

(١٨) البلاذري ، فتوح ، ص ٨٩ ، الطبري ، ج ٣ ص ٣٠١ . ابن اعثم الكوفي (ابو محمد احمد) (ت٣١٤هـ/٩٢٦م) الفتوح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج ١ ـ ٢ ص ١٤٠ .
(١٩) كحالة ، معجم ، ج ٢ ص ٧٢٦ .
(٢٠) البلاذري فتوح ، ص ٠٨٧ الدينوري ، ص ٢٧٢ . كحالة ، معجم ، ج ١ ص ١٦ .
(٢١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٧ ، ٥٨٦ .
(٢٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(٢٣) الطبري ، ج ٥ ص ٢١٧ . ابن عبد ربه، العقد الفريد ، ج ٣ ص ٢٣٠ . خليفة بن خياط تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٩١ ، ٤١٥ ، ٤٣٠ ، ج ٢ ص ٥٣٨ .
(٢٤) الطبري ، ج ٦ ص ٥١٢ . البلاذري ، فتوح ، ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
(٢٥) البلاذري ، ص ، ٤٠٠ . الطبري ، ج ٥ ص ٢٢٦ .
(٢٦) البلاذري انساب ، الجزء الأول من القسم الرابع ، مؤسسة الدراسات الافريقية الاسلامية ، القدس ، ١٩٧١م ص ١٩٠ . الجزء الثاني من القسم الرابع ، مكتبة المثنى ، بغداد ص ١١٦ . فتوح ، ص ٤٢٢ .
(٢٧) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٤٤ و٣٤٥ .
(٢٨) ابن الاثير (ابو الحسن علي بن ابي الكرم) (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٧٢ . البلخي (ابو زيد احمد بن سهل) كتاب البدء والتاريخ ، باريز ، ١٩١٩م ، ج ٦ ص ٣٤٣ .
(٢٩) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٧١ .
(٣٠) البلاذري ، فتوح ، ص ٣٨٩ ، ٣٩١ ، خليفة ، تاريخ ، ج ١ ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ .
(٣١) Le Strange, The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge I 930, P : 407 .
كان العرب قد قسموا خراسان ارباعا تبعا لمدنها المشهورة ،نيسابور ، مرو ، هراة ، وبلخ .
(٣٢) Ibid. p. 420
(٣٣) البلاذري ، فتوح ، ٤٢٣ ـ ٤٢٧ .
(٣٤) المصدر السابق ، فتوح ، ص ٨٩ . ابن اعثم ، ج ١ ـ ٢ ، ص ١٤٥ .
(٣٥) Gazetteer of the Persian Gulf, Oman, and Central Arabia, Chap. I, P : 10 .
(٣٦) Encyclopeadia Britannica, Art. Red Sea .
(٣٧) صالح احمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ، دار الطليعة ، بيروت ، ص ٢٥٧ .
(٣٨) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٩م ، ص ٢٦٠ ، ٢٧٦ .
(٣٩) ابو عبيد (القاسم بن سلام) (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) كتاب الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، ط ١٤٠١هـ/١٩٨١م الفقرة ١٦٥١ ، ١٦٥٥ .

(٤٠) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ . ابن قتيبة (محمد بن عبدالله بن مسلم) (ت٢٧٦/٨٨٩) عيون الأخبار ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ج ١ ص ١٦٨ .

(٤١) البلاذري ، فتوح .

Grohman, Allgemeine Einfhrung in der Arabischen Papyri Vien, 1924, pp. 77, 92. The Kurrah Papyri from Aphrodite, The Oriental Institute, Chicago, 1936, pp. 70 - 72. Archibald Lewis, Naval Power in the Mediterranean. 500.1100, P. 79.

(٤٢) Ibid. p. 81.

(٤٣) صالح العلي ، تنظيمات ، ص ٢٤٢ .

Cosmas Indicopleustes. Christian Topography, p. 81.

(٤٤) Charanis P. The Social Structure of the later Roman Empire, Byzantium, 1944-1945, XVII pp. 50-51.

(٤٥) Archibald Lewis. OP. CIT. p. 83.

(٤٦) Ibid

(٤٧) Ibid. p. 89. Lopez, Mohammed and Charlemagn. A Revision in Speculum, 1943., XVIII, p. 21.

(٤٨) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٤٩) البلاذري ، ص ٢٤٢ .

(٥٠) Ostrogorsky G. History of the Byzantine State, Tr. by Joan Hussey Oxford, 1956, p. 118. George Hill, The History of Cyprus, vol. I. p. 287.

(٥١) Heyd, Histoir du Commerce ou Levant, Leipsig, 1885, pp. 89 - 92.

(٥٢) Archibald Lewis, OP. CIT. p. 95.

(٥٣) Lopez, Silk Industry in the Byzantine Empire, Speculum, 1945, XX pp. 26 - 27.

(٥٤) Ibid. p. 27.

(٥٥) Archibald Lewis, p. 94.

(٥٦) الاصطخري (الحسن بن احمد) (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م) مسالك الممالك ، ط ١٩٢١م ص ١٧٥ .

ابن حوقل (محمد) ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) صورة الأرض ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ٢٧٩ .

(٥٧) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة هرمز .

(٥٨) ابن حوقل ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

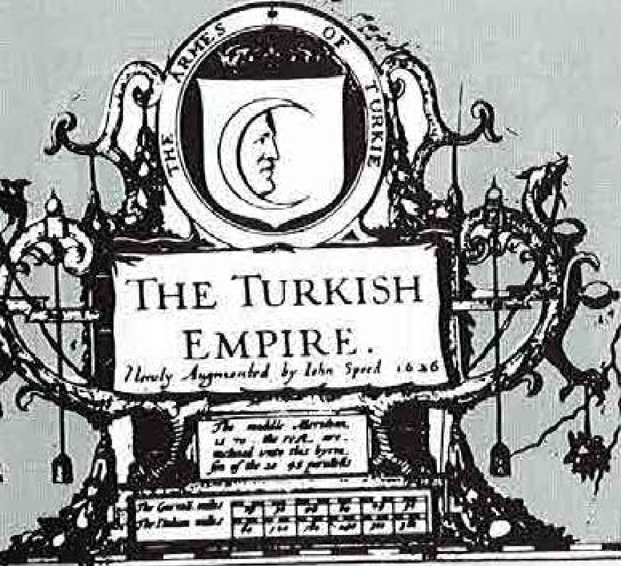
(٥٩) المصدر السابق ، ٢٤٤ .

(٦٠) المسعودي ، (ابو الحسن علي بن الحسين) (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ ٤ اجزاء ، دار الاندلس ، ج ١ ص ١٣٢ ، ١٧٦ .

(٦١) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٢٣ .

(٦٢) الاصطخري ، ص ٢٥ .

(٦٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة صحار .
(٦٤) ياقوت الحموي ، مادة عبادان .
وعباد بن الحصين بن يزيد بن عمرو الحبطي التميمي ، ابو جهضم كان فارس تميم في عصره ولي شرطة البصرة ايام ابن الزبير وكان مع مصعب ايام قتل المختار وشهد فتح كابل مع عبدالله بن عامر وادرك فتنة ابن الاشعث .
(٦٥) الاصطخرى ، ص ٣٤ .
(٦٦) القزويني ، (زكريا بن محمد بن محمود) (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م) اثار البلاد واخبار العباد ، ص ١٢٨ .
(٦٧) الكندي (يعقوب بن اسحاق) من اوائل القرن الثالث الهجري ، رسالة السيوف ، ص ٣ ب .
(٦٨) القزويني ، ص ١٢٨ .
(٦٩) الكندي ، ص ١٢
(٧٠) القزويني ، ص ٩١ . ياقوت الحموي ، مادة الخط .
(٧١) Enc. Br. Art. Teak.
(٧٢) جورج فضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة د. يعقوب بدر ، ص ٢٤٥ .
Theophrastus, History of Plants, Tr. by A. Hort, London 1916, Book V, Ch. IV.
(٧٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٦
Enc. Br. Art. Coconut.





رسالة الدولة العثمانية في الخليج العربي في القرن التاسع عشر

بقلم الدكتور
محمد مقصود اوغلو (تركيا)



ان رسالة الدولة العثمانية في الخليج العربي لا تختلف عن رسالتها في البلاد الاخرى التي كانت تخضع لسيطرتها . وهي « اعلاء كلمة الله » وتوحيد كلمة المسلمين وجمع المسلمين في العالم تحت راية السنة النبوية(١) وكانت الدولة العثمانية تمثل تمثيلا رسميا وفعليا الخلافة السنية منذ ان انتقلت الخلافة الى العثمانيين عام ١٥١٦ بعد



معركة مرج دابق .

وكانت انكلترا تسيطر على السواحل الشرقية (السواحل الايرانية) المطلة على الخليج في القرن التاسع عشر كما كانت الهند تحت الاحتلال البريطاني اذ ذاك والسواحل الغربية من الخليج كانت ضمن الاراضي العثمانية بما فيها سواحل نجد[٢] .

ومن جهة اخرى كانت فرنسا ايضا تحاول هي الاخرى ان تضع قدمها على السواحل الغربية من الخليج ، كل منهما في نطاق سياستها التوسعية في المنطقة ، ان مساعد قائمقام القطر التابعة آنذاك لولاية البصرة العثمانية اقترح على الحكومة العثمانية « ارسال سفينة حربية عثمانية للتجول على تلك الشواطىء لمواجهة نوايا دولة فرنسا في المنطقة[٣] .

وكانت بريطانيا تؤيد فرنسا في هذه الامور . فقد احتلت فرنسا اراضي الشيخ سعيد في اليمن مثلا بتشجيع من بريطانيا في ١٣٢١هـ/١٩٠٣م .

وكانت الدولة العثمانية تراقب انشطة انكلترا في المنطقة عن كثب . كانت الدولة العثمانية على علم حينما يدخل القنصل الانجليزي في البحرين سنة ١٣١١هـ/١٨٩٤م انه اخذ خريطة البحرين[٤] . كما كانت الدولة العثمانية حساسة كل الحساسية تجاه نيات انكلترا في المنطقة وكانت تتخذ التدابير اللازمة لعدم اعطاء اية فرصة لها في التدخل في شؤون المنطقة .

نشاهد هذه الحساسية مثلا في موقفها من صيد اللؤلؤ والصدف في السواحل العثمانية الواقعة في الخليج اذ ذاك . تجتنب الدولة العثمانية ان تضع هذا الصيد تحت الحصر او اعطاء اية رخصة لاى شخص او مؤسسة تجنبا لاي اثارة ضوضاء في المنطقة في عام ١٣٠٩هـ/١٨٩٢م[٥] . لأن انجلترا كانت تجول بسفائنها الحربية على سواحل نجد وعمان ومسقط اذ ذاك وكانت تجري مباحثات مع المشايخ في المنطقة[٦] فكانت لا شك تحرضهم ضد الدولة العثمانية حتى تثار المشاكل وتكون لها فرصة للتدخل في شؤون المنطقة ونشاهد هذه الحساسية في اعطاء الدولة العثمانية رخصة لدفن اموات الانجليز البروتستانت في مقبرة خاصة بهم في البصرة على الصعيد الانساني ولكنها تضع الشروط على هذا الامر :

١ ـ لن تتجاوز الحدود المعينة للمقبرة الخطوط المرسومة لها باي حال

من الاحوال .
٢ - لن يبنى اي بناء في المقبرة بالقرب منها من اى نوع كان .
٣ - ستوضع وتركز علامات على حدود المقبرة المعينة منعا في المستقبل من اتساع الساحة وتجاوز الحدود جمادى الاولى ١٣١١هـ/١٨٩٣م(٧) .

وكانت الدولة العثمانية تحاول ان تجمع شمل المسلمين في المنطقة ، وكانت تحاول جذب الشيخ مبارك الصباح ومنعه من الاستجابة للاغراءات الاجنبية ومنع تهريب الاسلحة والمؤن من الكويت الى نجد والعراق في ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م كما كانت تتخذ التدابير اللازمة بحق جميع الموظفين الموجودين الذين تصدر منهم اعمال سيئة في ولاية البصرة(٨) .

وكانت الدولة العثمانية تكافىء الخدمات الحسنة الصادرة من اتباع الشيخ مبارك الصباح مثل عبدالعزيز سالم البدر باعطائه رتبة استابل عامرة في ١٣٢٩هـ/١٩١١(٩) وكان الشيخ مبارك الصباح يعلن بمناسبة الحرب سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م « انه تابع مع جميع اتباعه للدولة العثمانية(١٠) . لأن الدولة العثمانية كانت تمثل الاسلام تجاه العالم اجمع . وكان رئيس الدولة العثمانية السلطان هو خليفة اهل السنة . ونشاهد هذا الامر بوضوح في الوثيقة المحررة من قبل مشايخ سوق الشيوخ والتي حررت في ٢٠ رجب ١٣٢٤هـ/ ٢٩ ايلول ١٩٠٦م بعد حالة العصيان والتمرد الذي دام مدة سنتين في سوق الشيوخ . انهم يصفون موقفهم من الخليفة وعصيانهم للدولة العثمانية « كفرا » ويخاطبون السلطان العثماني « امير المؤمنين حضرت مولانا وملاذنا السلطان المعظم كان الصراع في المنطقة بين الدولة العثمانية الممثلة للاسلام وبين الدول الكبرى وعلى رأسها انكلترا ، ولا شك ان الدولة العثمانية لم تكن دولة عنصرية قط . كانت تستخدم الاشخاص ذوى الكفاءة في المناصب المهمة بصرف النظر عن ديانتهم وقوميتهم . نذكر هنا على سبيل المثال ، سفير الدولة العثمانية في لندن كان روميا اسمه قوستاكي اندروبولو باشا ، وخصصت الدولة العثمانية لزوجته راتبا كافيا بناء على خدمات المتوفى سنة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م(١١) .

ومن جهة اخرى كان اهتمام الدولة العثمانية بالشرفاء والسادات والصالحين بالغا جدا . نذكر هنا كمثال على هذا ان الدولة عينت الشريف حسين امير مكة المكرمة عضوا في « شوراي دولت » (المجلس الاستشاري للدولة) سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م وخصصت له راتبا وقدره ٥٠٠٠ قرش(١٢)

واستأجرت له بيتا على ساحل البوسفور في اميركان باستانبول[١٣] كما قامت الدولة العثمانية بانشاء بيت جديد لعبدالواحد افندي من وجهاء مكة المكرمة حينما احترق بيته سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م[١٤].

وتستثنى الدولة العثمانية المشايخ في زاوية الشيخ عبدالقادر الجيلاني بطنا بعد بطن، من الخدمة العسكرية[١٥]. وتخصص الدولة راتبا لمحمد سعيد افندي الخضراوي من ادباء مكة المكرمة وشعرائها حينما زار الاديب استانبول سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م[١٦]. ولا ينحصر اهتمام الدولة العثمانية بالادباء والشعراء المسلمين بل يمتد الى مواطنيها النصارى ايضا. فتكافىء الدولة العثمانية بطرس البستاني افندي على تأليفه قاموسا باعطائه نيشانا مجيديا من الرتبة الثالثة ومنحه «عطية سنية» في عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م[١٧]. ومن المعلوم ان بطرس البستاني لم يؤلف قاموسا يخدم به الثقافة التركية بل الف قاموسا يخدم الثقافة العربية وهو مسيحي. تكافىء الدولة العثمانية هذا المؤلف اذ انه يخدم اللغة القرآنية والدولة تدرس في مدارسها اللغة العربية لا التركية. والثقافة لها أهمية كبرى، الثقافة تعدل كل شيء تقريبا في تكوين الفرد والمجتمع، كما يظهر في ايامنا ونحن نعاني جميعا من الغزو الفكري، واللغة ظرف الثقافة والثقافة امتن الطرق واخطرها واكثرها تأثيرا في الاستعمار.

تشجع الدولة العثمانية نشر اللغة العربية الفصحى اذ انها لغة القرآن الكريم وتفكر في اتخاذ التدابير اللازمة لصيانة الاطفال المسلمين في البلاد العربية من الغزو الفكري. نشاهد هذا الامر بوضوح في ان الدولة تحاول منع الاطفال المسلمين في سوريا وبيروت من مزاولة الدراسة في المدارس الامريكية والفرنسية هناك وتحاول تدشين مدارس اسلامية لمنافسة تلك المدارس سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م[١٨]. ومن ناحية اخرى تهتم الدولة العثمانية اشد الاهتمام بتربية وتدريس الاطفال المسلمين البارزين. كانت الدولة العثمانية تدرس اطفال الوجهاء على عهد السلطان عبدالحميد الثاني في مدرسة خاصة بهم واسمها «عشيرة مكتبي» (المدرسة الخاصة باطفال وجهاء العشائر) باستانبول[١٩]. وانتهت رسالة الدولة العثمانية في الخليج وفي العالم بانقراض هذه الدولة.

الهوامش

١ ـ كان العثمانيون يسمون انفسهم « دولة علية عثمانية » (الدولة العثمانية العلية) ولم يستعملوا بحق دولتهم صفة الامبراطورية ومن الواضح ان تسمية اي مجتمع سياسي بغير اسمه يتضمن العداوة تجاهه . اما تسمية بعض الاتراك المعاصرين العثمانيين بـ « الامبراطورية » فهي غفله وعمل ببغائي . بأخف التعبير .

٢ ـ تخبر السفارة البريطانية الحكومة العثمانية بان تجولات السفائن الحربية البريطانية على سواحل نجد كانت لحفظ الزوارق المستعملة لصيد اللؤلؤ هناك من تعرضات القراصنة (١١ رمضان ١٣٢٣) وثيقة رقم 203017

٣ ـ Basbakanlik Arsivi,Basra Gelen defteri, 263 13/211

٤ ـ Basbakanlik Arsivi, Yildiz, Sadaret Remsi Maruzat, 124/79

٥ ـ Basb.Ars.Basra Gelen Defteri, 263, 5/6

٦ ـ Basra Gelen Defteri,263 12/209

٧ ـ Basra Gelen Defteri, 263 16/209

٨ ـ Basra Gelen Defteri, 263 17/250

٩ ـ Basb. Ars. BED, 199723

١٠ ـ Basb. Ars. Taltifat, 1325, 144

١١ ـ Basb. Ars. BED Defter 232, 2152/4207

١٢ ـ Basb. Ars. Trade–Dahiliyye 1324,7

١٣ ـ Yildiz, Sadaret Resmi Maruzat, 186 12 120/30

١٤ ـ Trade–Dahiliyye 1310, 1310,44

١٥ ـ Trade–Dahiliyye 1310, 40

١٦ ـ Trade – Husu si 1310, 40

١٧ ـ BED 233, 40

١٨ ـ Trade–Hususi 1310 75

١٩ ـ BED 229 s.3